في تاريخ

الحضارة الإسلامية

دكتورة

نبيلة حسن محمد

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

« الحضارة هي تفنن في الترف واحكام الصنائع
المستعملة في وجوهه ومذاهبه»

ابن خلدون ، المقدمة.

مقدمـــة

يتناول هذا الكتاب جوانب من الحضارة الإسلامية فى المشرق والسودان الغربى أو (سودان المغرب).

القسم الأول يحتوى على أربعة فصول يتناول.

الفصل الأول: الحضارة الإسلامية.

تكلمنا فيه عن مفهوم الحضارة الإسلامية - وعن كلمة المدنية ومعناها وعرفنا الحضـارة عند ابن خلدون، وتحدثنا عن اللغة كـعامل من العـوامل الرئيسية فى نشأة وتطور الحضارة الإسلامية، ثم تطرق الحديث عن الدعائم التى تقوم عليها الحضارة الإسلامية.

الفصل الثانى: النظم الإسلامية.

تطرقنا فى هذا الفصل إلى المصادر التى ينبغى الرجوع إليها لدراسة النظم الإسلامية وفى مقدمتها كتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» للماوردى. ثم تكلمنا عن خطة:

١- الخلافـــة. ٢- الـــوزارة.

الفصل الثالث:

أفرد للكلام عن القضاة وعن نشأة جماعة الشهود منذ عصر الخليفة العباسى المنصور، وعن النظر فى المظالم،

الفصل الرابع: الحركات الفكرية.

فى هذا الفصل تعرضنا للكلام عن الجبرية والقدرية والمعتزلة مع الاشارة إلى بعض مشاهير علمائهم، وتحدثنا أيضا عن الخوارج وفرقهم المختلفة، ثم عن الشيعة وفرقهم وعن أشهر متكلميهم.

أما القسم الثانى فيتناول جوانب حضارية من السودان الغربى أو (سودان المغرب) الذى كان يشمل غانة ومالى وكوكوا والذى يعادل حاليا جمهورية مالى.

والغرض من هذه الدراسة هو تتبع انتشار الإسلام فى بلاد السودان.

وأول الظواهر التى تسترعى الانتباه أنه على عكس انتشار، الإسلام فى معظم أنحاء المشرق والمغرب وراء الجيوش الإسلامية، فإن الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل التجار التى كانت تتردد مابين المغرب والسودان.

وإلى جانب التجارة دخل الإسلام عن طريق التبشير، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الإباضية الذين عملوا على نشر الإسلام والعمل على توطيد أركانه فى هذه البلاد النائية التى كانت تعتبر آخر المعمور من الأرض.

وتوغل الإسلام فى قلب بلاد السودان مع مطلع القرن الخامس الهجرى وبفضل قبائل صنهاجة أصحاب اللثام (المرابطون).

ويشتمل هذا القسم إلى جانب المقدمة الخاصة بالمصادر على بابين:

الباب الأول: يتضمن التعريف بالبلاد والسكان والأحوال الاجتماعية والمعتقدات الدينية قبل الإسلام.

الباب الثانى: عن الإسلام فى الصحراء وبداية تعرّف العرب على بلاد السودان ثم انتشار الإسلام فى السودان الغربى.

وبعد فهذا الكتاب محاولة حاولت أن أسهم بها فى ابراز بعض الجوانب الهامة من تاريخ الحضارة الإسلامية - سواء فى المشرق أو السودان الغربى - بحياد وموضوعية.

وبعد.... ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾

صدق الله العظيم

نبيلة حسن

القســم الأول

جوانب من الحضارة الإسلامية في المشرق

الحضارة الإسلامية مع دراسة لبعض الخُطَط والحركات الفكرية

الفصل الأول

الحضـارة الإسلاميـة

الحضارة الإسلامية

مفهوم الحضارة الإسلامية واسع شامل، فالحضارة مشتقة من الفعل حضر حضوراً و حضارة. والحضور، كما هو معروف، ضد المغيب ولكن أصل الحضور المقصود هنا يكون إلى موارد الماء، ولذلك يقال (فى اللغة) للمناهل المحاضر، وذلك للاجتماع والحضور عليها. ولما كان تجمع الناس فى مواطنهم لايكون الا حول الماء أو بالقرب منه، لذلك اطلقت كلمة الحاضرة والحضرة والحضر على المدن والقرى والريف وأصبحت كلمة الحاضرة الحضرة (بالكسر أو بالفتح) خلاف البادية والبداوة والبدو. والكلمات الأخيرة من الفعل بدا يبدو أى برز وظهر، وربما كان ذلك بمعنى برز وظهر خارج الحاضرة والحواضر أقدم من كلمة البادية والبوادى – رغم ماهو معروف من «أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه» كما يقول ابن خلدون. واذا كانت الحاضرة ضد البادية كانت كلمة الحضارة خاصة بالمدن والقرى والريف وأهلها، ولهذا السبب تطلق على الحضارة أيضا كلمة المدنية التى تعادل كلمة Civilisation فى اللغات الأوربية، لأنها مشتقة من كلمة Civitas اللاتينية التى تعنى المدنية. ولما كانت كلمة المدنية الآن تعنى الرقى والتقدم ضد التوحش (البربرية) والتأخر، فهمت المدنية على أنها خاصة بالمجتمعات الراقية (أو المهذبة) صاحبة العلوم والمعارف، ورأى البعض أن المدنية أشبه بالنهضة كما فعل آدم متز Adam Metz الذى يسمى كتابه النهضة الإسلامية Die Renaissance des Islam وهو فعلا يقصد النهضة على زعم أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى الذى يكتب عنه.

ومن الجائز أن تقبل كلمة المدنية على أنها النهضة ولكن المفهوم يكون محدودا ضيقا، فالنهضة خاصة بالمجتمعات المتقدمة المتطورة وهى عادة لاتخص كل المجتمع بل الطبقات الممتازة من المجتمع دون غيرها. واذا جاز ذلك فى

القديم عندما كان الاهتمام ينصب على تاريخ الملوك والأمراء والطبقات العليا من المجتمع فان ذلك لم يعد جائزا فى العصر الحديث بعد أن أنصب الاهتمام على الشعوب والجماهير وأصبح الهدف من الدراسة هو خدمة المجتمع جميعا بطبقاته المختلفة.

وهكذا أصبحت كلمة المدنية أو الحضارة الخاصة بمجتمع من المجتمعات لاتعنى فقط الثقافة والتهذيب، ولاتعنى النهضة أى الرقى والتقدم بل أصبحت تعنى طريقة الحياة فى هذا المجتمع ولكل طبقاته سواء فى المدن أو فى الريف أو فى البادية، بمعنى أن الحضارة الواحدة يمكن أن تنقسم إلى طبقات تبعا لطبقات المجتمع. فهناك حضارة المدينة التى تتفاوت تبعا لموقف المدينة سواء كانت عاصمة كبيرة أو مركزا اقليميا، وهناك حضارة الريف أو الزراع، وهناك حضارة الرعاة أو أهل البادية.

والحضارة بهذا المعنى تشمل كل أنواع النشاط الإنسانى من مادى أو عقلى أو روحى. وهذه الحضارة هى التى يقصدها ابن خلدون فى مقدمته والتى يسميها بشكل عام العمران، والذى يعرفه بالاجتماع الإنسانى، والتى يجعل التعريف بها أساسا لفهم التاريخ الإسلامى أو انه بفضل هذه المقدمة يفهم التاريخ الإسلامى على أنه حضارة الإسلام[1].

والذى يفهم من المقدمة أن ابن خلدون يقسم – حسب طريقته المنهجية – العمران إلى مراحل ثلاث: **أولاها البداوة** (اذ يجعل البادية أصل العمران) وهو يخصص فصلا «فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل». **وثانيتها** «العمران» الذى يقصده بشكل عام وهو الوضع الطبيعى لمجتمعات الحواضر والامصار والقرى والأرياف فى حياتها المعتادة. **وثالثتها** «الحضارة» وهى تفنن فى الترف وأحكام الصنائع المستعملة فى وجوهه ومذاهبه من المطابخ

(١) أ.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية ، ص ٢-٣.

والملابس، والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق به، ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ماتنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وماتتلون به من العوائد[1].

وهذه المراحل الثلاث يتلو بعضها بعضا في تطور طبيعي وذلك بفضل «الملك» الذى يقصد به السلطان أي السلطة أو الدولة أو التنظيم السياسي الذي تقوم به الأمم الوحشية لأنها أقدر على التغلب ممن سواها. ثم يبدأ أهل الدولة الجديدة «يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون»[2]. وأخيرا تأتي « الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنه بفساده»[3].وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة اذ أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار مايستولي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله[4].

والحضارة الإسلامية هي التي قامت مع قيام الإسلام وانتشرت في كل بقاع الدولة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وحلت محل الخضارات القديمة في الشام (التي عرفت الحضارات الفينيقية والآرامية والكنعانية والتي انصبغت آخر الأمر بالحضارة الرومانية البيزنطية) وفي العراق

---

(1) المرجع السابق، ص ٣-٤، ابن خلدون، كتاب العبر، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧، المجلد الأول (المقدمة)، ص ٣٠٤ الفصل الخامس عشر (في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة).

(2) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٣٠٤.

(3) انظر ، ا بن خلدون، المقدمة ، ص ٦٦١، الفصل الثامن عشر (في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده).

(4) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٠٨.

(حيث قامت حضارات بابل وآشور القديمة أو التى تأثرت بحضارة الفرس)، وفى مصر (حيث عاشت الحضارة الفرعونية ثم القبطية التى انصبغت بالصبغة اليونانية)، وكذلك حضارة ايران القديمة (البرثية والساسانية)، إلى جانب حضارة البربر فى المغرب وحضارة القوط فى الاندلس.

ومع أن دولة الإسلام أخذت من كل هذه الحضارات القديمة إلا أنها تمثلت كل ما أخذته منها وصبغته بالصبغة الإسلامية. ولما كان الإسلام هو رسالة العرب، ولما كان العرب هم مادة الدولة الإسلامية فى عصورها الأولى كان من الطبيعى أن يصبح طابع هذه الحضارة هو الطابع العربى. وبناء على ذلك فهى الحضارة العربية قبل أن تكون الحضارة الإسلامية. فقبل أن يأخذ العرب من الشعوب التى دخلت فى نطاق دولتهم، أخذت هذه الشعوب من العرب، وذلك اتفاقا مع النظرية التى تقول أن المغلوب كلف بتقليد الغالب والتى يسجلها ابن خلدون عندما يقول: «المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»[1].

وكان أول ماينبغى على الشعوب المغلوبة أن تقلده هو لغة العرب بطبيعة الحال - فهى وسيلة التفاهم مع الفاتحين أصحاب الدولة، وهى وسيلة فهم الدين الجديد الذى أخذ العرب على عاتقهم نشره فى كل أرجاء الدولة (الامصار). وهكذا سار التعريب جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام وكان من الطبيعى الا يقتصر التعريب على اللغة بل شمل العادات والتقاليد العربية.

وهكذا كانت اللغة العربية عاملا من العوامل الرئيسية فى نشأة وتطور الحضارة الإسلامية التى هى بحق الحضارة العربية.

---

(١) أ.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٤-٥، ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٨، الفصل الثالث والعشرون (فى أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده).

ولقد ساعد على تعريب البلاد المفتوحة وجود نوع من القرابة بينها وبين العرب. فمنذ بداية الفتوح كان للعرب أثرهم السريع والعميق فى البلاد التى وجدت بها آثار اللغات والعادات السامية. ففى العراق والشام كانت اللغة العربية واللغة الآرامية القريبة منها سائدتين فى كثير من الأقاليم. كذلك كانت القرابة قريبة بين أهل الساحل الفينيقى وبين العرب.

وقبل هذا يمكن أن يقال عن المغرب والأندلس حيث سهل على العرب الاستقرار وجود قرابة لغوية بين اللهجات البربرية والاسبانية وبين اللغات السامية نتيجة لاعمال القرطاجنيين. واذا صح ذلك يكون التوسع العربى قد توقف غربا عند الحدود اللغوية التاريخية لقرطاجنة، بمعنى أن آثار الفينقيين فى البحر المتوسط مهدت التربة لاستقرار العرب فى تلك الأقاليم بشكل طبيعى – كما يرى المشتغلون بالدراسات اللغوية.

هذا ولاشك أن الفضل فى انتشار اللغة العربية يرجع إلى الإسلام الذى تنبنى عليه كل أسس الحضارة العربية (الإسلامية) .فالقرآن – دستور الإسلام ومعجزة عبقرية اللغة العربية – كان وحده ذورة العلوم والمعارف، به يبدأ التعليم وعنده ينتهى. ولهذا السبب ومن أجل الداخلين فى الإسلام من أهل الأمصار بدأت دراسة اللغة العربية دراسة منطقية منظمة، وظهرت الرسائل الأولى فى قواعد اللغة العربية التى استخدمها المشتغلون بالوظائف العامة.

ولقد وقعت مسئولية هذا العمل إلى حد كبير على عاتق أهل البلاد المفتوحة (الذين كانوا أكثر تحضرا من العرب) فكرس العلماء منهم جهودهم لتقنين اللغة مستندين فى ذلك إلى القرآن والمنطق اليونانى الذى عرفوه.

ومع مرور الوقت أصبحت اللغة العربية أكثر ملاءمة من اللغات الوطنية الأخرى للوفاء بكل مطالب الحياة، وبعد أن كانت لغة الادارة والتشريع والسياسة أصبحت لغة المجتمع والتجارة والفكر والأدب. وظلت العربية سائدة

دون منازع حتى فى المشرق الايرانى الذى أخذ يعمل على احياء لغته القومية منذ القرن الرابع الهجرى (١٠م) حتى استغنى عن اللغة العربية ابتداء من القرن السابع الهجرى (١٣م) حينما أصبحت لغته الفارسية هى لغة السياسة والأدب.

ولاشك فى أن اللغة والدين اللذين نميا سويا قاما بدور حاسم فى تعريب وإسلام الدولة الضخمة. فلقد عملت هاتان القوتان على تحطيم الحواجز التى كانت تفصل بين العرب وبين أهل البلاد المفتوحة وألفتا بين العناصر المتنافرة بشكل لم تعرفه روما فى القديم ولا الا نجلوسكسون فى الوقت المعاصر - كما يلاحظ ريسلر Risler- فالرجل الذى اعتنق الإسلام كان يتكلم العربية ويكتبها بدرجة تجعله عربيا خالصا، وهذا عامل خطير فى تاريخ الحضارة الإسلامية. فهذه القوة الموحدة محت فى نفس الوقت الحواجز السياسية وأعطت للبلاد المختلفة الممتدة فى القارات الثلاث شكلا موحدا. فكان المسلم يجد فى كل مكان نفس اللغة والدين ونفس الصلوات والقوانين حتى أنه كان يشعردائما بأنه فى وطنه خلال رحلاته البعيدة أو أثناء عملياته التجارية خارج بلاده، مما كان أكثر من جواز سفر يضمن لصاحبه حرية التنقل والمرور - كما يقول البعض، اذ كان قومية ووطنية وأخوة.

وخلال قرون طويلة ظل علماء المسلمين على اختلاف أجناسهم يكتبون اللغة العربية التى اغتنت وأغنت الفكر وعملت الترجمات العربية للعلوم والفلسفة اليونانية على انتشار الأفكار واللغة انتشارا لانظير له. فدرس منطق ارسطاليس الذى احتوى البلاغة والشعر مع قواعد اللغة العربية، وأصبح ذلك أساس الإنسانيات الإسلامية. وعن هذا الطريق حققت اللغة العربية بين الشعوب التى اتخذتها لغة لها مايمكن أن يشبه بدولية الآداب والعلوم. فأثر فلسفة ابن سينا وهو من أهل ماوراء النهر يظهر فى أعمال ابن رشد القرطبى،

وكذلك كان للادريسى الذى عاش فى المغرب والأندلس وصقلية أثره على ياقوت الحموى الذى درس فى خوارزم على تخوم ماوراء النهر.

وهكذا دخلت اللغة العربية، بصفتها القوة المعبرة فى الدولة الكبرى وبفضل ماوصلت اليه فى مجالات العلوم والفكر فى اللغات العربية من الايبيرية واللاتينية التى مازالت مليئة بالتعبيرات والكلمات العربية الأصل رغم أن هذا التسرب كان صعبا لاختلاف طريقة الكتابة. وبسبب صعوبة الكتابة العربية بالنسبة للغربيين فقدت النهضة الأوربية ذكريات الحضارة العربية واتجه الأوربيون نحو الحضارة اليونانية واللاتينية القديمة يأخذون منها ماكان ينقصهم.

وهكذا كان للغة العربية أهميتها الكبرى فى تاريخ المجتمعات الإسلامية ونظمها، حتى أن جودفروا ديمومبين يقول - بحق - أن النظم الإسلامية تكون إسلامية على قدر قرابتها من اللغة العربية لغة القرآن والشريعة. وكما تدين اللغة العربية بانتشارها ونموها وتطورها إلى الأصول الأولى للإسلام، وخاصة القرآن، كذلك نبعت من الإسلام كل المبادىء التى تنظم الحياة العامة والخاصة للمسلمين، وأبنت على أسسه وقواعده كل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية.

«اذ الحقيقة أن الإسلام الآن هو دين أولا ثم دولة ثانية وأخيرا - هو ثقافة وبالاختصار هو حضارة»[1]. فالصلاة وهى ثانى الفرائض الواجبة على المسلم، وصلاة الجماعة هى التى حتمت بناء المسجد وبالتالى كان للصلاة أثرها على العمارة الإسلامية.

والمسجد الذى بناه الرسول ﷺ بالمدينة هو أول مسجد بنى فى الإسلام، وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل يتكون من صحن، يحيط به سور، وفى

(١) انظر، ا.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية ، ص ٩

المقدمة سقيفة من سعف النخل لوقاية المصلين من وهج الشمس. وقد وسع عثمان مسجد رسول الله ﷺ[1]. ثم اعاد بناءه الوليد بن عبد الملك. أما بناية المسجد فحدد اتجاهها بمكة، لأن الكعبة هى قبلة العالم الإسلامى. وجعل المحراب تجويفا فى وسط الضلع القبلى من ظلة القبلة، وذلك كى يتخذ المصلون جميعا مواضعهم الصحيحة باتجاه الكعبة. وتكون الأعمدة فى نفس الوقت صفوفا تمتد من صحن المسجد إلى جدار القبلة. وتكون صفوف المصلين عمودية على صفوف الأعمدة وموازية لجدار القبلة.

أما ظلة الصلاة فى أغلب المساجد، فتنفتح على الصحن ومنه تستمد النور والهواء اللذين لايدخلون بصورة مباشرة، بل عن طريق كوى ضيقة فى الجدران الثلاثة للمسجد، ومن هذه الكوى تنفذ خرم من أشعة النور تتلألأ على زخارف الأعمدة وفى البنايات الجميلة تكون الجدران من الخارج عارية فى حين أنها من الداخل حيث تطل على رواق الصلاة مزينة بألواح الرخام والفسيفساء وقطع الخزف والقيشانى، والسقوف مستوية ومغطاة أو معقودة أو مؤلفة من عقادات مفروشة بالرصاص أو بالقاشانى الأخضر. ويحاط الصحن بأروقة ضيقة حيث يميل المصلون إلى الجلوس فيها. وفى الصحن تفتح البوابة الرئيسية عادة تحت المنارة أو بجانبها، ويتكون المدخل المباشر من الخارج إلى ظلة الصلاة من بابين متواجهين.

أن ظلة القبلة التى تمتد من الصحن إلى المحراب تكون عادة أعرض من المجنبات الثانوية الأخرى وان كانت بنفس عرض الظلة المقابلة التى تكون فى الطرف الآخر من المسجد. ويقف الإمام فى مقدمة المؤمنين ليؤمهم فى الصلاة. وقد هجر الخليفة عادة الوقوف وسط المصلين فى صدر الإسلام. واتخذ إلى جانب حماية الحرس له مقصورة مقفلة من الخشب أبدع الفنانون

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، جـ١، ص ١٧٠، أحداث سنة ٢٩هـ.

المسلمون فى تصميمها وتزيينها. ويقع المنبر إلى يمين المحراب، وهو منصة قد تصنع من الخشب يصعد إليها بدرجات. وقد اتخذ الرسول منبرا ذ ثلاث درجات، أما فى العهد الأموى فأصبح للمنبر سلما ذا تسع درجات، ولايصعد المنبر سوى الإمام.

ينفتح المدخل الأمامى لظلة الصلاة على صحن المسجد المبلط عادة بالآجر المرصوف، ويحوى المسجد ميضأة (حوض للوضوء) ويعلو المسجد المنارة أو (المئذنة أو الصومعة) يعلوها سطح يقف عليه المؤذن لالقاء الآذان ودعوة المسلمين إلى الصلاة فى أوقات الصلوات الخمسة. أما شكل المنائر وزخرفتها والمواد التى تصنع منها كالآجر والحجر فتختلف حسب الموارد الطبيعية للبلد وتقاليده. ففى بلاد الشام ومصر والمغرب، كانت المنائر أبراجا مضلعة تحوى غرفا يمكن استعمالها كملاجىء. أما فى فارس وتركيا، فالمنائر اسطوانية الشكل لاتحوى سوى السلم الذى يرقى بواسطته إلى غرفة المؤذن. وهذان الشكلان بالاضافة إلى الشكل الثمانى ائتلفت جميعا فى بعض المنائر الشرقية ذات القواعد المربعة التى يقوم عليها شكل ثمانى ينتهى بشكل اسطوانى[١].

والزكاة هى الأخرى مهمة بالنسبة للتنظيم المالى، اذ كانت تشكل موردا هاما من موارد الدولة. «ولايجب على المسلم فى ماله حق سواها، قال رسول الله ﷺ: «ليس فى المال حق سوى الزكاة»[٢].

والزكاة صدقة، والصدقة زكاة، يفترق الإسم ويتفق المسمى[٣]. فالآية

(١) انظر، جودفروا ديمومبين، النظم الإسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ص ٩٠-٩٣.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة البابى الحلبى، مصر، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦، ص ١١٣، الباب الحادى عشر (فى ولاية الصدقات)

(٣) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١١٣

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . ﴾[1] والأموال المزكاة نوعان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هى مالا يمكن اخفاؤه، مثل الزروع والثمار والمواشى، أما الباطنة فهى مايمكن اخفاؤه «من الذهب والفضة وعروض التجارة» وليس لوالى الصدقات نظر فى زكاة المال الباطن، وأربابه أحق باخراج زكاته[2].

أما عن كيفية توزيع الصدقات فى مستحقيها، فهى لمن ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله :﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾[3].

وأول من يستفيد منها كما تنص الآية الكريمة: هم: الفقراء والمساكين، ثم العاملين عليها: أى جباة الضريبة، ثم المؤلفة قلوبهم وهم طبقة اختفت فيما بعد، وأن كانت كما يقول ديمومبين ذات خطر فى بدء الإسلام، حين كان رسول بحاجة إلى مبلغ يضحى به ليدفع عنه عداء قريش. ويخصص قسم رابع لفك رقاب العبيد وشراء حريتهم من أسيادهم، والقسم الخامس للغارمين، أى لهولاء الذين تراكمت عليهم ديون بسبب قيامهم بنصرة الدين، أما القسم السادس فقد خصص للانفاق على المتطوعة للجهاد ضد الكفار، والقسم السابع جعل للانفاق على جميع المؤسسات التى تنفع الجماعة الإسلامية، والتى أسست فى سبيل الله. وأخيرا كان هناك قسم أفرد للصرف على أبناء السبيل أى المسافرين الفقراء.

أما عن الحج - الذى عرفه العرب قبل الإسلام - فكان فريضة مهمة

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١٢٠.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص١١٣.

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١٢٢

بالنسبة لتطور الحضارة الإسلامية، فرغم الأحداث السياسة التى ألمت بدولة الإسلام فان بلاد العرب - مهد الإسلام - احتفظت بمكانة ممتازة فى العالم الإسلامى، بفضل قوافل الحج المتجهة من أقصى المغرب ومن أقصى المشرق نحو الحجاز، كما أن التقاء آلاف المؤمنين من شتى أنحاء العالم فى موسم الحج، كان ولازال عاملا مهما من عوامل الارتباط المعنوى والأدبى بين أجزاء العالم الإسلامى. كما كان لرحلة الحج أثرها فى انتشار الثقافة خلال العالم الإسلامى.

ولكن اذا كان تنظيم الحياة العامة والخاصة للمسلمين ينبنى على الأصول الإسلامية الأولية فإن الإسلام يدين بتطوره وارتقائه إلى الظروف السياسية والاجتماعية التى ترتبت على التوسع الاقليمى الكبير والاتصال بشعوب وحضارات راقية قديمة. اذ سرعان مايرتفع العرب بفضل ضرورة تنظيم الحكم والتمتع بمباهج الحياة إلى درجة سامية من التقدم فى مجال الفكر الدينى وقواعد الأخلاق وكذلك فيما يختص بالمشاعر الفنية.[1]

ويعد العصر الأموى من أهم فترات التاريخ الإسلامى. ففى هذا العصر وضعت جميع النظم الإسلامية، بدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما أخذت الأفكار تتجاوز حدودها الاقليمية إلى آفاق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الإسلامية وسط ثراء مادى غزير، وهى كذلك الفترة التى مهدت بعد سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، للدولة العباسية بأن تكون مركزا مهما للحياة العقلية[2].

وخلفت الدولة العباسية الدولة الأموية، وغدت بذلك الخلافة وراثية فى آل النبى.

---

(١) أ.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ١١-١٢.

(٢) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص ٢٦.

وبقدوم العباسيين، استطاع المسلمون الجدد والفرس خاصة أن يصلوا إلى السلطة وقد حملوا معهم إلى المجتمع الجديد ميولا وأذواقا تبدت فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية. وسرعان ماهجرت دمشق - حاضرة الأمويين - لتحل محلها بغداد، التى اتخذت خلافتها اتجاها شرقيا حيث الأقاليم الفارسية - واهتمت الخلافة كذلك بالخليج الفارسى والبحار الهندية حيث كان التجار يجلبون إلى الخلفاء منها طرائف الشرق البعيد.

وادعى الخليفة العباسى أنه سيعيد الجماعة الإسلامية إلى طريق الإسلام الأولى التى انحرف عنها الأمويون، فقد اعتبر خلفاء الدولة العباسية أنفسهم ورثة النبى ﷺ الذين يسيرون بالجماعة الإسلامية فى الطريق القويم المستقيم. واذا ما تأملنا فى كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسى سليل بيت النبوة.

وصورة الخليفة العباسى عند هؤلاء الكتاب أشبه ماتكون بصورة كسرى فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرونق والعظمة كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زخرف بلاط الخليفة بأهل العلم والفقه ممن يتصفون بالورع والتقوى، إلى جانب الأدباء والمغنين والشعراء، والأطباء والأخيار، والقضاة، وكذلك المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديمومبين ليالى بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الأغانى وتدار كؤوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات، ويختلج على رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو طربا للاصوات القوية المغردة المنبعثة من أفواه المغنيات وألحان الأعواد. وقديعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذى فصاحة مفعمة، أو زيارة ناسك متسول ذى كبرياء وفظاظة، وقد يحز رأس بينما تدور الاقداح. وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل الخمر قلوب النشاوى،

وتنهمل الدموع، وقد ينشد شاعر قصيدة ينعى فيها العمر القصير. وفى الختام يبزغ الفجر بأضوائه المتهيبة، فيؤدى صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعى بخشوع وتقوى. أنها حياة ملأى بالأحاسيس، عنيفة رقيقة معا، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع فى آن واحد، نجد مثيلا لها لكن بصورة أوضح وأعنف، وذلك فى عصر النهضة الأوربية. وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة فى ألف ليلة وليلة، والأغانى، ومروج الذهب، وفى روايات المؤرخين وقصائد الشعراء.

ولكن وراء هذا الوجه الرومنتيكى للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر .. وقد شهد القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والإنسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل. وكان عصر ازدهار الأدب العربى كذلك، وبداية احياء آخر للفن الإسلامى بصورة فعالة. وفى هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلى والمادى قد تحققت بوضوح فى السنوات الأخيرة من هذا العصر بالذات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد.

بدأ مغيب شمس خلافة بغداد فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) اذ انفصلت الأقاليم الفارسية، وسيطر البويهيون الشيعة على مقاليد الأمور فى بغداد، وغدوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد، وفرضوا وصايتهم على الخليفة.

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حكم الامراء الترك السلاجقة العراق والجزيرة وجزءا من بلاد الشام، وقسموا هذه البلاد إلى امارات صغيرة متنافسة وحلوا محل البويهيين فى بغداد واتخذوا لقب السلطان فغدت الخلافة الشرقية تركية بعدأ ن كانت عربية فارسية.

وقد كان انقسام دولة السلاجقة، واضمحلال الخلافة الفاطمية فى مصر، من أسباب نجاح الصليبيين من الفرنجة فى سنة ١٠٩٦م. وقد أدى

وجودهم إلى رد فعل فى العالم الإسلامى، فتوحد تحت راية أمراء بنى زنكى والأمراء الأيوبيين، وأولهم نور الدين زنكى ثم صلاح الدين الذى استعاد بيت المقدس (سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) وأعاد للشرق المذهب السنى، ومنذ ذلك الوقت اقتصرت الشيعية عدا فارس على أقلية منفصلة هنا وهناك. الا أنه تكون منهم طائفة كبيرة من الفقهاء حذقوا عقيدتهم فى المدارس التى أسسها الشيعة.

أما الانتعاش السنى فقد ظهر رد فعله فى التقدم الذى أحرزته الصوفية حين غمرت الشرق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). وبفضل تعاليم الغزالى (توفى سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م) انضم أهل التصوف تحت لواء السنة. لقد ثبت الصوفية فى الإسلام نزعات وجدانية أغوت صفوة الناس، وبسطت نفوذها على كتل الشعب، وأصبحت الصوفية أحيا صورة للإسلام لمدة قرون. وفى الغرب فى مراكش فى القرنين ٥، ٦ هـ - ١١، ١٢ قاد المرابطون والموحدون اصلاحا دينيا هدفه احياء القوة الدينية للكفاح ضد استعادة الأسبان للأندلس.

وفى القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) قضى المغول على الخلافة العباسية، وعم البلاد الاضطراب والفوضى، وركدت الحياة الفكرية الإسلامية حتى القرن التاسع عشر.

الا أنه فى هذه الفترة الحالكة الظلام، وجد الإسلام بين حين وآخر رجالا صادقين بذلوا الكثير من الجهد من أجل أن يعيدوا الإسلام إلى المذهب الحنبلى المتشدد. ففى القرن الثامن الهجرى (١٤م) جاهد ابن تيميه لكى يعيد السنية إلى الحنبلية الخالصة كما كانت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وعلى الرغم من المقاومة التى لقيتها جهوده فان هذه كانت

دليلا على حيوية الفكر الدينى[1].

وقد كان اكتشاف فاسكو دى جاما فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى لطريق رأس الرجاء الصالح وتحول طرق تجارة الهند وبلاد العرب من موانىء مصر والشام ايذانا بضعفهما - من الناحية الاقتصادية - وسقوطهما فى ايدى الأتراك العثمانيين فى بداية القرن السادس عشر الميلادى.

ومما لاشك فيه أن العرب قد استفادوا من الانضواء تحت لواء العثمانيين حينا، اذ حالت قوة العثمانيين واحتلالهم لممرات الشرق الأوسط فى القسطنطينية والسويس والشام والبصرة وجنوب الجزيرة العربية، وكذلك الشمال الأفريقى، دون وصول الاستغلال الاقتصادى والأوربى وامتداد نطاق الامبراطوريات الغربية الاستعمارية إلى هذه المناطق فى وقت مبكر كما حدث فى جنوب شرق آسيا. كما ساعدت السيطرة العثمانية على خلق وحدة سياسية فى الشرق الأوسط بعد تفكك الامبراطورية العربية، فأضفى ذلك على الشرق العربى نوعا من الاستقرار النسبى كان فى مسيس الحاجة إليه منذ القرن الثانى عشر. وعلى ذلك يحق للمؤرخ أن يتخذ من هذه الوحدة أساسا للتاريخ الحديث فى الشرق العربى.

ولكن اذا كانت القوة العثمانية قد أحاطت الشرق العربى بسياج منيع لحمايته من خطر الاستعمار الغربى، فانها حالت بلا شك دون اتصاله بالحضارات الأجنبية عموما وبالحضارة الأوربية الناهضة خصوصا، ولم يكن العثمانيون، من ناحية أخرى رجال معارف وثقافة وحضارة، فلم يقم ملكهم على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة. ولم يفهموا دور الشرق العربى ولامركزه الاستراتيجى والحضارى من حيث أنه كان دائما منطقة تفاعل وتجاوب حضارى باستمرار. فعزل العثمانيون الشرق العربى عن حلبة النشاط

---

(١) ديمومبين، النظم الإسلامية ، ص ٣٢.

العالمى وقاوموا كل مشروع يهدف إلى اعادة شرايينه التجارية والثقافية والحضارية.[1]

---

(١) انظر، أ.د عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث (١) الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، طبع دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٨.

الفصل الثانى

النظـم الإسلاميـة

- الخلافـــة.
- الـــوزارة.

النظـم الإسلاميـة

فيما يتعلق بالمصادر التى ينبغى الرجوع إليها لدراسة النظم الإسلامية نلاحظ ندرة الكتب التى تعالج، النظم والقوانين التى عرفتها دول الإسلام. بالنسبة للكتب التى تتناول علوم الدين، والأدب والتاريخ والجغرافية، وحتى بالنسبة لكتب الفلسفة والهندسة والكيمياء.

ويرجع السبب فى قلة كتب النظم والقوانين الإسلامية إلى أنه لم تكن هناك حاجة، فى بداية الأمر، إلى النظم والقوانين. فعلى أيام الخلفاء الراشدين كانت الدولة تحكم دون مجهود كبير ودون تعقيدات ادارية وذلك حسب كتاب الله وسنة رسوله، بمعرفة خليفة النبى وهو الإمام الشرعى. ورغم مايقوله الكتاب من أنه ابتداء من الدولة الأموية انقلبت خلافة الرسول إلى ملك عضود، وأنه منذ ذلك الوقت حكمت الجماعة الإسلامية بنظام لاعلاقة له بالشرع، فان هذا الأمر ليس صحيحا على وجه الاطلاق.

حقيقة أن رئاسة الدولة أى الخلافة أصبحت وراثية، كما ستظل على أيام العباسيين، ولكن الدولة الأموية لم تقلب الأوضاع رأسا على عقب، كما كان يظن. فالنظام الذى عرفته الدولة على أيام الخلفاء الراشدين، وهو النظام الذى ينسبه الكتاب إلى عمر بن الخطاب، ظل معمولا به بشكل عام فى كل الأقاليم. والحقيقة أن عمر بن الخطاب، بما عرف عنه من الواقعية والحزم وسداد الرأى، أبقى على النظم التى كانت موجودة فى البلاد المفتوحة، مع اجراء التعديلات اللازمة عليها حتى تنسجم مع مبادىء الإسلام. وبطبيعة الحال كانت أهم التنظيمات هى الخاصة بجباية الأموال، والتى أنشىء من أجلها الديوان فى الحجاز.

وهكذا كانت مبادىء الإسلام هى التى تحكم الدولة العربية، ولكن بقيت لأهل البلاد المفتوحة، الذين احتفظوا بدياناتهم الخاصة، وقوانينهم

الشخصية ومحاكمهم الخاصة، وهذا يعنى ازدواجية القوانين الخاصة فى الدولة. ومع مرور الوقت كان أهل البلاد المفتوحة يدخلون فى الإسلام، ويتعمقون فى دراسة القرآن والسنة إلى جانب دراستهم للغة العربية، وعلى عاتقهم إلى جانب وقع عبء التقنين للغة العربية، وكذلك استنباط الأحكام من الشريعة الإسلامية.

والحقيقة أنه ربما كان للكتاب الأوائل العذر عندما قالوا: «أن الخلافة (أى الحكم الدينى) انقلبت إلى ملك (أى حكم دنيـــوى) على أيام الأمويين». فهم يقصدون بذلك استبداد بنى أمية الذين عمدوا، فى سبيل اقرار سلطانهم، إلى اتخاذ اجراءات ربما لم تكن منسجمة مع مبادىء الإسلام فى بعض الأحيان، وذلك خشية الفتنة أو افتراق الكلمة كما يرى ابن خلدون. وهنا، وفى مجال القانون الجنائى أو قانون العقوبات يمكن الاشارة إلى الاجراءات التى اتخذها زياد بن ابيه فى البصرة وفى الكوفة، على أيام معاوية. فهو فى خطبته الشهيرة المعروفة بالبتراء يقرر عددا من المبادىء القانونية منها العام، مثل المسئولية الجماعية التى يعبر عنها فى قوله : «لآخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل المدبر».، ومثل الأخذ بالظن والعقوبة على الشبهة، ومنها الخاص مثل سن العقوبات الجديدة للجرائم المستحدثة: فجريمة اغراق شخص عقوبتها تغريق الجانى، والاحراق عقوبته الحرق وعقوبة نبش القبور هى دفن الجانى حيا (ابن الأثير ، احداث سنة ٤٥ هـ) . والذى نلاحظه هنا هو أن زياد بن أبيه استخدم القياس فى التقنين للجرائم التى ليس لها نصوص مباشرة فى القرآن والسنة مع المبالغة فى الشدة. ونحن نرى أن اجراءات زياد هذه هى بداية لظهور تشريع جديد سيظل ينمو ويتطور تحت أسماء مختلفة،مثل العرف الذى عمل به منذ زمن بعيد فى كثير من الأقاليم، ومثل ماسيعرف مؤخرا باسم القانون المدنى، ونقصد به المتأثر بالتشريعات الأوربية الحديثة.

ولكنه رغم بداية ظهور هذا اللون من القانون الوضعي في ذلك الوقت المبكر منذ منتصف القرن الأول الهجرى (٧م)، فقط ظلت مبادىء الإسلام هي التي تحكم الدولة. ومنها كان العلماء والفقهاء يستنبطون الأحكام، بفضل التفسير والتأويل إلى جانب الاجماع والرأى والقياس، إلى أن انتهى الأمر بظهور المذاهب السنية الأربعة، واتفاق جمهرة الفقهاء على انتهاء الاجتهاد ابتداء من القرن الرابع الهجرى (١٠م).

بدأ ذلك اذن على أيام الأمويين وتم على أيام العباسيين. وهذا يعني أن النظام العباسي، رغم أنه بدأ بثورة ضد النظام الأموى، ودعوة إلى هدم كل مايمت إليه بصلة، ورغم مابشر به من العودة إلى المبادىء الإسلامية الصحيحة في الحكم، وتحت اشراف الأئمة الجدد من آل البيت، بصفتهم الأمناء على السنن النبوية فانه ترك أمور الحكم تجرى على ماكانت تجرى عليه من قبل، مع ماتتطلبه حتمية التغير والتطور. فبعد أن كانت الدولة الأموية تسترشد في الحكم بالتقاليد الرومية (اليونانية - الرومانية) التي كانت معروفة في بلاد الشام ومصر، مالت الدولة العباسية إلى الأخذ بالتقاليد الفارسية في تنظيم الدولة، بحكم أن مركز الثقل انتقل إلى العراق والمشرق الإيراني، حيث عاشت التقاليد الساسانية أو الفارسية.

خصائص التنظيم الادارى والسياسي في الإسلام:

وهكذا سارت التنظيمات الغربية (من يونانية ورومانية) والشرقية (من فارسية وهندية)، بالاضافة إلى اجتهادات الامراء والولاة في نظم الحكم والادارة وهي مستظلة جميعا بمبادىء الشريعة الإسلامية النابعة من القرآن والسنة، وماقرره السلف الصالح، لتكون قواعد وأصول الحكم في الإسلام. وهكذا أصبحت النظم الإسلامية تعني مجموعة المبادىء والقوانين الإسلامية التي تحكم الدولة، إلى جانب ماتعارف عليه الناس من التقاليد والعادات، وما

أقرته الجماعة من أعمال السلف التى اتخذت قوة القانون. وهذا الأمر الأخير يعنى أن الاطار التاريخى كان البوتقة التى مزجت كل هذا وصهرته على مر الزمن لتخرج منه نوعا جديدا من قواعد السياسة وأصول الحكم هو النظم الإسلامية[1].

الاحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردى:

الماوردى هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب، البصرى البغدادى تقلد منصب القاضى، وأصبح أقضى القضاة فى بغداد سنة ٤٣٩هـ / ١٠٣٧م، ولقد عرف بالتدين والورع. وكتب فى تفسير القرآن والفقه والنحو إلى جانب ماكتبه فى أصول الحكم[2]. «ويمثل كتاب الاحكام السلطانية النموذج للفكر السياسى وقوانين الحكم فى الإسلام»[3].

ويتضمن كتاب الاحكام السلطانية، عشرون بابا: فى عقد الامامة، وتقليد الوزارة، وتقليد الإمارة على البلاد، وتقليد الإمارة على الجهاد.. وولاية القضاء الخ. يعتبر الباب الخاص بعقد الإمامة أو الخلافة، وهو أولها أهم الموضوعات التى عالجها الماوردى، وهو يستند فى معالجته للتقنين للخلافة إلى القرآن والسنة والاجماع إلى جانب السوابق التاريخية.

---

(١) انظر، أ.د سعد زغلول عبد الحميد، سياسة نامة لنظام الملك، تراث الإنسانية المجلد التاسع (٢)، ص ١٧١-١٧٣.

(٢) انظر، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق أحمد فريد الرفاعى، طبع مصر، ج ١٥، ترجمة رقم (٢)، ص ٥٢- ٥٥- السبكى، طبقات الشافعية، تحقيق محمود محمد الطناحى، عيسى عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة البابى الحلبى، مصر سنة ١٩٦٧، ص ٥، ص ٢٦٧-٢٦٨، ترجمة رقم (٥٠٩).

(٣) أ.د سعد زغلول، سياسة نامة، ص ١٧٣.

الخلافــة

الخلافة كما يعرفها ابن خلدون - «هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية، الراجعة إليها، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[1]. وبناء على ذلك لايقبل ابن خلدون «الملك الطبيعى» لأنه فى نظره، «حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة»[2]، كما لايقبل «الملك السياسى»، الذى يعرفه بأنه «حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار». وعلى ذلك «فكلاهما مذموم لأنه نظر بغير نور الله، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».[3]

ولقد اجتمع الفقهاء على ضرورة هذا المنصب، ولكنهم اختلفوا فى هل هو ضرورى شرعا أم عقلا. فالذين قالوا أنه ضرورى عقلا احتجوا بأنه لابد من وجود رئيس أو زعيم لأى جماعة حتى لايكون الأمر فوضى، وذلك «لضرورة الاجتماع للبشر» كما يقول ابن خلدون[4]. أما الذين قالوا انه ضرورى شرعا فقد نبهوا إلى أن الشئون الدينية فى الإسلام لاتنفصل عن الشئون الدنيوية أو السياسة، فلو أن العقل هو الذى يوجب وجود هذا المنصب، فلن تكون هناك ضرورة لتدبير وتنظيم الأمور الدينية، اذ أنها ليست واجبة عقلا، وهذا مالايجوز فى الجماعة الإسلامية وأن جاز فى غيرها. إلى جانب ذلك ينبغى الاشارة إلى أن بعض المفكرين (من الخوارج والمعتزلة) من

---

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٣٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٣٨.

أصحاب الأفكار المثالية الذين رأوا أن وجود هذا المنصب ليس ضروريا – وأنه يمكن للجماعة الاستغناء عنه. «والواجب عند هؤلاء أنما هو امضاء أحكام الشرع، فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولايجب نصبه. وهؤلاء محجوجون بالإجماع»[1] كما يذكر ابن خلدون الذى ينص على «أن الذى حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا، لما رأوا الشرعية ممتلئة بذم ذلك، والنعى على أهله». ثم يتبع ذلك بقوله: «واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولاحظر القيام به، وانما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات»[2].

والخلافة مشتقة من الفعل « «خلف يخلف» لأن صاحب المنصب يخلف النبى ﷺ فى رئاسة الجماعة الإسلامية، فهو اذن خليفة رسول الله – كما سمى أبو بكر رضى الله عنه. ولقد رأى البعض أن الخليفة أنما هو «خليفة الله» استشهادا بالآية الكريمة التى تقول: ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾. والآية التى تقول : ﴿ انى جاعل فى الأرض خليفة ﴾. والآية التى تقول : ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾. وقد رفض أبو بكر ان يطلق عليه لقب «خليفة الله»، وقال: «لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله ﷺ»[3].

وكما يقول الماوردى فقد «امتنع جمهور العلماء من جواز ذلك، ونسبوا قائله إلى الفجور» واحتجوا بأن معنى الآية لايتعلق بهذا الموضوع. كما قالوا: «يستخلف من يغيب أو يموت والله لايغيب ولايموت»[4].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤١.

(٣) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٣٩.

(٤) الماوردى، الاحكام السلطانية ، ص ١٥

والخلافة هي الإمامة اذ أن أول اختصاصات الخليفة وأهمها هي إمامة المسلمين في الصلاة، وخاصة الصلوات الكبرى، وهي أهم فرائض الإسلام. ولقد كان استخلاف الرسول ﷺ لأبي بكر في إمامة الناس في الصلاة – عندما مرض – هي أساس اختياره يوم السقيفة اذ قال الصحابة: «ارتضاة رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا»[1]. والإمامة تغلب عليها الصفة الدينية ويطلق على الخليفة أو الإمام لقب «أمير المؤمنين» وهذا اللقب له صبغة دنيوية أكثر منها دينية. ولقد كان الرسول ﷺ يعرف باسم «أمير مكة وأمير الحجاز». ويفهم من رواية ابن خلدون أن أول من حمل لقب أمير المؤمنين هو الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بوصفه أميرا على جيش القادسية. وانتشر هذا اللقب، وتذكر الرواية أن بعض الصحابة دعوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين «فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به»[2] وتضيف الرواية أن أول من دعا عمر بذلك اللقب، عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيل بريد جاء بالفتح ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: «أين أمير المؤمنين». ويستشف من الرواية أن عمر لقب في أول الأمر بخليفة رسول الله، ولما كان اللقب ثقيلا لأن الموقف يتطلب اضافة كلمة خليفة كلما بويع خليفة جديد، فضل استعمال لقب «أمير المؤمنين» وتوارثه الخلفاء من بعد عمر وغدا «سمة لايشاركهم فيها أحد سواهم»[3].

كيفية الوصول إلى تقلد المنصب:

وصل الخلفاء الأوائل إلى رئاسة الجماعة الإسلامية، حسب مقتضى الأحوال وبشكل انتخابي محدود، اذ اقتصر الأمر على المهاجرين من صحابة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠١.

(٣) ابن خلدون ، المقدمة، ص ٤٠٢.

النبى ﷺ. وعلى أيام الأمويين انقلبت الخلافة إلى ملكية يغلب فيها مبدأ الوراثة على مبدأ الانتخاب، واستمر الوضع كذلك على أيام العباسيين. وحتى ذلك الوقت كانت الخلافة واحدة لاتتعدد. ثم تكونت دول إسلامية انفصلت عن خلافة بغداد، وحمل أصحابها لقب الإمامة إلى جانب خليفة بغداد، مثل الأمويون فى الأندلس الذين حملوا اللقب ابتداء من سنة ٣١٦ هـ/ ٩٨٢م، والفواطم الشيعة فى أفريقية (المغرب) ومصر، والخوارج الاباضية فى المغرب الأوسط، (الذين حملوا لقب الإمام). أما الدول التى اعترفت بسلطان خلافة العباسيين مثل المرابطين فى المغرب فانهم اقتصروا على لقب «أمير المسلمين» وهو أقل درجة من «أمير المؤمنين» بينما حمل امراء السلاجقة لقب «السلطان».

«هذا التطور التاريخى هو الذى اتخذ أساسا عند كتاب المسلمين الذين عالجوا فلسفة السياسة، وحاولوا رسم قوانينها، مما ترتب عليه أن قواعد تشريعهم كانت تاريخية أكثر منها اجتهادية فكرية»[1].

ويرى الشيعة «أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولايجوز لنبى اغفاله ولاتفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر».

على عكس الشيعة رأى أهل السنة أن هذا المنصب واجب باجماع، فهو من فروض الكفاية، أى الذى يمكن أن يقوم به بعض الناس، كما رأوا أنه اختيارى أى انتخابى. هذا الانتخاب أو الاختيار يشترك فى القيام به ثلاثة أطراف:

---

(١) أ.د سعد زغلول ، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٨٥.

١ أهل الاختيار أى الهيئة التى لها حق الانتخاب و هؤلاء يطلق عليهم اسم «أهل الحل والعقد»

٢ - أهل الإمامة أى المرشحون لشغل المنصب السامى

٣- بقية الأمة وهؤلاء عليهم بعد البيعة طاعة الإمام لقوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾[1].

والخلافة أو الإمامة حسب رأى الماوردى ماهى إلا «عقد مراضاة واختيار»[2] والمرشحون لتولى المنصب الخلافى لابد أن تتوفر فيهم شروط خمسة:

١- العدالة.

٢- العلم: يجب أن يكون المرشح لتقلد المنصب مجتهدا على الأقل، وذلك أن صاحبه أنما يكون منفذا لاحكام الله.

٣- سلامة الحواس والأعضاء: من سمع وبصر ولسان وادراك .. وسلامة الأعضاء (من اليدين والرجلين) من نقص يمنع عن استيفاء الحركة، مما يؤثر فى العمل.

٤- الرأى المفضى إلى سلامة الرعية، والنجدة لجهاد العدو وحماية البلاد.

٥- النسب القرشى، وهذا الشرط لم يجمع عليه كل العلماء . خاصة الخوارج[3] ولكنه اتخذ أهمية كبرى لأسباب تاريخية.

أولها: ما اجمع عليه فى يوم السقيفة، وما احتجت به قريش على الانصار، لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة، وقالوا: «منا أمير ومنكم أمير»،

(١) انظر، ابن خلدون ، المقدمة، ص ٣٤٢.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٧

(٣) ابن خلدون، المقدمة . ص ٣٤٢ الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٦

بقوله ﷺ: « الأئمة من قريش» ، ومن أن الرسول ﷺ «أوصاهم بالأنصار خيرا، وأن يحسنوا إلى محسنهم ويتجاوزوا عن مسيئهم، ولو كانت الامارة فيهم لم تكن الوصية بهم. إلى جانب مانسب إلى الرسول من أنه قال: «لا يزال هذا الأمر فى هذا الحى من قريش»[1].

والشرط الأخير، وهو اشتراط القرشية، اشتبه كما يقول ابن خلدون، على كثير من المحققين حتى نفوه، واحتجوا بقوله ﷺ «اسمعوا واطيعوا وأن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة». ويقول ابن خلدون «وهذا لاتقوم به حجة، فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة» ، ويعلل ابن خلدون ذلك بتغلب الاعاجم على الخلافة وانتقال الحل والعقد اليهم[2]. وهو يؤيد رأى الغالبية من العلماء الذين نادوا بهذا الشرط وفضلوا إمامة القرشى «ولو كان عاجزا عن القيام بأمور المسلمين». وهو يبين أن الحكمة من اشتراط النسب القرشى ليس فقط «التبرك بوصلة النبى ﷺ» لأن التبرك ليس من المقاصد الشرعية انما القصد من ذلك هو العصبية[3].

أما عن أهل الاختيار، أى من لهم حق الانتخاب، فينبغى أن تتوفر فيهم شروط ثلاثة هى:

١- العدالة.

٢- العلم الذى يتوصل به إلى من يستحق الإمامة.

٣- الرأى والحكمة التى تؤدى إلى اختيار من هو للإمامة أصلح.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٥، الفصل السادس والعشرون (فى اختلاف الأمة فى حكم هذا المنصب وشروطه).

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٤٥.

والذين تتوفر فيهم هذه الشروط هم أهل الحل والعقد، وعليهم مسئولية تعيين الإمام

وقد اختلف في عدد من تنعقد به الإمامة من أهل الحل والعقد، فقالت جماعة «لاتنعقد - أى الإمامة - إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاما والتسليم لإمامته إجماعا. ولكن الظروف التاريخية - والعرف - انتهت بتقرير أن الموجودين فى بلد الإمام هم الذين يتولون وحدهم عقد الإمامة، وذلك لسبق علمهم بموت الإمام، ولأن من يصلح للخلافة فى الأغلب موجودون فى بلده»[1]. فهذا هو ماحدث فى بيعة أبى بكر رضى الله عنه بالخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها. ونفس الشيء بالنسبة لعمر وعثمان رضى الله عنهما. وهذا ماحدث عندما تم انتخاب على، وعندما ظهرت بوادر الفتنة، وأعلن البعض عدم شرعية خلافة على رضى الله عنه، ونادوا بانتظار عودة كبار الصحابة من الامصار حتى يتم الاجماع، اشتبه الأمر على الكثيرين، ولما كانت وسائل المواصلات صعبة، ومن الخطورة أن يظل منصب الخلافة شاغرا، حتى يجتمع كبار الصحابة من أهل الحل والعقد، رأى المحققون - فيما بعد - أن الموجودين فى بلد الإمام منهم هم أصحاب الحق وحدهم فى تعيينه. وهكذا «اتفقوا على بيعة على ولزومها للمسلمين أجمعين، وصوبوا رأيه (على) اذ قال : «أن بيعته انعقدت ولزمت من تأخر عنها[2].

وهكذا ضاقت دائرة أهل الحل والعقد، وأصبحت قاصرة على أهل الحاضرة فقط، وستضيق عندما ينظر فى العدد المناسب منهم، فتترك فكرة الإجماع، ويؤخذ بالشواهد التاريخية، وبناء على ذلك قالت طائفة - من

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٦-٧

(٢) انظر ، ابن خلدون ، المقدمة، ص ٣٧٨ - ٣٧٩

الفقهاء - من أهل البصرة ، أن أهل الحل والعقد الذين يعينون الإمام يجب الا يقل عددهم عن خمسة، كما حدث في بيعة أبي بكر رضي الله عنه، اذ انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس. وقد جعل عمر رضى الله عنه «الشورى في ستة ليعقد لاحدهم برضا الخمسة»[1].

هذا وذهب علماء الكوفة إلى مقارنة عقد الإمامة بعقد الزواج، فحددوا عدد أصحاب الاختيار بثلاثة، يقوم اثنان منهم باختيار الثالث «ليكونوا حاكما وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولى وشاهدين» وقالت طائفة أخرى تنعقد بواحد، وضربوا لذلك مثلا بالعباس عم النبى عندما قال لعلى رضوان الله عليهما: «أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله بايع أبن عمه فلا يختلف عليك أثنان»[2].

كيفية عقد الإمامة وولاية العهد:

ويتم عقد الإمامة من وجهين:

١- باختيار أهل الحل والعقد.

٢- بعهد الإمام من قبل.

بعد موت الإمام يجتمع أهل الحد والعقد للاختيار، فينظروا في المرشحين لتولى المنصب، ويستعرضوا أحوال من يستحق تقلد خطة الإمامة. وعليهم أن يقدموا أكثر الناس «فضلا وأكملهم شروطا ومن يسرع الناس إلى طاعته ولايتوقفون عن بيعته»[3]. وذلك حسب مقتضى الاحوال والوقت. فاذا كان الوقت حرب وفتن، روعى اختيار الاشجع، واذا كان وقت سلام واستقرار،

---

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٧

(٣) نفس المصدر ص ٧

روعى اختيار الأعلم. واذا تكافأ في شروط الإمامة اثنان قدم أسنهما. وبعد أن يختار أهل الحل والعقد أفضل المرشحين للإمامة عليهم أن يعرضوها عليه لكي يقبلها أو يرفضها، فان امتنع عن قبولها «لم يجبر عليها لأنها عقد مراضاة واختيار لايدخله اكراه ولا اجبار».[1]

وفي حالة اذا ماتنازعها أكثر من واحد، كأن يقع الاختيار على واحد من اثنين فيتنازعاها، فقد اختلف الفقهاء في هذا الأمر فقال البعض بعدم أهليتهما جميعا والعدول عنهما إلى غيرهما، وقال آخرون يعمل القرعة بينهما ويقدم من قرع منهما. ورأى البعض أن الرأى الأخير،لاهل الاختيار رأى أهل الحل والعقد - «بالخيار في بيعة أيهما شاءوا من غير قرعة»[2].

ويعرض الماوردى بعض أمثلة لهذه المشاكل، والحلول التى يراها: مثل أن يبايع أمام ثم يظهر بعد ذلك من هو أفضل منه، هنا تكون بيعة الأول صحيحة، حسب مبدأ «جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل، لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار»[3].

وقد تنعقد الإمامة ، كذلك، لامامين في بلدين مختلفين، وهنا لاتصح امامتهما لأنه لايجوز أن يكون للأمة امامان في وقت واحد بحسب رأى أغلبية الفقهاء، ولو أنه وجدت أقلية منهم أجازت ذلك تحت ضغط الظروف التاريخية. واختلف في حل هذا الاشكال، فقال بعض الفقهاء بأحقية الذى وجد في البلد الذى مات فيه الإمام. وقال البعض بل ينبغى على كل منهما أن يتركها لأهل الحل والعقد، ورأى آخرون بعمل القرعة بينهما «دفعا للتنازع وقطعا للتخاصم». ولكن الماوردى يقول: بما أن الإمامة عقد، فهى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٨.

(٣) نفس المصدر ، ص ٨.

اذن أقرب ماتكون إلى عقد الزواج، وبناء على ذلك فهى لأسبق المتنازعين فى البيعة، مثلها فى ذلك مثل أهل المرأة اذا زوجاها باثنين «كان النكاح لاسبقهما عقدا»[1]. واذا حدث واختلف فى أيهما أسبق لم يجز أخذ رأيهما كماليس لهما أن يحلفا عليها، اذ أن الحق فيها ليس من اختصاصهما، «انما هو حق المسلمين جميعا». واذا طالت مدة الاشتباه بطل عقدى الإمامة، وأصبح لأهل الحل والعقد الحق فى اختيار إمام جديد[2].

هذا عن المبدأ الأول وهو الاختيار فى تعيين الإمام

أما عن المبدأ الثانى وهو العهد من قبل الإمام السابق، وهو شبيه باشراك ولى العهد فى الحكم حتى اذا مامات الإمام اعتلى ولى العهد العرش، ولم يخل المنصب. وهنا يكون تصويت المنتخبين فى هذه الحالة ليس ضروريا. وهكذا ظهرت نظرية ولاية العهد بالتعيين التى أجمع الفقهاء على جوازها لأسباب تاريخية أولها: عهد أبى بكر إلى عمر «بمحضر من الصحابة وأجازوه»، وثانيهما: عهد عمر إلى أهل الشورى واتفاق الجماعة على صحة هذا العهد[3].

ولكن فى هذين المثالين فان المعين لولاية العهد لم يكن من قرابة الإمام. والذى حدث فيما بعد، أن ولاية العهد انحصرت فى عائلة الإمام، وكان المقدم دائما ابن الخليفة، واختلفت الآراء فى صحة هذا المبدأ. فرأى البعض أنه يجوز أن ينفرد الإمام بالعهد اذا لم يكن المعين ابنه أو والده، واقتصر البعض على حالة الولد فقط دون الوالد – واشترط آخرون موافقة أهل الحل والعقد حتى لايطغى مبدأ الوراثة على مبدأ الانتخاب.

---

(١) الماوردى ، ص ٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٣٧٢ – الماوردى ، ص ١٠.

ولكن الرأى الأخير قال بجواز انفراد الإمام بعقدها للولد أوللوالد، حتى لاتسفه السوابق التاريخية. ويرى ابن خلدون أنه «لايتهم الإمام فى هذا الأمر .. لأنه مأمون على النظر لهم فى حياته، فأولى أن لايحتمل فيها تبعة بعد مماته.. فانه بعيدا على الظنة فى ذلك كله، لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو إليه، من ايثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتفى الظنة عند ذلك رأسا»[1]. وهو يعطى مثلا لذلك بعهد معاوية لابنه يزيد ويرى أن ذلك العهد كان مثار أخذ ورد لأن يزيد لم يكن فوق مستوى الشبهات[2]. ولكن ابن خلدون يحتج بعدالة معاوية ويعلل فعله ذلك بقوله : « والذى دعا معاوية لايثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية، اذ بنو أمية يومئذ، لايرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع ، وأهل الغلب منهم. فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أن أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الاهواء»[3].

ولايعين الإمام ولى العهد فقط، بل يجوز له كذلك أن ينص على تعيين أهل الاختيار، والمثل لذلك مافعله عمر مع أهل الشورى. ويجوز للإمام أن ينص على أهل العهد كذلك فيرتبهم، وأن يعهد لأكثر من واحد، ويضرب لذلك مثلا بما فعله النبى ﷺ، فقد جعل ثلاثة قواد على جيش مؤته. وعمل بهذا المبدأ فى الدولتين الأموية والعباسية، وهو الأمر الذى لم ينكره علماء العصر. فسليمان بن عبد الملك عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده إلى يزيد بن عبد الملك، وقد رتبها الرشيد رضى الله عنه، فى ثلاثة من بنيه، فى

---

(١) انظر ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٧٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن، عن مشورة من عاصره من فضلاء العلماء.[1] ولئن لم يكن سليمان حجة كما يقول الماوردى، فاقرار من عاصره من علماء التابعين ومن لايخافون فى الله لومة لائم هو الحجة.

معنى البيعة:

عن طريق البيعة – وبعد قبول المرشح – يتأكد عقد الإمامة بالاختيار أو بالعهد. والامر كذلك بالنسبة لولاية العهد. ويعرف ابن خلدون البيعة بقوله «هى العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أمر نفسه وأمور المسلمين، لاينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره». أما عن اشتقاق الكلمة فهى من باع يبيع. وقد جرت العادة على أنهم اذا «بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم فى يده تأكيدا للعهد، كما يفعل البائع والمشترى»[2].

وبدخول التقاليد الكسروية – الساسانية – فى بلاط الخلافة، أصبح المبايع يقبل الأرض بين يدى الأمير، أو يقبل يده أو رجله أو ذيل الثوب[3].

وقد غلب على البيعة الاكراه، وفقدت صفة الاختيار، ولهذا أفتى فقيه دار الهجرة مالك بن أنس بسقوط يمين الاكراه فى البيعة، وذلك عندما قال لأهل المدينة عند ثورة محمد النفس الزكية، «ليس على مكره يمين».[4]

واذا تم عقد الإمامة أو ولاية العهد بالبيعة لايجوز عزل صاحبها مالم يخل بشروط الأهلية. واذا قبض الخليفة انتقلت الخلافة إلى ولى العهد، ونفس

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧٠.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٧١.

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٧٠-٣٧١- انظر، ابن الاثير، الكامل، ح ٥ ، احداث سنة ١٤٥ هـ.

الشيء يحدث اذا ماخلع الخليفة نفسه أما ولى العهد فاذا استعفى فان ولايته للعهد لاتبطل حتى يقبل استعفاؤه، وذلك بعد وجود غيره «للزومه من جهة المولى»[1].

وفى حالة اذا ماانتقلت الإمامة إلى ولى العهد، وكان هناك من يليه فى الولاية، اختلف الفقهاء فيما اذا كان للإمام الجديد الحق فى أن يعهد بولاية عهده إلى آخرين. ورأى البعض أنه لايجوز له ذلك إلا اذا قبل صاحب الولاية أن يتنازل عنها طوعا، وضربوا لذلك مثلا مافعله المنصور بعيسى بن موسى وعهده لابنه المهدى. ولكن الرأى الذى عليه جمهور الفقهاء، والظاهر من مذهب الشافعى رحمه الله هو: «أنه يجوز لمن أفضت إليه الخلافة من أولياء العهد أن يعهد بها إلى من شاء ويصرفها عمن كان مرتبا معه»[2].

واذا استقرت الخلافة لمن تقلدها سواء عن طريق الاختيار أو العهد، فان على الأمة جميعا أن تعرف باعتلاء الإمام الجديد عرش الخلافة، وأن تعرف الخليفة بصفاته اذا لايلزم «أن يعرفوه بعينه واسمه الا أهل الاختيار»[3].

واجبات الخليفة:

وتتلخص واجبات الخليفة فى الآتى:

١ - المحافظة على الدين من خطر البدع والزيغ واقامة الحدود.

٢ - تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين، حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولايضعف مظلوم. أو بعبارة أخرى اقامة العدل بين الناس.

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١١

(٢) الماوردى، ص ١٤

(٣) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١٥

٣- حماية البيضة والدفاع عن الحريم وتحقيق الامن للناس فى معايشهم حتى ينتشروا فى الاسفار آمنين

٤- اقامة الحدود.

٥- تحصين الثغور.

٦- جهاد من خرج على الإسلام حتى يسلم أو يدخل فى العهد

٧- جباية الاموال الشرعية: الفيء والصدقات «على ما أوجبه الشرع»

٨- تقدير العطايا لمن يستحقها من بيت المال دون اسراف أو تقتير.

٩- تقليد وتفويض بعض سلطاته إلى الأمناء والنصحاء من العمال.

١٠- أن يباشر الأمور بنفسه ويتصفح الاحوال، لينهض بسياسة الأمة، وحراسة الملة.، ولايعول على التفويض ... اذ قد يخون الأمين ويغش الناصح[١]. والا يتشاغل عن واجباته هذه بلذاته.

أما عن حقوقه تجاه الأمة. فله عليها الطاعة والنصرة، طالما يقوم بواجباته خير قيام.

أما عن الظروف والاحداث التى تؤدى إلى فقدان الأمام لامامته فهى:

١- الجرح فى عدالته بارتكابه المحظورات والتعلق بالشبهات أى البدع والضلال.

٢- النقص فى بدنة ، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام هى:

أ- نقص الحواس وهو ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام.

---

(١) الماوردى، ص ١٥ -١٦

١ - منها مايمنع من الإمامة مثل زوال العقل والبصر.

٢ - منها مالايمنع مثل: الخشم فى الأنف وفقد الذوق.

٣ - منها ما اختلف فى قدر خطره مثل: الصم والخرس[١].

ب - فقد الأعضاء وهذا ينقسم إلى أربعة أنواع هى:

١ - ما يمنع من الإمامة مثل: فقد اليدين أو الرجلين لأنه يمنع من العمل.

٢ - مايمنع واختلف فيه مثل: فقد احدى اليدين أو الرجلين، لانه يمنع من بعض العمل.

٣ - مالا يمنع واختلف فى منعه من ابتداء عقد الإمامة، مثل: مايشين ويقبح، ولم يؤثر فى عمل ولافى نهضة من جدع الأنف وسمل احدى العينين.

٤ - مالا يمنع فلا يؤثر فى رأى ولاعمل مثل: «قطع الذكر والانثيين»[٢].

جـ - نقص التصرف وهو على ضربين:

١ - الحجر: وذلك بأن يستولي عليه من أعوانه من يستبد بتنفيذ الأمور فى غير تظاهر بعصبية، وهذا مالا يمنع من الإمامة.

٢ - القهر: وذلك بأن يصير مأسورا فى يد عدو. وهذا يمنع من الإمامة[٣].

ويختم الماوردى الباب الخاص بعقد الإمامة بما يصدره الخليفة من أنواع الولايات وهو يقسمها إلى أربعة أقسام:

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ١٧ -١٨.

(٢) الماوردى، ص ١٨ - ١٩.

(٣) الماوردى ، ص ١٩ - ٢٠.

١- من تكون ولايته عامه في الأعمال العامة، مثل الوزراء

٢- من تكون ولايته عامة في أعمال خاصة، مثل امراء الاقاليم

٣- من تكون ولايته خاصة في الأعمال العامة مثل. قاضي القضاة، ونقيب الجيوش، وحامي الثغور

٤- من تكون ولايته خاصة في الأعمال الخاصة، مثل: قاضي البلد أو الاقليم أو مستوفي خراجه[1].

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية. ص ٢٠

الـــوزراة

وهى كما عرفها ابن خلدون «ام الخطط السلطانية والرتب الملوكية»[1]. ويعتبر الوزير أهم موظف فى الدولة، بعد الخليفة.

والكلمة عربية الأصل، كما ينص على ذلك الكتاب، وهى مشتقة أما من المؤازرة وهى المعاونة، أو أنها مأخوذة من الوزر وهو الثقل والحمل، فكأن الوزير قد حمل عن الأمير اثقاله وأوزاره. أو من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر[2]. والكلمة موجودة فى القرآن، كما ورد به أيضا اختصاصات صاحبها اذ تقول الآية على لسان موسى: «واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى»[3].

هذا بينما يرى بعض المشترقين أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من فيشيرا Vi- Chira ومعناه الامر أو التقرير.

ويقول ابن خلدون ان النبى ﷺ «كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره»، ويتبع ابن خلدون ذلك بقوله: «وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر»[4]. ولكنه يقرر أن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام. أما مايقوله بعض الكتاب من أنه بعد أن عظم (استفحل) الملك بعد ذلك «ظهر المشاور والمعين فى أمور القبائل

---

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة، ص ٤١٩.

(٢) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٤.

(٣) الماوردى، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٢٠.

والعصائب واستئلافهم، واطلق عليه اسم الوزير»[١] وذلك على أيام دولة بنى أمية، فهو غير صحيح والمقصود بذلك هو الكاتب الذى كان يوكل إليه حفظ السجلات (الدواوين) وتدبير المراسلات، وكان معظمهم من الموالى وأهل الذمة.

أما منصب الوزير بمفهومه المعروف فلم يظهر الا على أيام الدولة العباسية وذلك عندما «صارت – إلى الوزير – النيابة فى انفاذ الحل والعقد»[٢]. وأول من حمل اللقب هو أبو سلمة الخلال «وزير آل محمد»، «ولم يكن قبله من يعرف بهذا الإسم، لا فى دولة بنى أمية ولا فى غيرها من الدول» كما يقول ابن خلدون[٣]. وبعد ذلك ظهرت أسر توارث أفرادها خطة الوزارة أشهرها أسرة البرامكة. وأول من تقلد الوزارة منهم خالد بن برمك. ثم استفحل سلطان الوزير «حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إلى عموم نظره وقيامه بالدولة»[٤].

وفرق الفقهاء بين نوعين من الوزارة، احداهما وزارة التنفيذ، وفيها يعمل الوزير بأمر الأمير، والأخرى وزارة التفويض، وفيها يستبد الوزير بالامر من دون الخليفة كما يقول ابن خلدون[٥]. وعندما غلب على الدولة العباسية قواد الترك وصار اليهم الحل والعقد «استنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب» وتركوا اسم الوزارة إلى من يتقلدها للخليفة من معاونيه واتخذوا لقب «أمير الأمراء». ثم عندما ملكوا الدولة تلقبوا بلقب السلطان[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤١٢ – ٤٢٢.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

أما دولة بنى أمية بالاندلس فقد احتفظوا بالتقاليد الشامية فى ادارة دولتهم بالاندلس، فاتخذوا فى أول الأمر الحاجب، ثم عظمت اختصاصاته حتى قربت من اختصاصات الوزير فى بغداد، ولكنهم لم يتخذوا الاسم الذى استخدمه العباسيون بل ظلوا يحتفظون لمن يعاونهم بلقب الحاجب. وعلى أيام عبد الرحمن (الثانى) بن الحكم الربضى تطورت الحجابة حتى أصبحت أشبه ماتكون برياسة الوزارة فى العصر الحديث، ولكن ظل صاحبها يحمل نفس اللقب. وفى ذلك يقول ابن خلدون عن أمويى الاندلس: «وأما دولة بنى أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته اصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا: فجعلوا لحسبان المال وزيرا، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له. وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب، حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب....»[1].

أما أشهر الحجاب فى الأندلس قاطبة فهو المنصور بن ابى عامر الذى غلب على الخليفة فى قرطبة.

ولقد ورثت دول المغرب من الاندلس نظام الوزارة مثل : الموحدين حيث حمل لقب الوزير من يعاون الأمير وبعض كبار رجال الدولة. ومثل دولة الحفصيين فى تونس التى اتخذت ثلاث وزراء، وزير الرأى والمشورة (وكان له التقديم)، وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب، ووزير

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢٤-٤٢٥.

الحسبان والديوان (صاحب الاشغال)، وهو ينظر فى الدخل والخرج، والثالث للرسائل (القلم)[1].

واستمر الحال على ذلك فى دول المغرب، فخطة الوزارة أما واحدة أو متكررة حسب حداثة الدولة أو عراقتها وتحضرها.

الوزارة فى كتاب الاحكام السلطانية للماوردى:

فيما يتعلق بالناحية النظرية، وهى المتعلقة بطبيعة المنصب وشروط وكيفية شغله، فقد تكلم فيها الفقهاء وهى ملخصة فى كتاب «الاحكام السلطانية» للماوردى. وهذه الناحية ليست نظرية مجردة أو اجتهادية صرفة، كما قد يظن، انما هى مبنية على أسس تاريخية أى أنها تستمد أصولها من الواقع والتاريخ[2].

وقد قسم الفقهاء الوزارة فى الإسلام إلى نوعين: الأول هو الوزارة بمدلولها المعروف، أى بمعنى النيابة عن ولى الأمر فى ادارة شئون الدولة، وهى التى أطلقوا عليها اسم وزارة التفويض. «ومع أن كتاب السياسة يصرون على أن يباشر الامير أموره بنفسه الا أن الفقهاء وجدوا فى القرآن سندا شرعيا للتقليد الذى ابتدعه العباسيون عندما عهدوا بسلطاتهم إلى الوزير حتى أصبح شريكا لهم فى الحكم. فموسى عندما يطلب أن يكون أخوه هارون وزيرا له، يقول: «واشركه فى أمرى». فاذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الإمامة أجوز[3].

والنوع الثانى هو الوزارة بمعنى المعاونة والمساعدة لولى الأمر فى مباشرة

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٢٧.

(٢) أ.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٩٩.

(٣) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٢.

شئون الدولة حسب الجزء الأول من الآية: ﴿ أشدد به أزرى ﴾. فصاحب هذه الوزارة هو مساعد ومعاون للأمير. ولذلك سميت هذه الوزارة باسم «وزارة التنفيذ». وهى أقل رتبة من الأولى. وقد ترتب على اختلاف طبيعة كل من النوعين، واختلاف اختصاصاتهما أن اختلفت القواعد والشروط التى يجب أن تتوفر فيمن يتقلد كل منهما.

وزارة التفويض:

بوصف وزير التفويض نائبا للإمام يدخل فى اختصاصاته المباشرة الحكم، أى الشئون السياسية، والنظر فى المظالم (القضائية)، وينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب (العسكرى)، وأن يتصرف فى أموال بيت المال (المالية) وأن يستبد بتقليد الولاة (الادارية). ولذلك كانت الشروط الواجبة فيمن يتولى هذا المنصب هى نفس الشروط الواجبة فيمن يتقلد منصب الإمامة، الا شرط واحد هو النسب، فليس من الواجب أن يكون الوزير قرشيا. ولكن يحتاج إلى شرط زائد على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من أمر الحرب والخراج خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فانه مباشر لهما تارة ومستنيب فيهما أخرى، فلا يصل إلى استنابة الكفاة الا أن يكون منهم[1].

هذا وهناك صفات يجب أن يتحلى بها الوزير، تتلخص فيما كتبه المأمون فى اختيار وزير فيجب أن يكون «جامعا لخصال الخير، ذاعفة فى خلائقه واستقامة.. قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، أن أؤتمن على الاسرار قام بها وأن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكنه الحلم، وينطقه العلم.. له صولة الامراء، واناة الحكماء وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء .. يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه[2]. هذه الأوصاف اذا كملت فى الزعيم

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٢.

(٢) الماوردى، ص ٢٢.

وقل ماتكمل فالصلاح بنظره عام، ومايناط برأيه وتدبيره تام[1].

التقليـــد:

اذا كملت شروط الوزارة هذه فيمن هو أهل لتولى المنصب فلابد لصحة تقليده من لفظ الخليفة، بمعنى أنه يجب على الخليفة أن يشرح لمن استوزره طبيعة العمل الموكول إليه اذ أن هذه الولاية تحتاج إلى عقد «والعقود لاتصح الا بالقول الصريح»[2]. وبناء على ذلك أن وقع له (كتب له) بالنظر فهو غير كافى وأن امضاه الولاة عرفا، ولكن ينبغى أن يشمل لفظ التفويض على شرطين معا:

١- عموم النظر (اختصاصات عامة).

٢- النيابة (عن ولى الأمر).

والمثل لذلك أن يقول له: «قد قلدتك ما إلى نيابة عنى» ففى ذلك يتضح الجمع بين عموم النظر والاستنابة. اما اذا قال له: «نب عنى فيما الى» فمع أنه جمع الوجهين فى هذا اللفظ جاز أن يكون الأمر موضع شك لأن هذا اذن يحتاج إلى أن يتقدمه عقد والاذن فى أحكام العقود لاتصح به العقود. هذا، ولو أنه لا يتطلب «فيما يباشره الخلفاء وملوك الأمم من العقود العامة مايراعى فى الخاصة من الشروط المؤكدة لأمرين: أحدهما أن من عادتهم الاكتفاء بيسير القول والاشارة. والثانى، أن قلة العقود التى يقومون بها توجب حمل لفظهم المجمل على الغرض المقصود دون الاحتمال المجرد»[3].

---

(١) الماوردى ، ص ٢٢.

(٢) الماوردى، ص ٢٢.

(٣) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٣ ، أ.د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ١٠١.

سلطات وزير التفويض:

بعد أن يتم تقليد الوزير يصبح له الحق فى ممارسة كل سلطات الخليفة، ولكن رغم عموم النظر فهناك شرطان يقع الفرق بهما بين الإمامة والوزارة:

١ - أحدهما خاص بالوزير، فعليه أن يطلع الإمام لما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية وتقليد (أى الحصول على موافقة الإمام باستمرار) «لئلا يصير بالاستبداد كالإمام».

٢ - والثانى خاص بالإمام، وهو أن يتصفح أعمال الوزير وتدبيره للأمور ليقر الصحيح منها، ويستدرك المخالفات التى وقع فيها «وباستثناء ذلك تكون سلطات الوزير واسعة، اذ هى مستمدة من سلطات الإمام، ونافذة مثلها الا ثلاثة أشياء:

١ - ولاية العهد، فان الإمام من حقه أن يعهد لمن يرى ولايجوز ذلك للوزير.

٢ - الاستعفاء، يجوز للإمام أن يستعفى الأمة من الأمامة، وليس ذلك للوزير.

٣ - للإمام الحق فى أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام[١].

وهذا الشرط الأخير ليس مطلقا. ففى حالة الاحكام التى نفذت أو الأموال التى صرفت فى أوجهها الصحيحة لايجوز للإمام نقضها. أما فيما يختص بتقليد الولاة أو تجهيز الجيوش وتدبير حرب فيجوز للإمام أن يعارض فى تصرفات الوزير. وهناك أمثلة لتنازع الاختصاص بين الإمام والوزير: ففى حالة اذا ماقلد الإمام واليا على عمل وقلد الوزير غيره على نفس العمل، تصح ولاية الأول اذا كان الإمام يعلم بأمر من ولاه الوزير، اما اذا كان لايعلم فتقليد الوزير أثبت[٢].

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) الماوردى، ص ٢٥.

وزارة التنفيذ:

أما عن وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل من وزارة التفويض، أما عن طبيعة عمل وزير التنفيذ فهو وسيط بين الإمام وبين الرعايا والولاة، ينفذ أوامر الإمام، ويمضى أحكامه «فهو معين فى تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولامتقلدا لها»، وربما كانت طبيعة عمله أشبه بالواسطة أو السفارة ، ومن الجائز أن يشارك الإمام فى الرأى، ولذلك كان عمله أقرب إلى عمل الوزير[1].

شروط وزارة التنفيذ:

ليست هناك شروط صعبة لشغل هذا المنصب انما يجب أن تتوفر فى صاحبه سبع (٧) خصائص ، أو ثمان:

١- الامانة حتى لايخون فيما قد اؤتمن عليه ولايغش..

٢- صدق اللهجة، حتى يوثق بخبره فيما يؤديه (أى حسن التدبير).

٣- قلة الطمع حتى لايرتشى فيما يلى:

٤- يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء.

٥- أن يكون ذكورا لما يؤديه للخليفة (أى يتمتع بقوة الذاكرة).

٦- الذكاء والفطنة حتى لاتدلس عليه الأمور فتشتبه.

٧- ألا يكون من أهل الاهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل.

هذا اذا اقتصر عمله على الوساطة، أما اذاكان الوزير مشاركا فى الرأى فهناك إلى جانب هذه الخصال خصلة ثامنة، هى:

---

(١)، ص ٢٦.

٨- الحنكة والتجربة التى تؤديه إلى صحة الرأى وصواب التدبير فان فى التجارب خبرة بعواقب الأمور[١].

واذا وجد من استوفى هذه الشروط فالتقليد ليس ضروريا لكى يقوم بمهامه بل يكفى اذن الإمام. كما أن شرطى الحرية والعلم ليسا واجبين لأنه لن ينفرد بولاية ولاتقليد. ولايجوز اسناد هذا المنصب إلى امرأة «لما تضمنه من معنى الولاية المصروفة عن النساء»، ولأن فيها من طلب الرأى وثبات العزم ماتضعف عنه النساء، وكذلك الظهور المحظور عليهن. ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، «وأن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم».

ومن الجائز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ على اجتماع وانفراد - وذلك كما كان يحدث في الأندلس - أما وزير التفويض فهو أشبه بالإمام، فكما لايجوز تقليد أمامين لأنهما ربما تعارضا فى العقد والحل والتقليد والعزل وقد قال الله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا ﴾ ، فانه لايجوز تقليد وزيرى تفويض، لانهما ربما تنازعا على الاختصاص[٢].

مشاكل التقليد لوزيرين:

يورد الماوردى بعض القضايا التى قد تعترض مشكلة تقليد وزيرى تفويض معا. وأولها أن هذا التقليد باطل اذا صدر لهما فى وقت واحد. وأن قلد أحدهما بعد الآخر، كان تقليده باطلا. وفساد التقليد بدوره ينتج عنه بعض المشاكل، اذ أن بطلان التقليد ليس كالعزل، وذلك أن العزل لايمنع من نفوذ الأوامر والأحكام التى سبق أن أصدرها أو نفذها المعزول بينما يبطلها فساد التقليد.

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية ، ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) الماوردى ، ص ٢٧.

ويمكن للإمام أن يقلد وزيرى تفويض وذلك على شرط أن يمضيا الأمور سويا، فلا يجوز لاحدهما أن ينفرد بأمر. أما مايختلفا فيه فلا نفاذ له. ويمكن للإمام أيضا أن يستوزر وزيرى تفويض على «أن لايشرك بينهما فى النظر ويفرد كل واحد منهما بما ليس فيه للآخر نظر». أى يفرق بين اختصاصات كل منهما، والمثل لذلك أن يولى أحدهما وزارة بلاد المشرق والآخر وزارة بلاد المغرب، فيكون عام النظر خاص العمل.

ويجوز بطبيعة الحال للخليفة أن يقلد وزيرين اذا ماكان أحدهما وزير تفويض والآخر وزير تنفيذ، فيكون وزير التفويض مطلق التصرف، ووزير التنفيذ مقصورا على تنفيذ ماوردت به أوامر الخليفة، ولايجوز لوزير التنفيذ أن يولى معزولا ولا أن يعزل مولى، ويجوز لوزير التفويض أن يولى المعزول ويعزل من ولاه ولايعزل من ولاه الخليفة.

واذا عزل الخليفة وزير التنفيذ لم ينعزل به أحد من الولاة، واذا عزل الخليفة وزير التفويض انعزل به عمال التنفيذ، ولم ينعزل به عمال التفويض، لأن عمال التنفيذ وعمال التفويض ولاية.

ويختم الماوردى الباب الخاص «بتقليد الوزارة» بشرعية وزراء الامراء والملوك والمتغلبين على الاطراف، فيقول : «واذا فوض الخليفة تدبير الاقاليم إلى ولاتها ووكل النظر فيها إلى المستولين عليها كا الذى عليه أهل زماننا، جاز لمالك كل اقليم أن يستوزر وكان حكم وزيره معه كحكم وزير الخليفة مع الخليفة فى اعتبار الوزارتين وأحكام النظرين[1].

---

(١) الماوردى، الاحكام السلطانية، ص ٢٨ - ٢٩.

الفصل الثالث

القضـــاة

القضـــاة

لم يفكر المسلمون الا قليلا في المبدأ الذي يقضي بالفصل الأساسي بين السلطتين: القضائية والتنفيذية، وكان هذا أيضا هو شأن أوروبا المسيحية حتى أحدث العصور. فقد كان النبي هو القاضي الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولاته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه. ثم أن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة، كما يحكى عن المختار، فانه كان يجلس للقضاء بنفسه، وقد نشط في ذلك وأحسن، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة. ولهذا السبب نفسه لم يحدد اختصاص القاضي بالنسبة لاختصاص الوالي تحديدا دقيقا. وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان «يعجز عنه القاضي». واذا لم يقبل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي الا ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مضربا على الاقل. ولكن مثل هذا الاهمال لحكم القاضي لم يكن كثير الوقوع، فلم يذكر الكندي صاحب تاريخ القضاة بمصر من أمثلة التصادم بين حكم القاضي وبين الوالي في مسائل مما يمس الاحوال الشخصية الا حادثتين طوال القرون الأولى، وكان احدى هاتين الحادثتين مسألة هامة جدا من حيث المبدأ، وذلك أن امرأة تزوجها رجل ليس من أكفائها، فقام بعض أوليائها وأنكروا الزواج، وترافعوا إلى القاضي ليفسخ النكاح، فأبى، فذهبوا إلى الأمير فأمر القاضي بفسخ النكاح، فامتنع أيضا، ثم فرق الأمير بينهما. ونجد هنا اصطداما مابين مبدأين: المبدأ العربي القائم على الارستقراطية والدم، ومبدأ الإسلام الديمقراطي الذي يحكم على الناس لا باعتبار الدم بل على قاعدة «ان أكرمكم عند الله أتقاكم».

وكان من أثر القضاء على الادارة الاقطاعية في عهد العباسيين أن خرج

القاضى عن سلطان الوالى، وصار يعينه الخليفة مباشرة أو يقر تعيينه على الأقل. وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولى قضاة الامصار من قبله. ولما قدم هارون بن عبد الله قاضيا على مصر من قبل المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) جلس معه صاحب البريد فى مجلسه، فأخرجه منه، وقال: هذا مجلس أمير المؤمنين، ليس يجلس فيه أحد الا بأمره. وظل تعيين القضاة من حق الخليفة حتى فى العصور السيئة، باعتبار أن القضاء آخر مابقى من المناصب الهامة. ولما بويع للمستكفى عام ٣٣٣ هـ / ٩٤٤م، وجلس على عرش الخلافة، سأل عن القضاة وكشف عن أمر الشهود بالحضرة، فأمر باسقاط بعضهم وقبول بعضهم، فامتثل القضاة ما أمر به وقال العامة ساخرين: «إلى هنا بلغ سلطانه وانتهى فى الخلافة أمره ونهيه». وفى سنة ٣٤٢ هـ - ٩٣٥م سلم الاخشيد قضاء مصر إلى أبى بكر بن الحداد، فألف البعض فيه الاشعار متهكمين، لأنه تولى القضاء من قبل الاخشيد لا من قبل الخليفة. وفى سنة ٣٥٤هـ - ١٠٠٤م قلد السلطان بهاء الدولة النقيب أبا أحمد الموسوى والد الشريف الرضى نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاة والحج والمظالم، فلم ينظر فى قضاء القضاة لامتناع الخليفة القادر بالله من الأذن له بذلك، هذا مع عظم سلطان بهاء الدولة. ولايزال من الحقوق القليل الباقية التى يمتاز بها الخليفة اليوم تعيينه قاضى القضاة بمصر.

وقد عظم شأن القضاة وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس، فقد كانت العادة أن الولاة يحضرون القضاة إلى مجالسهم، فلما قدم محمد بن مسروق الكندى قاضيا على مصر من قبل الرشيد عام ١٧٧هـ - ٧٩٣م أرسل اليه الأمير عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه، فقال: لو كنت تقدمت إليك فى هذا لفعلت بك وفعلت كذا وكذا، فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذ. بل نجد أن الآية قد انعكست فى القرن الثالث الهجرى،

فكان الولاة يحضرون مجلس القاضى فى كل صباح إلى أيام القاضى ابن حربويه عام ٣٢٩ هـ - ٩٤١م، فكان أخر من ركب إليه الأمراء، لأنه كان لايقوم للأمير اذا أتاه.

وكان هذا القاضى مثلا أعلى للعدالة، لايطعن فى حكمه ولاتلحقه نهمه، وكان لايؤمر احدا من ولاة مصر، بل كان يدعوهم بأسمائهم، ويحكى من تصميمه أن مؤنسا الخادم، وهو أكبر امراء المقتدر، وكان فى خدمته سبعون أميرا سوى أصحابه، وكان يخطب له على جميع المنابر مع الخليفة، عرض له بمصر مرض فأرسل إلى القاضى يطلب شهودا أنه أوصى بوقف على سبيل البر، فقال القاضى: لاأفعل حتى يثبت عندى أن مؤنسا حر، وقال: أن لم يرد على كتاب المقتدر أنه أعتقه، والا فلا أفعل. ولما وصل الكتاب أبى القاضى الا أن يشهد عدلا أنه كتاب أمير المؤمنين، هذا ومؤنس أكبر امراء الإسلام. وكان ابن حربوية مهيبا وافر الحرمة، لم يره أحد يأكل ولايشرب، ولايغسل يده،وانما يفعل ذلك فى خلوة، ولا رآه أحد يتمخط ولايبصق ولايحك جسمه، ولايمسح وجهه، وكان اذا ركب لا يلتفت ولايتحدث مع أحد، ولايصلح رداءه، وكان عليه من الوقار والحشمة مايتذاكره أهل البلد، وكان يختار فى أحكامه، ويرى أن من قلد فهو متعصب أو غبى، وحكم بما لو حكم به غيره ماسكتوا عنه، فم ينكر عليه أحد، ولم يكن يلحق علمه طعن، ولارشده تهمة. وكان لايحيف فى حكم. وقد اختصم عنده رجلان، وكان المدعى عليه قد سبق اليه وجعل نفسه المدعى صاحب الحق، فضحك خصمه متعجبا، وعند ذلك صاح ابن حربوية صيحة ملأت الدار، وقال: « م تضحك وقاضيك بين الجنة والنار؟» فأرعب القاضى الرجل، ومرض ثلاثة أشهر، وكان اذا عاده صاحبه يقول له: صيحة القاضى فى قلبى إلى الساعة وأحسبها تقتلنى.

وكان القاضى أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الاسفرائينى قاضى بغداد المتوفى عام ٤٠٦هـ - ١٠١٥م رفيع الجاه فى الدنيا، وقد وقع من الخليفة ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد: أعلم أنك لست بقادر على عزلى عن ولايتى التى ولانيها الله تعالى، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك.

ومما يدل على رهبة منصب القضاء واحترامه فى ذلك العهد اننا نجد الامراء والوزراء كثيرا مايساقون إلى السجن، ولايحكى مثل ذلك الا على قليل من القضاة، ولم يمت فى أثناء السجن الا قاضى واحد، ولايعلم أن قاضيا مات فى السجن سواه، وهو القاضى أبو أمية المتوفى عام ٣٠٠هـ وكان أمر هذا القاضى غريبا، فانه كان قليل العلم، وكان يتجر فى البز ببغداد، فاستتر عنده الوزير ابن الفرات أيام محنته، وقال له: أن وليت الوزارة فأى شىء تحب أن أصنع بك؟ فقال: تقلدنى شيئا من أعمال السلطان، قال : ويحك ! لايجىء منك عامل ولا أمير ولا قائد ولا كاتب ولا صاحب شرطة، فأيش أقلدك؟ قال: لاأدرى، قال: أقلدك القضاء، قال: قد رضيت. ثم خرج ابن الفرات ، وولى الوزارة وأحسن إلى أبى أمية، وولاه قضاء البصرة وواسط والاهواز، وربما أراد بذلك أن يغيظ الفقهاء، ولكن عفة أبى أمية وتصونه غطيا على نقصه فى العلم، وكان يتيه على أمير البصرة، ولايركب إليه، حتى ورد على الأمير كتاب مع طائر بنكبة ابن الفرات، والقبض عليه، فقبض على أبى أمية وأدخله السجن، فأقام فيه مدة ، ثم مات.

على أن دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية ترمق منصب القضاء بعين الرضا، ونجد الكلام فى قبول القضاء وعدم قبوله يمتد حتى إلى القرن الرابع الهجرى، ويقول السمرقندى المتوفى عام ٣٧٥هـ - ٩٨٥م: اختلف

الناس فى قبول القضاء: قال بعضهم : لاينبغى أن يقبل القضاء، وقال بعضهم: اذا ولى رجل بغير طلب منه فلا بأس بأن يقبل اذا كان يصلح لذلك الأمر. وقد احتج من كره ذلك بأحاديث رويت عن النبى ﷺ من شأنها أن ترهب القضاة حتى العادل منهم.

ولما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يجعل كعب بن ضنة على القضاء أرسل إليه عمرو بكتاب أمير المؤمنين، فقال كعب والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا اذا أنجاه الله منها، وأبى أن يقبل القضاء.

وفى سنة ٧٠ هـ - ٦٨٩م تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة، فلما بلغ أباه ذلك قال: انا لله وانا إليه راجعون، هلك الرجل، ويروى أنه قال: هلك ابنى وأهلك.

ولا أعلم كيف كان موقف المسيحيين الأولين من مسألة القضاء، أما المسلمون فانهم تمسكوا بالوصية التى جاءت فى خطبة الجبل (انجيل متى) من عدم التعرض للحكم على الناس.

ويحكى لنا من ورع المسلمين وخوفهم من ولاية القضاء أن أبا قلابة مثلا دعى للقضاء، فهرب من العراق حتى أتى الشام، فوافق ذلك عزل قاضيها، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمامة. وروى عن سفيان الثورى أنه دعى إلى القضاء، فهرب إلى البصرة حتى مات وهو متوار. وروى عن أبى حنيفة أنه ابتلى بالضرب والحبس فلم يقبل حتى مات. وقد حكى الطبرى أن قوما من أهل الحديث تحاموا حديث أبى يوسف القاضى من أجل غلبة الرأى عليه من صحبة السلطان وتقلده القضاء. وفى عهد الخليفة المهدى ألزم قاضى المدينة ولاية القضاء بعد أن أشرف عليه والى المدينة بضرب السياط.

وكان القاضي شريك قد ولي القضاء حوالى هذا العصر بعد تأب، وذهب إلى الصيرفي ليأخذ رزقه، فضايقه في النقد فقال له الصيرفي: أنك لم تبع به بزا، فقال له شريك : بل والله بعت أكثر من البز، بعت به ديني. بل يحكى عن بعض العلماء أنه أظهر الجنون هربا من تولي منصب القضاء.

وكان الصوفية بنوع خاص يقفون من القضاة الذين يسمونهم علماء الدنيا على طرفي نقيض، ويقولون : «أن العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين». ويحكى لنا أبو طالب المكي أن اسماعيل بن اسحاق القاضي كان من علماء أهل الدنيا، ومن سادة الفضلاء وعقلائهم، وكان مؤاخيا لأبي الحسن بن أبي الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولي اسماعيل القضاء هجره ابن أبي الورد، ثم أنه اضطر إلى أن دخل عليه في شهادة، فضرب ابن أبي الورد على كتف اسماعيل القاضي، وقال: يا اسماعيل ! علم أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خير منه، فوضع اسماعيل رداءه على وجهه، وبكى حتى بله.

وكان الحنفية فيما يتعلق بالقضاء أول من خضع لما اقتضته ظروف الحياة، وهذا شأنهم بالاجمال فيما عدا ذلك. ويحكى عن الفقيه الشافعي ابن خيران المتوفى عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢م أنه كان يعيب صاحبه ابن سريج على تولي القضاء، ويقول له: هذا الامر لم يكن في أصحابنا، انما كان في أصحاب أبي حنيفة. وكان ابن خيران قد امتنع من تولي قضاء بغداد، فوكل الوزير به في داره وختم الباب بضعة عشر يوما. ولكن أبا بكر الرازي المتوفى عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠م، وكان امام أهل الرأي في عصره، خوطب في أن يلي قضاء القضاة فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يفعل. وكانت العادة حتى أواخر القرن الرابع تقضي ألا يقبل أحد منصب القضاء الا بعد أحجام وتردد.

ولما صرف أبو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وحل محله أبو الحسن ابن أبي الشوارب وذلك في عام ٣٩٩هـ- ١٠٠٩م قال العصفري الشاعر:

عندى حـــديث ظريف بمثله يتــــــغنّى
من قـــاضـــيين يعـــزى هـــذا، وذاك يــــهـــنى
فـــذا يقـــول : أكـــرهونا وذا يقـــول : اســـتـــرحنا
ويكذبان جـــمـــيـــعـــا فـــمـن يصـــدّق منـا

وقد اختلف هل يأخذ القاضي عن القضاء رزقا؟ ويقال أن عمر بن الخطاب منع من ذلك. أما الخصّاف الفقيه الحنفي المتوفى عام ٢٦١ هـ- ٨٧٤م فقد حاول أن يثبت جواز أخذ القاضي لرزق من بيت المال مستندا في ذلك إلى احاديث نبوية وإلى أمثلة جرت في الصدر الأول.

ولما ولي القضاء بمصر ابن حجيرة سنة ٧٠هـ - ٦٨٩م كان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار، وكان لابن حجيرة إلى جانب ولاية القضاء القصص وادارة بيت المال. وكان رزقه من القصص ومن ادارة بيت المال أربعمائة دينار، وكان عطاؤه مائتي دينار، وكانت جائزته مائتي دينار، فكان مجموع رزقه في السنة ألف دينار، وفي سنة ١٣١هـ - ٧٤٨م كان رزق قاضي مصر عبد الرحمن بن سالم عشرين دينارا في الشهر، ولكن هذا المبلغ كان فيما يظهر لايكاد يكفي للانفاق على كتاب القاضي وعلى غير ذلك مما يتطلبه ديوانه، ومع أن القاضي ابن حجيرة كان يأخذ الف دينار في كل سنة، فكان لايحول عليه الحول وعنده منها شيء يفضل على أهله واخوانه.

وقد دخل رجل على قاضي الفسطاط في سنة ٩٠هـ- ٧٠٩ م وقد

تغدى، فقال: أتتغدى؟ قال: نعم، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكعك وماء، فقال ابلل، وكل ، فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز. وكان القاضى خير بن نعيم الحضرمى الذى تولى القضاء والقصص بمصر عام ١٢٠هـ - ٧٣٨م يتجر - الى جانب منصبه - بالزيت، فقال له رجل حديث السن من حضرموت كان يلازمه: وأنت أيضا تتجر ! يحكى لنا هذا الحضرمى الصغير فيقول : «فضرب (خير بن نعيم) بيده على كتفى، ثم قال انتظر حتى تجوع ببطن غيرك، قلت فى نفسى كيف يجوع انسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال اذا أنا أجوع ببطونهم.

وكان القاضى ابو خزيمة ابراهيم بن يزيد الرعينى الذى ولى قضاء مصر عام ١٤٤هـ - ٧٦١م، متحرزا جدا فيما يتعلق برزقه، «فكان اذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل، وقال: انما أنا عامل للمسلمين، فاذا اشتغلت بشيء غير عملهم فلايحل لى أخذ مالهم» ، «وكان يعمل الأرسان، كل يوم رسنين، واحد ينفقه على نفسه وأهله، وآخر يبعث به إلى اخوان له من أهل الاسكندرية، لكل واحد منهم رسن، وكان ذلك فى سبيل الله» .

وكما أن العباسيين جعلوا للقاضى منصبا رفيعا مستقلا فانهم رفعوا رزقه أيضا، فكان رزق عبد الله بن لهيعة الذى ولى القضاء على مصر من قبل المنصور عام ١٥٥ هـ ثلاثين دينارا فى كل شهر. وكان رزق المفضل بن فضالة قاضى مصر من قبل المهدى ثلاثين دينارا فى كل شهر أيضا، وكان يأخذ عسلا بدل عشرة منها. أما فى عصر المأمون بما كان فيه من كرم فقد أجرى والى مصر على القاضى الفضل بن غانم الذى ولى القضاء عام ١٩٨

هـ مائة وثمانية وستين دينارا فى كل شهر، وكان الفضل أول قاض أجرى عليه هذا الرزق الكبير.

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر، وكان مشهورا بالكرم، قلّد عيسى بن المنكدر القضاء عام ٢١٢هـ، ولماعرف أنه مقلّ أجرى عليه سبعة دنانير كل يوم، «فجرت فى القضاء إلى اليوم». ويحدثنا المسعودى عن ابراهيم بن جابر القاضى انه كان ببغداد» يعالج الفقر ويتلقاه من خالقه بالرضا ناصرا للفقر على الغنى، فما مضت أيام حتى لقيته بحلب من جند قنسرين والعواصم من أرض الشام، وذلك فى سنة ٣٠٩ هـ - ٩٢١م، واذا هو بالضد مما عهدته متوليا للقضاء على ماوصفنا، ناصرا ومسرفاً للغنى على الفقر.. وقد اخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوبا تستريا وقصبا وأشباه ذلك من الثياب على مقراض واحد، وخلّف مالا عظيما لغيره.

وقد أراد الخليفة الحاكم أن يحول بين القضاة وبين أخذ الاموال بغير حق، فأمر بأن يضعّف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعاته، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه.

ويحدثنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أن رزق قاضى القضاة بمصر ألفا دينار فى الشهر. ويذكر فى ملحق أخبار القضاة للكندى أن دخل القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى السنة كان يزيد على عشرين ألف دينار.

وكان القاضى فى المشرق يعطى رزقه من بيت المال، ولكن عندنا من النصوص مايدل على أنه كان لايأخذ شيئا من رزقه، أما لأنه لايكفيه أو رغبة عن رزق القضاء على سبيل اتقاء الشبهة والرغبة فى التحرز. ويظهر أن الأمر الأخير هو الحق، فان الحسن بن عبد الله (المتوفى عام ٣٦٩ هـ - ٩٧٨م)

لبث على قضاء مدينة سيراف خمسين عاما، ومع أن هذه المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة، فقد كان الحسن يعيش مما يبيعه من منسوخاته المشهوره بجودة خطها.

وقد امتنع قاضى المدينة فى عهد المهدى أن يأخذ رزقا، لأنه لم يرد أن يصيب مالا من هذا المنصب الذى يكرهه.

ولما ولى قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح بن أم شيبان الهاشمى هم سنة ٣٦٣هـ - ٩٧٢م وكان يتفقه لمالك اشترط عند تولى منصبه شروطا منها ألا يتناول على القضاء أجرا، ولايقبل شفاعة فى فعل مالا يجوز ولا فى اثبات حق، ولايغير ملبوسه.

وكان علّى بن المحسن التنوخى المتوفى عام ٤٤٧ هـ - ١٠٥٥م قد تقلد قضاء عدة نواح، وكان دخله كل شهر من القضاء ودار الضرب التى كان يتولاها مع القضاء ستين دينارا فى الشهر.

وفى سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م كبس اللصوص دار أحد القضاة ببغداد، وأخذوا جميع ماكان فى منزله ولم يكن شيئا مذكورا، لأنه كان مشهورا بالفقر، وكانوا يقدرون أن للقاضى مالا، فضربوه ليستخرجوه منه، فهرب إلى السطوح ورمى بنفسه إلى ماجاوره فسقط فمات.

وفى سنة ٣٥٢ هـ - ٩٦٣م تقلد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء ببغداد، على ألا يأخذ رزقا.

وكان للقاضى أبى الطيب الطبرى عمامة وقميص بينه وبين أخيه، اذا خرج ذاك قعد هذا فى البيت، واذا خرج هذا احتاج ذلك أن يقعد.

وكان أبو بكر محمد بن المظفر الشامى قاضى قضاة بغداد المتوفى عام

٤٨٨ - ١٠٩٥م زاهدا ورعا، وقد شرط عند تولى القضاء ألا يأخذ رزقا، وكان له كراء بيت قدره فى الشهر دينار ونصف، وكان من ذلك قوته، وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن، وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز، فاذا أراد الأكل جعل من الفتيت فى قصعته، ووضع عليه قليلا من الماء وأكل منه.

وكذلك كان أحمد بن يحيى القاضى الأندلسى يختلف إلى غلة كان يعمرها بالعمل ليعيش منها. ويحدثنا بيترمان (Peterman) وهو فى دمشق عام ١٨٥٢م: « فى كل سنة يرسل قاض جديد من القسطنطينية يختاره شيخ الإسلام ويرسله، وهو يأخذ نصيبا ثابتا من تركة كل من يموت (قيل لى أنه الربع، وهو كثير بالطبع)، ويأخذ نصف العشر عن كل قضية يحكم فيها، وهذا هو المقدار الذى يدفعه كل فرد من رعايا الباب العالى عن القضية التى يتقدم بها (ولو خسرها). أما الرعايا الأوروبيون فأنهم يدفعون خمس العشر».

وفى مراكش اليوم يأخذ القضاة، باعتبارهم عمالا دينيين، أرزاقهم من الحبوس (الأوقاف الخيرية). ولما كان هذا نادرا فانهم يتركون لقبول الهدايا من المتحاكمين اليهم.

وفى سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١ م تقلد أبو العباس بن أبى الشوارب قضاء بغداد، بعد أن وافق على أن يحمل إلى خزانة الأمير معز الدولة مائتى ألف درهم فى كل سنة. وكان هذا القاضى «مع قبح فعله قبيح الصورة مشوهها»، وقد اتهم «بالغلمان والشهوات والخمور»، ولكن الأمور لم تسر معه على عادتها، فقد خلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من أن يصل إليه، ولم يأذن له الخليفة أن يصل إليه فى يوم موكب ولاغيره، ثم عزل من منصبه بعد عامين، وتولى مكانه أبو بشر عمر بن أكثم المتقدم الذكر وأعفى مما كان

يحمله ابى الشوارب، وأمر بألا يمضى شيئا من أحكام ابن أبى الشوارب وسجلاته، لأنه اشترى منصبه شراء.

وقد كان القاضى توبة بن نمر الحضرمى المتوفى عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨م أول قاضى بمصر وضع يده على الاحباس، وانما كانت الاحباس فى يد أهلها وأيدى أوصيائهم، فأراد توبة أن يضع يده عليها حفظا لها، «فلم يمت حتى صارت الاحباس ديوانا عظيما». وكان القاضى إلى جانب هذا يتولى أموال اليتامى، ومنذ عام ١٣٣ هـ - ٧٥١م أوردها القاضى خير بن نعيم بيت المال وسجل فى كل مال منها سجلا بما يدخل منها ومايخرج.

وفى سنة ٣٨٩ هـ - ٩٩٩م توفى القاضى محمد بن النعمان، فوجد عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تصادر أمواله، وأرسل فهد النصرانى، كاتب الوزير، فاحتاط عليها، وشرع فى البيع وفى تغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم (وهم خيار أهل البلد) إلى أن تحصل نصف الدين، وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشهود مال يتيم ولا غائب. وأفرد موضع يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة من الشهود لايفتح الا بحضورهم.

ولم يدخل فى اختصاص القاضى النظر فى المواريث بصورة نهائية الا فى القرن الرابع الهجرى، ثم صار إليه أخيرا الاشراف على سجون البلاد التى يلى قضاءها، واختص القضاة من ذلك بما سمى «حبوس القضاة»، وهى الخاصة بمن يحبس لدين عليه، وذلك فى مقابل حبوس المعونة التى يحبس فيها أصحاب الجنايات. وفى سنة ٤٠٢ هـ - ١٠١١م أمر فخر الدولة ليلة الفطر بتأمل من فى حبوس القضاة، فمن كان محبوسا على دينار إلى عشرة أطلق،

وما كان أكثر من ذلك كفل، وأخرج ليعود بعد التعييد، وأوعز بتمييز من فى حبس المعونة، فمن صغرت جنايته أطلق ووقعت توبته.

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضى برقاع فى الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه، وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل مجيء القاضى، ولايزال يأخذها حتى يحضر القاضى، واذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضى أن يدعو بها كلها في يوم، فرقها فى كل يوم خمسين رقعة أو أكثر من ذلك على قدر طاقته في الجلوس والصبر.

وكانت جلسات القاضى للحكم علنيه، وقد خاصم رجل المأمون مرة، وأذن المأمون للقاضى يحيى بن أكثم فى القضاء بينهما فى دار الخلافة، فقال القاضى: فانى أبدأ بالعامة أولا ليصح المجلس للقضاء، ثم أمر بفتح الباب وقعد فى ناحية من دار الخلافة، وأذن للعامة في الدخول ونادى المنادى وأخذ الرقاع ودعا بالناس، ثم قضى بين الخليفة وخصمه. ومن أجل أن جلسات القضاء كانت علنية، فقد كان القاضى فى أول الأمر يجلس فى مكان لايمنع أحد من المسلمين من الدخول إليه، وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستندا إلى اسطوانة من أساطين المسجد،وكذلك كان القاضى يجلس أحيانا للقضاء فى داره، ويحكى عن خير بن نعيم الذى تولى قضاء مصر عام ١٢٠ هـ - ٧٣٨ م انه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره، فكان يجلس فيه فيسمع ما يجرى بين الخصوم من الكلام.

وقد ولى قضاء مصر ابراهيم بن الجراح سنة ٢٠٥هـ- ٩١٩م، وقد سخط المصريون عليه، وكان مصلاه موضوعا فى المسجد الجامع، فجاء المصريون وألقوه فى الطريق، فجلس للحكم فى منزله، ولم يعد للمسجد الجامع حتى صرف. ولم يكن هذا القاضى بالمذموم فى أول الأمر، حتى قدم

عليه ابنه من العراق، فأفسد أموره وخدعه وأخذ الرشا من الناس، فسخط المصريون على القاضى.

ولما ولى القاضى هرون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ - ٨٣٢م جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد، واستدبر القبلة، وأسند ظهره بجدار المسجد، ومنع المصلين أن يقربوا منه، وباعد كتّابه عنه، وباعد الخصوم، وكان أول من فعل ذلك. واتخذ مجلسا للصيف فى صحن المسجد وأسند ظهره للحائط الغربى.

وقد رأى أهل السنة بعد انتصارهم حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أن جلوس القاضى فى المسجد ينافى مايجب لبيوت الله من الحرمة، فأمر المعتضد سنة ٢٧٩هـ ألا يقعد القضاة فى المسجد. ولكن هذا الأمر لم يثمر إلا قليلا، فقد كان قاضى القضاة ببغداد حوالى عام ٣٢٠هـ - ٩٣٢ م يجلس للقضاء فى داره. أما فى مصر فكان القاضى يجلس للقضاء فى داره أحيانا، وفى الجامع أحيانا أخرى.

ولما تولى أبو عمر محمد بن الحسين البسطامى (المتوفى عام ٤٠٧هـ - ١٠١٦م) قضاء نيسابور أجلس فى مجلس القضاء فى المسجد فى الساعة التى قرىء فيها عهده.

يقول المعرى شاكيا حال العدول وسوء فعلهم:

فى البدو خراب أذواد مسوّمة ... وفى الجوامع والاسواق خرّاب

فهؤلاء تسمّوا بالعدول أو التجار ... واسم أولاك القوم أعراب

ويقول فى العدول فى موضع آخر:

عدول لهم ظالم الضعيف سجية ... يسمّون أعراب القرى والجوامع

أما فى عصر الفاطميين فكان قاضى القضاة بالقاهرة يجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص على طراحة ومسند حرير. وكان الشهود يجلسون حواليه يمنة ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم، وبين يديه خمسة من الحجاب، اثنان بين يديه، واثنان على باب المقصورة، وواحد ينفذ الخصوم اليه، وأمامه كرسى الدواة، وهى دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور.

وكان المتحاكمون إلى القاضى فى العصر الأول يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه، وقد أتى الأمير الأموى عبد الملك بن مروان النصيرى إلى القاضى خير بن نعيم يخاصم ابن عم له، فقعد على مفرش القاضى، فقال له القاضى: قم مع ابن عمك، فغضب الأمير، وقام ولم يخاصم.

ثم صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدى القاضى صفا متساوين.

وقد وقع بين أم المهدى وبين أبى جعفر المنصور خصومة، فقالت لا أرضى الا بحكم غوث بن سليمان، وكان هذا قاضيا على مصر من قبل المهدى، فحمل إلى العراق للحكم بينهما، فوكلت أم المهدى عنها وكيلا، جلس أمام القاضى، فطلب القاضى من أمير المؤمنين أن يساوى خصمه فى مجلسه فانحط عن فرشه، وجلس مع الخصم، وبعد النظر فى القضية حكم القاضى لأم المهدى على أمير المؤمنين.

وقد جاء فى مصدر أن المأمون شكاه رجل إلى القاضي يحيى بن أكثم، فنودى الخليفة ليجلس مع خصمه، ومعه غلام يحمل مصلى، فأمره القاضى بالجلوس، فطرح المصلى ليقعد عليه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين ! لاتأخذ على خصمك شرف المجلس، فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه.

وقد خوصم مولى السيدة زبيدة، زوجة الرشيد، ووكيلها إلى القاضى

محمد ابن مسروق، فأمر باحضاره فجلس متربعا، فأمر به ابن مسروق فبطح وضرب عشرا، هذا مع أنه وكيل السيدة ذات النفوذ العظيم.

وقد تعرض أهل النظر للبحث في جميع الأمور الصغيرة التي قد تؤثر على عدالة القاضي، هل يجوز للمتخاصمين أن يسلّموا على القاضي؟ اذا سلم عليه أحد الخصمين فقال: «السلام عليكم» فان كلمة السلام زيادة في الجواب. ولهذا ذهب قوم إلى أنه لاينبغي للخصوم أن يسلّموا على القاضي.

وكذلك شدد أهل العدالة على القاضي في ألا يؤثر على المتخاصمين أقل تأثير، فلا يصيح على أحدهم ليستخرج منه الاجابة التي يريدها. وقد كانت هذه المعاملة اللينة من القضاة لمن يختصم إليهم وعجز القضاة أحيانا عن الزام أحد الخصمين باعطاء المال لصاحبه، سببا في أن اخترعت عند أهل الفكاهة بمصر قصة القاضي النطاح الذى ثبت في قلنسوته قرني ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين. وقد سمع الخليفة الحاكم بذلك، فلام القاضي على مافعل، فطلب القاضي من الخليفة أن يجلس وراء الستار في مجلس القضاء ليرى بنفسه مقدار بلادة الناس. فحضر الخليفة، ومثل بين يدى القاضي خصمان يطالب احدهما الآخر بمائة دينار، فاعترف المدعى عليه بالدين، ولكنه طلب أن يدفعه مقسطا، فاقترح القاضي في أول الأمر أن يدفع عشرة دنانير في كل شهر، ولكنه اعترض فخفض القاضي ذلك إلى خمسة دنانير، ثم إلى دينارين، ثم إلى دينار، ثم نصف دينار، فأظهر العجز، وأخيرا سأله القاضي أن يبين مايستطيع أن يدفعه فقال أنه يدفع ربع دينار في كل عام، ولكنه شرط أن يبقى خصمه في السجن، لأنه اذا أطلق وعجز هو عن أداء ماعليه فربما قتله. عند ذلك سأل الحاكم القاضي: كم نطحته فقال: واحدة، فقال الحاكم: انطحه مرتين، أو انطحه مرة وأنا أنطحه أخرى.

وكان القاضى يلبس السواد على هيئة عمال بنى العباس، وكان المفضل ابن فضالة قاضى مصر من قبل المهدى عام ١٦٨هـ - ٧٨٤م يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة. ولما ولى الحارث بن مسكين قضاء مصر عام ٢٣٧هـ - ٨٥١م، طلب إليه أن يلبس السواد،فامتنع، فخوفه أصحابه سطوة السلطان به، وقالوا له: يقال انك من موالى بنى أمية، فأجابهم إلى لباس كساء أسود من الصوف. وفى غضون القرن الثالث الهجرى كانت القلنسوة وتسمى أيضا الدنية فى لغة المستهزئين هى لباس القضاة الذى يميزهم، وكانت تلبس مع الطيلسان.

ولما صرف القاضى أحمد التنوخى عن القضاء، ثم أعيد إليه قال: أحب أن يكون بين الصرف والقبر فرجة، ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة.

وقد شبه أحد الكتاب رجلا فقد الملاحة فقال مثل قاض بلا دنية.

وكان ببغداد فى سنة ٣٦٨ هـ - ٩٧٨م قاض يعرف بأحمد بن سيار، وكانت له هيبته وجثة مهولة ولحية طويلة، فقدم إليه امرأتان أدعت احداهما علي الأخرى، فقال لهذه : ماتقولين فى دعواها؟ قالت: أفزع، أيد الله القاضى. قال: مماذا، قالت: «لحية طولها ذراع، ووجهه طوله ذراع، ودنية طولها ذراع، فأخذتنى هيبتها،فوضع القاضى دنيته، وغطى بكمه لحيته، وقال: قد نقصتك ذراعين، أجيبينى عن دعوتها.

وكان قضاة الفاطميين يحملون سيفا.

وكان موظفو ديوان قاضى القضاة ببغداد فى سنة ٣٣٦ هـ هم:

- الكاتب ، وقد رتب له فى كل شهر ثلثمائة درهم.
- الحاجب، ورزقه مائة وخمسون درهما فى الشهر.

- ومن يعرض الاحكام،وراتبه في الشهر مائة درهم.
- وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان، ولهم ستمائة درهم.

ومنذ عهد الخليفة المنصور ظهر أكبر مايستلفت النظر فى النظام القضائى، وهو ايجاد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضى، ويخبرنا الكندى، وهو مؤرخ ثقة، عن نشأة الشهود، فيقول: كان القضاة اذا شهد عندهم أحد، وكان معروفا بالسلامة، قبله القاضى، وأن كان غير معروف بها أوقف، وأن كان الشاهد مجهولا لا يعرف سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به، حتى كان غوث بن سليمان فى خلافة المنصور، فكان أول من سأل عن الشهود بمصر في السر، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث، وكان من عدّل عنده قبله، ثم يعود الشاهد واحدا من الناس، ولم يكن أحد يوسم بالشهادة ولايشار إليه بها.

ثم أن القاضى المفضل بن فضالة عين رجلا يسمى صاحب المسائل ليسأل عن الشهود ويشهد عليهم، وكان المفضل أول من استعمل هذا العامل، فتحدث الناس انه كان يرتشى من أقوام ليذكرهم بالعدالة. ثم جاء القاضى العمرى على قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥هـ - ٨٠١م، فاتخذ الشهود «وجعل أسماءهم فى كتاب، وهو أول من فعل ذلك، ودونهم وأسقط سائر الناس، ثم فعلت القضاة ذلك من بعده حتى اليوم».

وقد سخر الشعراء من هذا القاضى لأنه اتخذ من أهل المدينة من موالى قريش والانصار وغيرهم نحوا من مائة شاهد، ثم أسقط جمعا منهم، وحط عليهم نحو من ثلاثين رجلا ممن ألب عليه من الفرس.

ومن الشهود نشأت بطانة القاضى، وقد أمر القاضى لهيعة بن عيسى الذى تولى القضاء بمصر عام ١٩٩ هـ صاحب مسائله أن يجدد السؤال عن

الشهود والموسومين بالشهادة فى كل ستة أشهر، ليقف من حدثت له جرحة، واتخذ من بين الشهود قوما جعلهم بطانته، وكانوا نحوا من ثلاثين رجلا.

وقد أهتم أحد القضاة، وهو عيسى بن المنكدر الذى تولى القضاء عام ٢١٢هـ، بأمر الشهود اهتماما كبيرا، فكان يتنكر بالليل، ويغطى رأسه، ويمشى فى السكك ليسأل عن الشهود.ونجد فى عهد بولاية القضاء فى كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر أن التثبت فى شهادة الشهود، والمبالغة فى المسألة عنهم، والفحص عن وجوه عدالتهم، والبحث عن حالاتهم، من أهم واجبات القاضى.

وكان عضد الدولة لايجعل للشفاعات طريقا، ويحكى أن مقدم جيشه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته، ويعدله. فقال عضد الدولة: «ليس هذا من أشغالك، انما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد ونقل مرتبة جندى ومايتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها، فهو إلى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه».

ويحكى أن الخليفة الحاكم جرى فى هذه المسألة ، مسألة العدول، على ماعرف عنه من فعل الشىء ثم نقضه، ففى سنة ٤٠٥ هـ - ١٠١٤م سأله جماعة من المصريين أن يؤهلهم للعدالة، فأذن لهم فى ذلك، وتشبه بهم غيرهم فى سؤاله، حتى بلغ عدد العدول ألفا ومائتين ونيفا، فأعلمه قاضى القضاة أن كثيرا منهم لايستحقون العدالة، ولايوثق بهم فى شهادة فأذن له، على حسب عادته، بتصفحهم واقرار من يرى اقراره منهم.

ولما كان هؤلاء العدول يختارهم القاضى ويعدلهم بنفسه، فانهم كانوا يعزلون بعزله أو موته.

وكان القاضى اسماعيل بن عبد الواحد، قاضى مصر سنة ٣٢١هـ -

٩٣٣م يلزم الشهود أن يركبوا معه.

وحوالى ذلك الوقت كان الرسم أن يجلس مع القاضى عند نظرة فى القضايا أربعة شهود، اثنان يجلسان عن يمينه واثنان عن يساره.

وفى القرن الرابع الهجرى نجد الشهود قد أصبحوا نوعا من العمالى الثابتين، بعد أن كانوا فى أول الأمر من حاشية القضاة الأمناء الذين يوثق بشهادتهم. وهذا القرن أيضا هو الذى أوجد هذا النظام الذى لايزال باقيا إلى اليوم وأحله محل النظام الإسلامى القديم، بل نجد أن القاضى التميمى فى القرن الثالث الهجرى بالبصرة قد عين فى أثناء ولايته ستة وثلاثين ألف شاهد، منهم عشرون ألفا لم يشهدوا بعد تعيينهم، فلم يحظوا بشرف منصبهم. وكان ببغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ - ٩١٢م نحو من ألف وثمانمائة شاهد.

وفى سنة ٣٢٢هـ- ٩٣٤م أكثر الشهود التردد على القاضى محمد بن موسى بمصر، فقال لهم: مالكم معاش عندنا، فلا يجىء أحد منكم الا لحاجة أو لشهادة. فكان الشهود أرادوا أن يكونوا موظفين، ولكن القاضى كان على الرأى القديم فى أمر الشهود.

وفى سنة ٣٨٢ هـ- ٩٩٢م بلغ عدد الشهود ببغداد ثلاثمائة وثلاثة، ولكن هذا العدد كان يعتبر كثيرا، وفى أواخر القرن الرابع أنقص قاضى القضاة بالقاهرة عدد الشهود.

وقد أوصى الدمشقى التاجر الماهر أن يحتاط فى شهادة من يشهدون على العقود التى يريد إمضاها، فيسأل عنهم أن لم يكن خبيرا بهم، حتى يعرف المشهورين بالامانة والنزاهة فى الدين واليسار فيأخذ بشهاداتهم، وذلك لأنه فى أكثر الأوقات يدخل فى الشهود من لايستحق منزلة العدالة لعناية به أو جاء

بعض أقاربه ويلبث مدة، ثم ربما حدث أمر آخر فيسقط الشاهد وتضيع قيمة الكتاب أو العقد الذى شهد عليه.

وكان ينوب عن القاضى شاهد فى كل محكمة من المحاكم الخمس الصغرى ليحكم فيها باعتباره قاضيا مستقلا يحكم فى القضايا الصغيرة.

وكان الشهود فى عصر لين Lane يجلسون فى دهليز المحكمة الكبرى، ويقدم الشاكى قضيته لمن يجده غير مشغول منهم، فيقيدها هذا، ويأخذ عن تقييدها قرشا أو أكثر، فان كانت القضية صغيرة، ورضى المدعى عليه بحكم الشاهد حكم هذا فيها، والا أدخل الخصمين إلى القاضى.

وقد أوصى الخليفة الطائع فى عهده لقاضى القضاة أبى محمد بن معروف، وهو العهد الذى كتبه الصابى فى سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦م، وصية متكررة بالاكثار من تلاوة القرآن وأن يتخذوه إماما يهتدى بآياته، وبالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها، وبالجلوس للخصوم وفتح بابه لهم على العموم، وأن يوازى بين الفريقين المتحاكمين إليه، ولايحابى مليا على ذمى. وأمره بالقصد فى مشيته، وبالغض من صوته، وحذف الفضول من لفظه، وان يخفف من حركاته ولفتاته، ويتوقر من سائر جنباته وجهاته، وأن يستصحب كاتبا دربا بالمحاضر والسجلات، ماهرا فى القضايا والحكومة غير مقصر عن القضاة المستورين والشهود المقبولين فى طهارة ذيله ونقاء جيبه، وحاجبا سديدا رشيدا لايسف إلى دنيئه، ولايقبل رشوة، ولايلتمس جعلا، وخلفاء يرد إليهم مابعد من العمل عن مقره، وأعجزه أن يتولى النظر فيه بنفسه، ويجعل لكل من هذه الطوائف رزقا يكفه ويكفيه، وأن يبحث عن أديان الشهود ويفحص عن أماناتهم، وأمره أن يضبط مايجرى فى عمله من الوقوف الثابتة فى ديوان حكمه، ويحتاط على أموال الايتام ويسندها إلى أعف وأوثق القوام، وأمره أن

ورد عليه أمر يعيبيه الفصل فيه أن يرده إلى كتاب الله، فان وجد فيه الحكم وإلا ففى السنة، فان أدركه ولااستفتى ذوى الفقه وأهل الدراية، وأمره الا ينقض حكما حكم به من كان قبله الا اذا كان خارجا عن الاجماع وأنكره جميع العلماء، عند ذلك ينقضه نقضا يشيع ويذيع. وهذا الاجماع الذى ينعقد من جماعة العلماء الذين لايخضعون لسلطة أخرى هو المحكمة الإسلامية العليا، وهؤلاء العلماء الذين يبدون رأيهم فى ميدان الاحكام القضائية الهامة هم المظهر الذى أثبتت فيه الديمقراطية الإسلامية وجودها، لأن الحكم الأعلى هنا يصدر عن جماعة المسلمين.

وكان فى الحياة الديوانية نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الأبن، وأظهر ماكان ذلك فى مناصب القضاء، ففى القرنين الثالث والرابع تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هى أسرة أبى الشوارب ثمانية رجال ببغداد، هذا عدا ستة عشر قاضيا آخرين من هذه الأسرة. وظل بنو أبى بردة منذ حوالى عام ٣٢٥هـ - ٩٣٧م يتقلدون قضاء القضاة بفارس أجيالا كثيرة، كما ظلوا قرونا كثيرة منذ ٤٠٠هـ قضاة فى غزنة. وكذلك توارث آل النعمان قضاء القضاة ثمانين سنة فى عهد الفاطميين بمصر.

وقد زادت شوكة هذه الأسر التى توارثت القضاء زيادة هائلة، وذلك لأن نظام الاستخلاف فى المناصب ظهر فى القضاء، كما كان فى مناصب الولاية وحكم الأقاليم ونجد فى صور المخاطبات التى ترجع إلى أوائل القرن الرابع الهجرى أنه كان بمصر قاض واحد، وأن فارس والاهواز كان يجمعان لقاض واحد. وكان القاضى عبد الجبار قاضى قضاة بنى بويه يجمع بين قضاء الرى وهمذان والجبال. وكان قاضى مكة فى سنة ٣٣٦هـ- ٩٤٧م له قضاء مصر وغيرها. وفى عهد الفاطميين كان ربما جمع قضاء الديار

المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد. ونجد فى العهد الذى كتب لقاضى القضاة محمد بن صالح الهاشمى سنة ٣٦٣هـ - ٩٧٤م، مايجعله قاضيا على المملكة الإسلامية كلها تقريبا من البلاد الواقعة غرب جبال فارس إلى مصر، وكان تحته حكام فى البلاد عهد إليه فى تصفح أحوالهم واستشراف مايجرى من الاحكام فى سائر النواحى.

وكان هناك إلى جانب القضاء النظر فى المظالم، وكان الناظر فى المظالم ينظر فى كل «حكم يعجز عنه القاضى، فينظر فيه من هو أقوى منه يدا». وكان القضاء والنظر فى المظالم يقومان جنبا لجنب فى جميع البلاد الإسلامية. ولكن اختصاص كل من هذين القضاءين لم يحدد تحديدا دقيقا. وكانت المسألة الهامة دائما هى هذه: أيهما أقوى: سلطان الإسلام الذى يمثله القاضى أم السلطة الدنيوية؟ وكانت الأمور المتعلقة بالحدود تقدم إلى صاحب المظالم. وكان القاضى أحيانا ينظر فى المظالم، وكان قاضى القضاة بنوع خاص ينظر فى المظالم بدار السلطان. وكان الوزير هو الذى يعين أصحاب المظالم فى البلاد.

وقد حاول رجال الشرع مرتين فى القرن الرابع الهجرى أن يشرفوا على أعمال الشرطة. ففى سنة ٣٠٦هـ - ٩١٨م أمر الخليفة المقتدر يمنا الطولونى صاحب الشرطة ببغداد بأن يجلس فى كل ربع من الأرباع فقيها يسمع من الناس ظلاماتهم، ويفتى فى مسائلهم حتى لايجرى على أحد ظلم، فكان هؤلاء الفقهاء بمثابة أصحاب شرطة من الفقهاء يشرفون على أعمال أصحاب الشرطة لتكون مطابقة لفتواهم، ويقول ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المتوفى عام ٧٢٥هـ بعد ذكر هذا النظام: «فضعفت هيبة السلطة بذلك، وطمع اللصوص والعيارون، وكثرت الفتن، وكبست دور التجار، وأخذت ثياب الناس فى الطرق المنقطعة».

وكذلك نصب الخليفة الحاكم بمصر فى الشرطة وفى كل بلد شاهدين من العدول، وأمر ألا يقام على ذى جريرة أو مرتكب جريمة حد الا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب لذلك. ولكن هاتين المحاولتين لم يكن لهما تأثير،بل نجد الآية قد انعكست، فكانت ترفع الظلامات من حكم القضاة إلى أصحاب المظالم ولاسيما إلى الوزير الذى يجلس للمظالم، وهذا يخالف النظرية الفقهية. وقد جاء وصف لجمهور المستصرخين إلى الوزير الذى كان يقعد للمظالم بأنهم كانوا «قوما كثيرين قد قصدوا من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين متظلمين، فهذا من أمير وهذا من عامل، وهذا من قاض وهذا من متعزز».

وقد حدث حوالى سنة ٤٣٠ هـ - ١٠٣٩م أن مات رجل بمصر وترك مالا جزيلا، ولم يخلف سوى بنت واحدة، فورثت جميع المال، وتطاول الناس لتزوجها لكثرة مالها، ومن جملتهم القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى، فامتنعت عليه، فحنق عليها، وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة، وأخذ مالها، فهربت إلى الوزير، وعرفته بما فعله القاضى، فعمل محضرا برشدها وأشهد عليه، وأمر باحضار القاضى، فأحضر مهانا، وأخذ المال منه، وأنيب ولده عنه فى الاحكام، ولزم داره فلم يخرج منها، ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفهها فأودعهم السجن، وخلع على من شهد له بالرشد.

وقد داوم أحمد بن طولون صاحب مصر النظر فى المظالم بكل عناية، «حتى استغنى الناس عن القاضى»، وحتى كان القاضى ربما نعس فى محله، ثم انصرف إلى منزله ولم يتقدم إليه أحد. ولم يكن فى مصر قاض فى ذلك العهد سبع سنين، فكان كل شىء يرد إليه إلى الناظر فى المظالم.

وكذلك كان كافور الاخشيدى الأسود يجلس للمظالم حتى «كان القاضي كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للمظالم».

وفى سنة ٣٦٩هـ - ٩٧٩م وقع نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضي، وذلك أن صاحب الشرطة حكم فى شيء ليس من اختصاصه، فأنكر القاضي حكمه، واعترض فيه، فوقع الوزير بأنه ليس لأحد الفريقين أن يعترض على الآخر فيما حكم به.

وفى حوالى سنة ٤٠٠هـ منع القاضي أصحاب الشرطة من التكلم فى الاحكام الشرعية، ثم أنهى الخليفة النزاع بأن أضاف للقاضي النظر فى المظالم.

وكانت الظلامات تقدم مكتوبة، وكان يحدث أحيانا حوالى عام ٣٢٠هـ - ٩٣٢م أن ترمى الرقعة فى ورق المظالم أمام القاضي فى المجلس.

وكانت الاحكام تصدر مكتوبة. وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبية المشهورة التى تؤثر لحسنها،وهى شبيهة بحواشى فريدريك الأكبر التى كان يكتبها على هامش مايرفع إليه.

وكان يخصص فى دار الخلافة يوم فى الأسبوع لسماع المظالم، وكذلك كان الحال من قبل فى العصر البوزنطى، ففى سنة ٤٩٦م كان حاكم الرها يجلس كل يوم جمعة فى الكنيسة للقضاء.

وفى عصر الخليفة المأمون مثلا خصص يوم الأحد للنظر فى المظالم.

وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين فى الأسبوع.

وكان الأخشيد يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء، وبعده كان كافور يجلس كل سبت، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد.

وأول من جلس من الخلفاء المهدى، وآخرهم المهتدى (٢٥٥-٢٥٦هـ = ٨٦٨ - ٨٦٩م). وكان المهتدى يجلس للمظالم وينظر فيما يرفعه إليه العام والخاص، وقد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم، وكان تقيا، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤم بهم. وكان اذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم فى الأروقة والمنازل عند تحرك البرد، فاذا جلس المتظلم أمر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب إلى عقله، ويتذكر حجته، ثم يدنيه، ويسمع منه، ويقول: متى يلحن المتظلم بحجته اذا لم يفعل به هذا، وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد؟.

وكان مما وعد به الخليفة القاهر، وهو يطلب الخلافة، أن يقعد للنظر فى المظالم بنفسه.

وفى عهد الخليفة المعتضد قام مقام الخليفة فى النظر فى مظالم العامة الوزير عبيد الله بن سليمان، وناب عنه القائد بدر فى النظر فى مظالم الخاصة، وكان يوم المظالم يوم الجمعة. ولكنا نجد الوزير فى أوائل القرن الرابع يجلس للمظالم يوم الثلاثاء، وكان أكثر الكتاب يحضر مجلسه.

وفى سنة ٣٠٦هـ-٩١٨م جلست للمظالم قهرمانة لأم المقتدر تسمى ثمل.

ولما كان النظر فى المظالم غيرمقيد بتدقيقات الفقهاء، فقد كان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى. وقد بين الماوردى بما له من قدرة على الاحصاء وبيان الفروق أن الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاء من عشرة أوجه: أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة بكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وانه يستعمل من

الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد مايصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وانه يستطيع رد الخصوم اذا أعضلوا إلى وساطة الأمناء، ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض، وليس للقاضى ذلك الا عند رضا الخصمين بالرد، وانه يجوز له احلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وانه يجوز له ان يتبدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعى احضار بينة، ولايسمعون البينة الا بعد سؤاله. ولكن هذا كله لايعدو الكلام النظرى، وكان يعمل فى كل بلد بحسب قانونها وعاداتها. وكانت الوسائل القديمة التى أثبتت التجربة قيمتها كالضرب مثلا منتشرة، وان كانت محرمة على القاضى[1].

(١) انظر، آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ح ١، ص ٣٠٠ - ٣٢٧.

الفصل الرابع

الحركات الفكرية

- الجبرية.
- القدرية.
- المعتزلة.
- الخوارج.
- الشيعة.

الحركات الفكرية

الشؤون الدينية فى الإسلام وثيقة الصلة بالاحداث السياسية. ولكن رغم اهتمام المسلمين بالأمور الدينية فقد وجهوا عنايتهم لكل ألوان الفكر المختلفة، وساهموا باخلاص فى المشاكل الأساسية التى انبعثت عن التأمل فى مصير الإنسان والاحاطة بالكون والوجود.

والحقيقة أن مفكرى الإسلام عندما عالجوا مسائل الفقه الراقية هذه كانوا متأثرين بالفلسفة والفكر اليونانى منذ ازدهار الحضارة العباسية فى بغداد. ولكن هذا لايعنى أن المسلمين عرفوا بالفلسفة والجدل فى أمور الدين منذ بداية الإسلام. فالجماعة الإسلامية الأولى، اكتفوا بطاعة الناموس الذى جاءهم باسم الله والسير على تعاليم الرسول ﷺ والاهتداء بهديه. وكان لهذه الجماعة ايمان قوى. ولكن بعد أن اتصلوا بأهل الامصار المفتوحة الذين عرفوا بكلفهم بالمنازعات الدينية بدأوا بدورهم يتأثرون بما كان يثيره أهل الديانات الأخرى حول مصير الإنسان وبداية العالم وفى ذلك يقول ابن خلدون: «أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم، وانما غلبت عليهم البداوة والأمية. فاذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولايعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب[1]».

ويبدو أن الجدل الذى أقام الكنيسة المسيحية وأقعدها وجد سبيله إلى الفكر الإسلامى حتى قبل أن يدخل أهل الذمة من المسيحيين إلى الدين

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٨٦ - ٧٨٧

الجديد ويصبحوا شطرا من الجماعة الإسلامية. ولابأس من ذلك فالقرآن جاء مكملا لما ورد فى التوراة والانجيل.

ومما ينبغى الاشارة إليه أن بعض الذين أسلموا من اليهود مثل: كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام «بقوا على ماكان عندهم مما لاتعلق له بالاحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل بدء الخليقة ومايرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم»[١].

شغل الفكر الإسلامى نفسه بأسمى وأرفع المسائل الخاصة بالمصير الإنسانى تلك المسائل التى أشار القرآن إلى كثير منها مثل مشكلة الجبر والاختيار.

والحقيقة أن المسلمين الأوائل أخذوا فكرة الجبر وحتمية المصير الإنسانى، وذلك أن مسألة القضاء والقدر لم تظهر الا على عهد الأمويين رغم أن القرآن يعالجها فى كثير من المناسبات وبأوجهها المختلفة. فهناك فكرة أن الله قرر مصير العباد وهناك فكرة العدل الالهى. ومع أن الجدل الذى قام بين المسلمين بصدد هذه المسائل قد يدعوا إلى التوهم فى وجود تضارب فى الفكر الإسلامى المبنى على النظر فى القرآن، فلا شك أن الحلول الكثيرة والغنية، التى توصل إليها مفكرو الإسلام فى القرن الأول الهجرى لكثير من هذه المسائل المتشابهة لمما يدعو إلى الاعجاب.

فعلى أيام الأمويين بدأ اختلاف المفكرين تبعا لاختلاف الآيات والأحاديث (المتشابهات). ولقد أيد أغلبهم فكرة القضاء التى تقول: «كل ميسر لما خلق له، وكل منتظر لما قدر له: من خلق للنعيم سيسير لليسرى ومن خلق للجحيم سيسير للعسرى. السعيد سعيد فى بطن أمه والشقى شقى فى

(١) ابن خلدون ، المقدمة، ص ٧٨٧.

بطن أمه، كل ذلك بقضائه وقدره»[1].

وهؤلاء استندوا إلى الآيات التى تؤيد هذا المعنى مثل: (سورة آل عمران). ﴿ وماكان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾، و(سورة التوبة آية ٥١:) ﴿ قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾، و(سورة يس ، أية ١١:) ﴿ انا نحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى امام مبين﴾، و(سورة الأنعام، آية ١٢٥:) ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾.

وأصحاب هذه الفكرة الأوائل عرفوا باسم **الجبرية**[2] من الجبروت وهو قوة الله القاهرة. ولكن لما كانت هناك فكرة العدل الالهى، اعتنقت قلة لابأس بها فكرة الاختيار أو حرية الارادة فى أفعال الإنسان، وأصحاب هذه الفكرة هم الذين سموا بالقدرية[3] من كلمة قدر التى ترد فى (سورة الأعلى آية ٣:) ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى ﴾ ، ومع أن كلمة القدر تأتى مصحوبة دائما بكلمة القضاء بمعنى المصير المحتوم

(١) أ.د سعد زغاول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٤٣ ، الشهر ستانى، الملل والنحل، هامش على كتاب الفصل فى الملل والاهواء والنحل، طبع بيروت، ح١، ص ٧٤.

(٢) انظر ، الشهر ستانى، ح ١ ، ص ١٠٨ حيث يقول: «الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد واضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلا ولاقدرة على الفعل أصلا، والجبرية المتوسطة أن يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة فأمامن أثبت للقدرة الحادثة أثرا مافى الفعل وسمى ذلك كسبا فليس بجبرى».

(٣) انظر، الشهر ستانى، الملل والنحل، ح١، ص ٥٤ الذى يقول: «وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى».

فان الحتمية فى هذه الآية تنصب على طريق الخير. فالخير اذن عند الله هو طاعة ما أمر به، والشر اذن من عند الناس والله لم يخلقه لهم، وأن سمح بوجوده بينهم.

«وجماعة القدرية هم أصل المعتزلة الذين اتخذوا الفلسفة اليونانية فى طريقة اقناعهم وجدلهم فخلقوا علم الكلام وأصبحوا أول المنطقيين فى الإسلام»[1].

ولماكان الأمويون قد أيدوا مذهب القضاء المحتوم، ربما لأنهم وصلوا إلى السلطة عن طريق الفتنة (الحرب أو القهر) كان من الطبيعي أن يقف المعتزلة منهم موقف المعارضة، مثلهم فى ذلك مثل الخوارج والشيعة. ولم يكن من الغريب أن يصبح الاعتزال مذهب الدولة العباسية الرسمى إلى خلافة المتوكل (٢٣٣هـ - ٨٧٤م) وعلى عكس مانادى به المعتزلة من الحرية وتحكيم العقل والمنطق ظهر مذهبهم وكأنه مذهب التسلط والاستبداد. فلقد دافعوا بعناد وتعصب شديدين عن أصول العقيدة من القرآن والسنة ولكنهم رفضوا ماكان يعتقده أهل السنة من قدم القرآن والسنة واستخدموا العنف والاضطهاد فى سبيل املاء أفكارهم.

المعتزلـــة:

الظاهر أن فرقة المعتزلة نشأت، مثل الفرق الأخرى ، كالخوارج والشيعة، نشأة سياسية، كرد فعل للفتنة الكبرى. فأصحاب الاعتزال الأوائل كان اعتزالهم سياسيا أى البعد عن الفتنة وعدم الانغماس فيها، وربما كان من هؤلاء الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص. وهنا يكون الاعتزال السياسى بمعنى موقف الحياد بين المتنازعين وهو أشبه بموقف الوسط الذى وقفه

(١) أ. د سعد زغلول، محاضرات فى الحضارة الإسلامية، ص ٤٥.

علماء المتعزلة من مرتكب الكبيرة.

وللمعتزلة خمسة أصول اعتقدوا فيها وهي:

١- القول بالتوحيد.

٢- القول بالعدل.

٣- القول بالوعد والوعيد.

٤- القول بالمنزلة بين المنزلتين.

٥- الامر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة وفى ذلك يقول المسعودى فى «مروج الذهب» عن الخليفة يزيد بن الوليد: «وكان يذهب إلى قول المعتزلة وماتذهب إليه فى الأصول الخمسة من التوحيد والعدل والوعد والوعيد والاسماء والاحكام، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين، والإمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1].

ا لتوحيـد:

هذا المبدأ من أهم مبادىء المعتزلة، لأنهم فسروه تفسيرا خاصا. وأن كان المسلمون جميعا يؤمنون بالتوحيد، وباعتقاد أن «لا إله إلا الله وحده لاشريك له».

والمعتزلة يعتقدون فى وحدانية الله المطلقة دون مانوية أو تجسيم، كما ينزهون الله عن الصفات : «فالله عز وجل لا كالأشياء، وانه ليس بجسم ولاعرض ولا عنصر ولاجزء ولاجوهر، بل هو الخالق للجسم والعرض

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، ح ٤، ص ٥٨.

وماذكرناه من الجزء والجوهر، وأن شيئا من الحواس لايدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وانه لايحصره المكان ولا تحويه الاقطار، بل هو الذى لم يزل ولازمان ولامكان ولانهاية ولاحد، وانه الخالق للأشياء المبتدع لها لامن شيء، وانه القديم،وأن ماسواه محدث[1].

العـــدل:

وهو الأصل الثانى من أصولهم، ويعرف المعتزلة بأنهم أهل العدل والتوحيد. والمسلمون جميعا يسلمون بعدل الله، ولكن المعتزلة تعمقوا في معنى العدل. فالعدل من صفات الله، والظلم والجور منفيان عنه، قال تعالى : ﴿ ومارىك بظلام للعبيد ﴾، وقال تعالى: ﴿ وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ لاظلم اليوم ﴾[2].

«وان الله لايحب الفساد ولايخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به ويجتنبون مانهوا عنه بالقدرة التى جعلها الله لهم وركبها فيهم، وانه لايأمر الا بما أراده ولم ينه الا عما كره، وانه ولى كل حسنة أمر بها برىء من كل سيئة نهى عنها، ولم يكلفهم مالا يطيقونه ولا أراد منهم مالا يقدرون عليه، وأن احدا لايقدر على قبض ولابسط الا بقدرة الله التى اعطاهم اياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيها اذا شاء ويبقيها اذا شاء، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارا عن معصيته ولكان على ذلك قادرا، غير انه لايفعل اذ كان ذلك رفع للمحنة وازالة للبلوى»[3].

---

(١) المسعودى، المصدر السابق، ص ٥٩.

(٢) انظر ، ابن حزم، الفصل فى الملل والاهواء والنحل،ط . بيروت ، ح ٣، ص ٩٨.

(٣) المسعودى، مروج الذهب، ح ٤، ص ٥٩.

أما مسألة الارادة - أعنى علاقة ارادة الله بالكائنات، فوجهة نظر المعتزلة فيها أنا نرى أن مريد الخير خير، ومريد الشر شرير، ومريد العدل عادل، ومريد الظلم ظالم، فلو كانت ارادة الله تتعلق بكل مافى العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين لله، فيكون المريد موصوفا بالخيرية والشرية والعدل والظلم، وذلك محال على الله، فهو يقول: ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾.

واذا فقد قالوا: أن الله أراد ماكان من الأعمال خيرا أن يكون، وماكان شرا ألا يكون، ومالم يكن خيرا وألا شرا فهو تعالى لايريده ولايكرهه.

وبعبارة أخرى: أن الله مريد ما أمر به من الطاعات أن يكون، فهو يريد منا أن نأتى بالصلاة والزكاة، وأن نوحد الله ونؤمن برسله، ويريد منا المعاصى فلايريد الكفر والفسوق والعصيان، أما المباحات فلا يريدها وألا يكرهها.

وكان خصومهم يرون فى هذه المسألة أن الله مريد لجميع ماكان، غير مريد لما لم يكن، فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. فالمعتزلة يقولون أن كفر الكافرين وعصيان العاصين لم يردهما الله، وخصومهم يقولون أرادهما[1].

يستدل المعتزلة بأن الله لو كان مريدا لكفر الكافر، ومعاصى العاصى، مانهاه عن الكفر والعصيان، وكيف يتصور أن يريد الله من أبى لهب أن يكفر ثم يأمره بالإيمان وينهاه، عن الكفر، ولو فعل هذا أحد من الخلق لكان سفيها، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ولو كان كفر الكافر وعصيان العاصى مرادين لله ما استحقا عقوبة، ولكان عملهما طاعة لارادته - قالوا - هذا إلى مافى القرآن من آيات كثيرة تدل على أنه لايريد مانهى عنه، قال تعالى: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، طبع بيروت، ح ٣، ص ٥١ - ٥٢.

شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾، وقال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾.

وحجة خصومهم أن كل مافي الكون من خير وشر محتاج إلى ارادة تريد حصوله، فكل حادث مراد، والشر والكفر والمعاصي حوادث موجودة واقعة فهي مرادة.

والواقع أن كل فرقة كانت أمام مشكلة عويصة حاولت أن تحلها من جانب فتعقدت من جانب، فاذا قلنا أن ارادة الله ومشيئته شاملة لكل ماحدث فكيف يشاء الشر؟ واذا قلنا أن ارادته لاتتوجه الا إلى الخير فكيف يقع في ملكه مالا يريد؟[1].

ومثل هذا الخلاف في ارادة الله، الخلاف في قدرته تعالى، وبعبارة أخرى في العلاقة بين قدرة الله وأعمال العباد: هل أعمال العباد مخلوقة لله، أو هي مخلوقة للعبد؟ وهذه هي المسألة التي تعنون عادة بخلق الأفعال فأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العباد مخلوقة لهم، ومن عملهم هم لامن عمل الله، وباختيارهم المحض، ففي قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها من غير دخل لارادة الله وقدرته، ودليل ذلك مايشعر به الإنسان من التفرقة بين الحركة الاختيارية والاضطرارية كحركة من أراد أن يحرك يده وحركة المرتعش، وكالفرق بين الصاعد إلى منارة والساقط منها، فالحركة الاختيارية مرادة من الإنسان مقدورة له، بخلاف الحركة الاضطرارية فلا دخل له فيها – وثانيا لو لم يكن الإنسان خالق أفعاله لبطل التكليف، اذ لو لم يكن قادرا على أن يفعل والا يفعل ماصح عقلا أن يقال له أفعل ولاتفعل، ولما كان هناك محل للمدح والذم،

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ – ٥٣.

والثواب والعقاب، بل ماكان لنبوة النبي واصلاح المصلح فائدة، كما استدلوا على مذهبهم بكثير من آيات القرآن، فهناك آيات تضيف الفعل إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾، ﴿ ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ، ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾.

وآيات تمدح المؤمن على الإيمان، وتذم الكافر على الكفر، كقوله تعالى: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾، ﴿ هل جزاء الاحسان الا الاحسان ﴾. وآيات تدل على أن أفعال الله ليست كأفعال المخلوقين من التفاوت والاختلاف، كقوله: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .وآيات فيها انكار وتوبيخ على الكفر والعصيان كقوله: ﴿ ومامنع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى .... الآية ﴾. ﴿فمالهم لايؤمنون ﴾، فما لهم عن التذكرة معرضين . وآيات أثبت فيها المشيئة: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾. وآيات أمر بها العباد بالاسراع إلى الطاعة قبل فواتها: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾. وآيات حكى فيها التحسر يوم القيامة على الكفر والمعصية : ﴿ قال رب أرجعون لعلي أعمل صالحا ﴾. أو تقول حين ترى العذاب ﴿ لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾.

وقالوا ثالثا: ان كان الله خلق أعمال الناس فهو اذا لايرضى عما فعل، ويغضب لما خلق، ويكره مادبر.

وكان لهم خصوم مختلفون، فأشد خصومهم من كان يذهب إلى الجبر المحض، ويرى أن أفعال الناس واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرة الناس تأثير فيها، وليس الإنسان الا محلا لما يجريه الله على يديه، فهو مجبر جبرا مطلقا، وهو والجماد سواء لايختلفان الا في المظهر، فمظهر الإنسان انه

يختار وحقيقته أن لااختيار، والجماد مجبر مظهرا وحقيقة، وتنسب الأفعال إلى الإنسان مجازا، فضرب فلان وكتب وأساء وأحسن كلها مجازات، كما يقال أثمرت الشجرة، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس، وأمطر السحاب. والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال جبر، والتكليف جبر، ولهم - كذلك - على قولهم أدلة كثيرة، قالوا: أن الإنسان أن كان موجدا لأفعاله، وخالقا لها وجب أن تكون هناك أفعال لاتجرى على مشيئة الله واختياره، ويكون هناك خالق غير الله، هذا إلى ماورد فى القرآن دالا على ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾، ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾، (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا)، ﴿ والله خلقكم وماتعلمون ﴾ الخ ..

الواقع أن هذه هى مشكلة المشاكل، سميت بالجبر والاختيار، وبحرية الارادة، وبالقضاء والقدر، وحار فيها الفلاسفة قديما وحديثا، فأثارها الفلاسفة اليونانيون قبل المعتزلة، وكان بعضهم يرى أن الارادة حرة فى الاختيار كالابيقوريين، وبعضهم كان يرى أنها مجبورة على السير فى طريق لايمكنها أن تتعداه كالرواقيين.

ولما جاء الإسلام وجاء دور البحث أثاروا هذه المسألة، فقال الجبريون وعلى رأسهم جهم بن صفوان: «أن الإنسان مجبور، وليست له ارادة حرة وألا قدرة على خلق أفعاله، وهو كالريشة بين يدى الأمواج، وأنما يخلق الله الأعمال على يديه». وقالت المعتزلة: أن ارادة الإنسان حرة، وقدرته تخلق مايعمل، وفى استطاعته أن يفعل وألا يفعل، وهو يفعل مايختار. والذى دعا إلى هذا الاختلاف بين المسلمين أن الأدلة العقلية متباينة، وظواهر النصوص مختلفة.

من ناحية نرى أن الله يطالب الناس بالعمل ويدعوهم إليه، ويأمر وينهى،

ويثيب على فعل ما أمر، ويعاقب على الاتيان بما نهى، ووضع الحدود والعقوبات، ووعد وأوعد، وساءل العصاة لم تعديتم ولم عصيتم ولم كفرتم، وقد أفسحت لكم مجال العمل، وأرسلت لكم الرسل، وأبنت الحجة، ثم ملئت نصوص الكتاب بذلك، فكيف يعقل بعد أن نقول أنه لا أثر لقدرة الإنسان أصلا، ولو لم تكن له قدرة لما كان معنى للطلب، ولما كان معنى للثواب والعقاب، ولكان التكليف تكليفا بالمحال، ولحق اعتراض المعترض بأنه لم يفعل مافعل حتى يستحق لوما أو عقابا.

ومن ناحية أخرى، اذا قلنا أن العبد خالق أعماله ترتب عليه تحديد قدرة الله وانها لم تشمل كل شيء، وأن العبد شريك لله تعالى في ايجاد مافي هذا العالم، والشيء الواحد لايمكن أن تتعاون عليه قدرتان، فان كانت قدرة الله هي التي خلقته فلا شأن للإنسان فيه، وأن كانت قدرة الإنسان هي التي خلقته فلا شأن فيه لقدرة الله، ولايمكن أن يكون بعضه بقدرة الله وبعضه بقدرة العبد، لأن الشيء الواحد - لابعض له - هذا إلى النصوص القرآنية الكثيرة الدالة على شمول ارادة الله وقدرته.

ففريق المعتزلة رجحوا الجانب الأول، ووقفوا موقف الدفاع عنه، وتأولوا النصوص التي ظاهرها مخالفته، وبذلوا في ذلك عناء كثيرا ومجهودا شاقا، وألجأهم إلى ذلك ماتصوروه من معنى العدل عند الله كما بينا.

وفريق الجبرية رجحوا الجانب الآخر، اذ كان شنيعا لديهم ان يحدوا من ارادة الله وقدرته، وتأولوا الآيات الدالة على قدرة العبد، وقالوا في مسألة التكليف والثواب والعقاب انها ليست خاضعة لتصورنا في العدل والظلم، فالعدل والظلم ونحوهما كلمات تطبق على الناس لا على الله، اذ لايسأل عما يفعل وهم يسألون.

الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.

وهما الاصلان الثالث والرابع من أصول المعتزلة.

وقول المعتزلة فيهما يقوم على تصورهم للإيمان، وتصورهم للعدل الالهى كما شرحوه وعلى قولهم فى أن العالم سائر لغرض يرمى إلى تحقيقه، على النحو الذى قلناه عنهم.

فالإيمان عند أكثرية المعتزلة ليس هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط، بل هو كذلك اداء الواجبات، فمن صدق بأن لا إله الا الله، وأن محمدا رسول الله من غير أن يؤدى الأعمال الواجبة لم يكن مؤمنا، فالإيمان معرفة بالقلب، واقرار باللسان، وعمل بالجوارح، وان كل عمل فرضا كان أو نفلا إيمان، وكلما ازداد الإنسان خيرا ازداد إيمانا، وكلما عصى نقص إيمانه[1].

وبرهنوا على ذلك بأدلة كثيرة منها قوله: ﴿ وماكان الله ليضيع ايمانكم ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس، لأن الآية نزلت بعد تحويل القبلة، وقد توهم بعض الناس أن الصلاة التى صلوها إلى بيت المقدس قد ضاعت، فسمى الصلاة إيمانا وهى عمل، ومن ذلك ماورد فى الحديث من مثل قوله ﷺ: «لايزنى الزانى وهومؤمن »، ومثل «لا إيمان لمن لا أمانة له». الخ[2].

ولقد كان للمعتزلة معارضون كثيرون فى تحديدهم للإيمان بهذا الشكل، فمنهم من رأى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط، ومنهم من ذهب إلى أنه «هو المعرفة بالقلب والاقرار باللسان معا فاذا عرف المرء الدين بقلبه وأقر بلسانه فهومسلم كامل الإيمان والإسلام وأن الأعمال لاتسمى

---

(١) انظر، ابن حزم، الفصل فى الملل والاهواء والنحل، ح ٣، ص ١٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٤.

إيمانا ولكنها شرائع الإيمان»[1].

وبعد تعريف المعتزلة للإيمان، قالوا: أن المعاصى التى يرتكبها الإنسان تنقسم إلى صغائر وإلى كبائر، واختلفوا فى تعريف الصغيرة والكبيرة، وأشهر أقوالهم أن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد، والصغيرة ما لم يأت فيها الوعيد، ثم قالوا أن الكبائر بعضها يصل من كبره إلى حد الكفر، فمن شبه الله بخلقه، أوجوره فى حكم، أو كذبه فى خبرة فقد كفر. وهناك كبائر أقل منها منزلة. وهذه الكبائر يسمى مرتكبها فاسقا، والفسق منزلة بين المنزلتين. لا كفر ولا إيمان، فالفاسق ليس مؤمنا ولا كافرا: بل هو فى منزلة بين المنزلتين.

ثم ربطوا الثواب والعقاب بالأعمال ربطا حتما، وغلا بعضهم فى التعبير فقال: «يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة اذا مات ولم يتب لايجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به .. ولأن الطاعات والأمر بها، والمعاصى والنهى عنها، وضعت لتحقيق غايات، فمن لم يطع فقد أخل بهذه الغايات فاستوجب العقاب، وهذا هو معنى أصلهم الذى وضعوه وعنونوه بالقول بالوعد والوعيد، يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصى قانون حتمى التزم الله تعالى به»[2].

كما قالوا أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ولو صدق بوحدانية الله وآمن برسله لقوله تعالى: ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيهما ﴾. الخ.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٨، أما عن تعريف الإيمان ففى ذلك يقول الشهرستانى، الملل والنحل، ح١، ص ٤٩: «وقال (يعنى جبريل عليه السلام للرسول) ما الإيمان: قال عليه السلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

(٢) انظر، الشهرستانى، الملل والنحل، ح١، ص ٥٥ - ٥٦، ص ٦، ٦١، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ح٣، ص ٦٣.

وقال مخالفوهم أن مرتكبوا الكبيرة من المؤمنين لايخلدون فى النار، لقوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾، ومرتكب الكبيرة قد عمل خيرا هو إيمانه، وشرا وهو كبيرته، فيعاقب على كبيرته، ثم يثاب على ايمانه.

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر:

وهو أصل اتفقت عليه الجماعة الإسلامية كلها «بلا خلاف من أحد منهم لقول الله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[1]. ولكنهم اختلفوا فى مدى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فذهب بعض أهل السنة من الصحابة رضى الله عنهم ومن التابعين أن وجود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكفى فيه القلب واللسان أن قدر عليه، ولايصح فيه استعمال «اليد ولاسل السيوف ووضع السلاح»[2]. وممن ذهب هذا المذهب سعد بن أبى وقاص، وأسامة بن زيد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة – وتبعهم فى هذا الإمام أحمد بن حنبل– من أجل هذا تراهم قد اعتزلوا الفتنة ولم يشتركوا فى القتال الذى دار بين على ومعاوية، عملا بمبدئهم هذا[3].

بينما رأى غيرهم أن سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب «اذا لم يمكن دفع المنكر الا بذلك»، فمن اعتقد الحق فى جانبه وجبت عليه نصرته، فان أدى اللين واللسان إلى تحقيق هذا الغرض كفى ذلك والا السيف وعلى هذا المبدأ سار على رضى الله عنه ومن قاتل

---

(١) انظر، ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، ج٤، ص ١٧٦.

(٢) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، ج ٤، ص ١٧٦.

(٣) المصدر السابق.

معه،وعائشة رضى الله عنها ومن قاتل معها، ومعاوية ومن قاتل معه.

وعلى هذا المبدأ سار المعتزلة والخوارج، فهم يرون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقلب أن كفى، وباللسان أن لم يكف القلب، وباليد اذا لم يغنيا، وبالسيف أن لم تكف اليد، لقوله تعالى: ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾.

ولقد كان تعصب المعتزلة، وخاصة موقفهم ازاء صفات الله، وعدم أخذهم بخلودها ولاسيما فيما يتعلق بكلام الله «وهذا المبدأ الذى يكون عنصرا ثانويا فحسب فى مناقشات المعتزلة، كان له أثر ملموس ومعين جذب أنظار الناس بصورة واضحة حتى أصبح هذا القول شعار المعتزلة»[1] .والمذهب الذى قبل حتى هذا الوقت كان يقول بأن كلام الله الذى فاض من أنواره لايمكن أن يكون الا أزليا كما أن الله أزلى وانه لايمكن أن يكون مخلوقا فى أية حال من الأحوال، ووضعت عدة حلول للتمييز بين القرآن نفسه من حيث انه كلام الله وبين تجسده المادى فى نسخ مكتوبة أو بشكل متلو على الألسنة - فى حين أكد المعتزلة أن القرآن خلق فى نفس الوقت الذى خلقت فيه الكائنات الأخرى على وجه الأرض. وكان هذا هو المذهب الرسمى الذى حاول الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) أن يفرضه بالقوة. وقد أخذ الخليفة يعرض للمحنة أفكار أولئك الذين كانت لهم أية مكانة بسبب مراكزهم المهنية أوبسبب نشاطهم العقلى. ووجهت المحنة فى زمن المأمون ضد معارضى المعتزلة وكل ذوى المكانة. وقد بدأ المأمون ذلك فى سنة ٢١٨ هـ فأرسل كتابا إلى والى بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب،

---

(١) انظر، ديمومبين، النظم الإسلامية، ص ٤١

احتفظ لنا بنصه الطبرى، فى «تاريخ الرسل والملوك»[1]. بدأ الخليفة كتابه بالكلام عن السبب الذى دفعه إلى حمل الناس على ذلك وهو أنه أمام المسلمين وخليفتهم واجب عليه حفظ الدين والاجتهاد فى اقامته والعمل بالحق فى الرعية وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لانظر له ولاروية ولااستدلال له بدلالة الله وهدايته ولااستضاء بنور العلم وبرهانه فى جميع الاقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده بالإيمان به.. وقصوروا أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم .. وذلك انهم يساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه (يعنى القرآن) قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه، وقد قال عز وجل فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ انا جعلناه قرآنا عربيا ﴾، فكل ماجعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾، وقال عز وجل: ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق ﴾، فأخبر انه قصص «لأمور أحدثها بعده وتلا به فتقدمها، فقال تعالى: ﴿ آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه، ثم هم الذين جادلوا فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم. ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم اظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك

---

(١) انظر، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبع دار المعارف، مصر، ج٨، ص ٦٣١ ومابعدها.

على الناس، وغروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين، إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم، تزينا بذلك عندهم، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم».

ثم ذكر أن هؤلاء قد قبلت شهادتهم،ونفذت أحكام الكتاب بهم، مع دغل فيهم، وفساد عقيدتهم.

«وأولئك شر الأمة، ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظا ... وأحق من يتهم فى صدقه، وتطرح شهادته، ولايوثق بقوله ولاعمله، فانه لاعمل الا بعد يقين، ولايقين الا بعد استكمال حقيقة الإسلام واخلاص التوحيد».

ثم قال: «فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق القرآن واحداثه، واعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لايوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ... فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث.. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله. كتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ»[1].

نستخلص من هذا الكتاب:

١ - أن المأمون كان يرى أنه واجبا عليه تصحيح عقائد الناس الفاسدة ولا

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٦٣١ - ٦٣٤

سيما اذا تغلغل الفساد إلى أصل من أصول الدين كالاشراك مع الله في القدم شيئا آخر مثل القرآن

٢-وأن كثيرا من عامة الناس كانوا يتكلمون في خلق القرآن ويرون أنه قديم، ولهم علماء ومتورعون يدعون إلى ذلك، وقد رد عليهم المأمون في كتابه بالحجج من القرآن

٣- وأن بعض القضاة كان على هذا الرأى من القول بقدم القرآن، وكان يقبل شهادة من يقول بقدمه، وقد يرد شهادة من يقوله بحدوثه

٤- وأن المأمون يرى أن القاضي أو الشاهد لايوثق بقضائه ولابشهادته اذا كانت عقيدته غير صحيحة، فمن اعتقد قدم القرآن قد ضعف توحيده، وساءت عقيدته، وصار لايؤتمن على شهادة ولاحكم، وكان مظنة أن يكذب في شهادته، وأن يظلم في حكمه.

٥- فهو لذلك لايريد أن يولى الاحكام ويزكى الشاهد الا اذا صح ايمانه وصح توحيده[١].

ثم كتب المأمون بعد ذلك - كما يورد الطبرى - إلى اسحق بن ابراهيم أيضا أن ينفذ (يرسل) إليه سبعة من كبار المحدثين وهم: محمد بن سعد كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هرون، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدروقي. وأغلب الظن أن هؤلاء كانوا من وجوه المحدثين في بغداد، فأشخصوا إليه، وامتحنهم عن القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأقروا بذلك فخلى سبيلهم[٢]

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٦٨ ١٦٩

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٦٣٧ ٦٤٤

وأصدر المأمون بعد ذلك كتابا ثالثا لاسحاق بن إبراهيم بامتحان القضاة والفقهاء أورد نصه أيضا الطبرى فى تاريخه.

فأحضر اسحق بن إبراهيم مشاهير العلماء وامتحنهم، ثم حرر محضرا بجميع أقوال الممتحنين وأرسلها إلى المأمون، فهاج وثارت ثائرته وكتب كتابا رابعا أرسله إلى اسحق فجمعهم اسحق ثانية وأعاد امتحانهم فاعترف بعضهم بخلق القرآن ولم يبق الا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فقد أصرا على قولهما «فشدا فى الحديد ووجها إلى طرسوس للمأمون، وكتب اسحق كتابا إلى المأمون يذكر فيه أن القوم الذين وافقوا لم يوافقوا عن عقيدة، وانما اجابوا عن تأويل، وقد تأولوا انهم مكرهون وليس على المكره حرج. فأرسل المأمون كتابا خامسا يبين فيه أن هؤلاء أخطأوا التأويل، وليست الآية: ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾، منطبقة عليهم، انما عنى الله بهذه الآية من كان معتقد مظهر الشرك، فأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليست الآية له. ثم أمر بإشخاص من رفض إليه فى طرسوس، فلما صاروا إلى الرقة بلغهم موت المأمون فرجعوا إلى بغداد[1].

وقد كتب المأمون فى وصيته للمعتصم: « وخذ بسيرة أخيك فى القرآن والإسلام»[2]. واستمرت المحنة على أيام خلفه الواثق الذى تعصب للقول بخلق القرآن، ثم مات الواثق فى سنة ٢٢٣هـ وبويع للمتوكل الذى أيد مذهب السنة تأييدا مطلقا واضطهد كل من عداهم من غير السنة. وانهار المعتزلة انهيارا تاما منذ منتصف القرن الثالث الهجرى، ومحاولة التوفيق بين العقل والنقل لم تنتشر بعد ذلك الا فى نطاق ضيق. الا أن فكر المعتزلة أثر فى

---

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٦٤٥

(٢) ابن الأثير، الكامل طبعة التجارية، ج٥، ص ٢٢٦

بعض العقول التى لم تكن راضية تماما عن أهل السنة المتنفذين فى الحكم من هذه العقول التى أثر فيها الاعتزال بقوة، الاشعرى وهو صاحب مبدأ التوفيق الذى قدر له منذ زمنه السيطرة على فلسفة الدين الرسمية فى الإسلام. ونشطت مدارس المعتزلة زمن البويهيين (القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى) فى العراق وفارس وخراسان.[1]

---

(١) انظر، ديموميين، النظم الإسلامية، ص ٤٢.

بعض مشاهير علماء المعتزلة

واصل بن عطاء الغزالي:

ينسب إليه نشأة جماعة المعتزلة (توفى سنة ١٣١هـ) وله رأى فى صاحب الكبيرة وفى ذلك يقول الشهر ستانى، فى «الملل والنحل»، «انه دخل واحد على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لاتضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا مع الإيمان، ولايضر مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة.. فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا، فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لامؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد (فى البصرة) يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة»[١]. وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد[٢]، وكان واصل مشهورا بالفضل والأدب عندهم[٣]. وكان كثير التأليف، فله كما يقول ابن النديم فى «الفهرست»، كتاب أصناف المرجئة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب الخطب فى التوحيد والعدل، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق[٤].

---

(١) انظر، الشهر ستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٤) ابن النديم، الفهرست، طبعة التجارية، ص ٢٥١.

أبو الهذيل العلاف:

شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والمناظر عليها كما يقول الشهرستاني، ولد في سنة ١٣٥هـ (أي على أيام خلافة السفاح)، ومات سنة ٢٣٥هـ[١] (في خلافة المتوكل)، وبلغ ذروته في أيام المأمون. فالرواية تقول: «وعقد (أي المأمون) المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات وكان أستاذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل العلاف»[٢].

ويعرف أصحابه (اتباع مذهبه) باسم «الهذيلية» وكان لأبي الهذيل آراء يتميز بها عن سائر المعتزلة من ذلك انكاره لصفات الله فهو يقول: «أن الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته، قادر بقدرة وقدرته ذاته، حي بحياة وحياته ذاته»[٣].

وهكذا يريد أن ليس شيء في الحقيقة غير الذات، وصفة العلم والقدرة ونحوهما ليست الا مظاهر لذاته، فمظاهر الخلق في نظرنا تدل على قدرته، فنقول اذا ذاك أنه قادر، وتدل على العلم، فتقول انه عالم، وفي الحقيقة لاشيء غير ذاته. «وقد قال الأشعري: « أن أبا الهذيل أخذ قوله من أرسطو، فان أرسطو قال في بعض كتبه: أن الباريء علم كله، قدرة كله، حياة كله، سمع كله، بصر كله، فحسن أبو الهذيل لفظة أرسطو وقال: علمه هو هو ، وقدرته هي هو»[٤].

وكان يرى أن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها

---

(١) الشهر ستاني، الملل والنحل، ح١، ص ٦٧.

(٢) انظر، الدينوري، الاخبار الطوال، طبعة القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٠١.

(٣) الشهر ستاني، المصدر السابق، ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) انظر، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ح ٣، وهو ينقل عن الأشعري.

كان صفة ذاتية للقبيح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجويز وقوع القبيح منه قبح أيضا، فيجب أن يكون مانعا - ففاعل العدل لايوصف بالقدرة على الظلم. وزاد أيضا على هذا الاختيار فقال انما يقدر على فعل مايعلم أن فيه صلاحا لعباده ولايقدر على أن يفعل لعباده فى الدنيا ماليس فيه صلاحهم. هذا فى تعلق قدرته على أن يزيد فى عذاب أهل النار شيئا، ولا على أن ينقص منه شيئا وكذلك لاينقص من نعيم أهل الجنة، ولا أن يخرج أحدا من أهل الجنة، وليس ذلك مقدورا له. وقد ألزم عليه أن يكون البارى تعالى مطبوعا مجبورا على مايفعله، فان القادر على الحقيقة من يتخير بين الفعل والترك..[1]»

ومن أقواله قوله فى الاجماع «انه ليس بحجة فى الشرع وكذلك القياس فى الاحكام الشرعية لايجوز أن يكون حجة»[2].

وله آراء أخرى مثل قوله : «لا إمامة الا بالنص والتعيين .. وقد نص النبى ﷺ على على كرم الله وجهه فى مواضع ما أظهره اظهارا لم يشتبه على الجماعة، الا أن عمر كتم ذلك وهو الذى تولى بيعة أى بكر رضى الله عنهما يوم السقيفة..[3]»

ثم وقع فى عثمان رضى الله عنه كما يقول الشهرستانى، وذكر احداثه من رده الحكم بن أمية إلى المدينة وهو طريد رسول الله ﷺ، وتقليده الوليد بن عتبة الكوفة وهو من أفسد الناس ومعاوية الشام .. وهم أفسدوا عليه أمره...[4].

(١) الشهر ستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.
(٢) الشهر ستانى، الملل والنحل، ج١، ص ٧٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢ - ٧٣.

بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع، وأن قصر في ذلك استوجب العقوبة، فيجب عليه الصدق والعدل والأعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لأن العقل يستطيع أن يدرك حسنها وقبحها لما فيها من صفات تجعلها حسنة أو قبيحة.

النظـــام:

كان متكلما شاعرا، قد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة[1].

وهو إبراهيم بن سيار بن هانى النظام البصرى، (وكان من الموالى) درس على العلاف وتتلمذ له فى الاعتزال، ثم كون مذهبا خاصا عرف به، ويعرف أصحابه باسم «النظامية» عاش بعض الوقت فى بغداد،ومات سنة ٢١١ هـ، وكان أستاذ الجاحظ.

ويذكر ابن النديم فى «الفهرست» انه حاول أن يدخل أبا نواس فى المذهب فكان يدعوه إلى القول بالوعيد وكان يعنفه لإبائه حتى قال فيه أبو نواس:

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة   حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
لاتحظر العفو أن كنت امرأ حرجا   فـان حظركـه بالدين ازدراء[2]

ومن مسائله التى انفرد بها قوله: «أن الله تعالى لايوصف بالقدرة على الشرور والمعاصى وليست هى مقدورة للبارى تعالى، خلافا لأصحابه فانهم قضوا بأنه قادر عليها لكنه لايفعلها لأنها قبيحة ومذهب النظام أن القبح اذا

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢ – الشهرستانى، الملل والنحل، ح١، ص ٦٧.
(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢.

كان صفة ذاتية للقبيح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجويز وقوع القبيح منه قبح أيضا، فيجب أن يكون مانعا - ففاعل العدل لايوصف بالقدرة على الظلم. وزاد أيضا على هذا الاختيار فقال انما يقدر على فعل مايعلم أن فيه صلاحا لعباده ولايقدر على أن يفعل لعباده فى الدنيا ماليس فيه صلاحهم. هذا فى تعلق قدرته على أن يزيد فى عذاب أهل النار شيئا، ولا على أن ينقص منه شيئا وكذلك لاينقص من نعيم أهل الجنة، ولا أن يخرج أحدا من أهل الجنة، وليس ذلك مقدورا له. وقد ألزم عليه أن يكون البارى تعالى مطبوعا مجبورا على مايفعله، فان القادر على الحقيقة من يتخير بين الفعل والترك..[1]»

ومن أقواله قوله فى الاجماع «انه ليس بحجة فى الشرع وكذلك القياس فى الاحكام الشرعية لايجوز أن يكون حجة»[2].

وله آراء أخرى مثل قوله : «لا إمامة الا بالنص والتعيين .. وقد نص النبى ﷺ على على كرم الله وجهه فى مواضع ما أظهره اظهارا لم يشتبه على الجماعة، الا أن عمر كتم ذلك وهو الذى تولى بيعة أبى بكر رضى الله عنهما يوم السقيفة..[3]»

ثم وقع فى عثمان رضى الله عنه كما يقول الشهرستانى، وذكر احداثه من رده الحكم بن أمية إلى المدينة وهو طريد رسول الله ﷺ، وتقليده الوليد بن عتبة الكوفة وهو من أفسد الناس ومعاوية الشام .. وهم أفسدوا عليه أمره...[4].

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل، ج١، ص ٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٢ - ٧٣.

وفيه يقول الجاحظ في كتاب الحيوان: «ولولا ابراهيم (يعنى النظام) لهلكت العوام من المعتزلة، فانى أقول انه قد أنهج لهم سبلا، وفتق لهم أمورا، واختصر أبوابها ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة»[1].

ثمامة بن أشرس:

هو تلميذ العلاف، وكان من جلة المتكلمين المعتزلة قربه الرشيد ثم سخط عليه فحبسه لما نقم على البرامكة (لاختصاصه بهم) ثم أنه بلغ من المأمون منزلة جليلة حتى رشحه للوزارة ولكنه امتنع وأشار عليه أن يستوزر أحمد بن أبى خالد بدلامنه.

وبلغت مكانة ثمامة من الخلافة إلى حد أنه كان لايقوم لطاهر بن الحسين وهو رجل الدولة العظيم آنئذ بينما كان يقوم للعلاف ويأخذ ركابه حتى ينزل وعندما يسأل الخليفة عن ذلك يقول: «أستاذى منذ ثلاثين سنة»[2].

الجاحظ:

كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم[3] ولكن تعصبه للمعتزلة جعل كتبه فى الاعتزال لم تصل الينا. فلم يبق لنا مثلا كتابه الموسوم باسم «الاعتزال وفضله على الفضيلة»، ولا كتابه فى «الاستطاعة وخلق الافعال»، و« خلق القرآن»، وكتاب «فضيلة المعتزلة»، وغيرها من كتبه الدينية.

وكما يقول الشهر ستانى: فقد انفرد عن أصحابه بقوله: «أن المعارف

(١) الجاحظ، كتاب الحيوان.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٣) الشهر ستانى، الملل والنحل، ج ١، ص ٩٤.

كلها ضرورية طباع، وليس شيء من دلك من أفعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الإرادة ويحصل أفعاله منه طباعا»[1].

وهذه المسألة جرى فيها الخلاف بين علماء الكلام فى عصر الجاحظ وبعده هل المعارف ضرورية أو نظرية؟ ويعنون بالضرورية أنها تحصل بلا اكتساب، وبلا نظر، وبأنها نظرية أنها تحصل بالاكتساب والنظر، فكان الفخر الرازى يرى كالجاحظ أنها ضرورية، وكان أمام الحرمين والغزالى يريان أنها نظرية، ويرى غيرهم أن بعضها ضرورى وبعضها نظرى، وفى ضوء هذا يمكننا تفسير رأى الجاحظ.

وقد جر المعتزلة إلى البحث عن هذا الموضوع مسألتان هما:

١- هل الإنسان يخلق أفعال نفسه أو يخلقها الله فيه؟

٢- والأفعال المتواردة من فعل، هل تنسب إلى الفاعل أو لاتنسب، فاذا رمى حجرا فى الماء فتولدت منه دائرة ودائرة ودائرة، هل تنسب إليه؟ واذا أشعل عودا فأحرق البيت، وتولد عن الاحراق موت أشخاص، وتولد من الموت أحداث، هل تنسب إلى من أشعل العود؟ وقد تقدم بحث هاتين المسألتين، فكان ثمامة بن أشرس، من أعلام المعتزلة يرى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها، فقد يفعل شخص فعلا، ويتولد بعد موته عنه أفعال، فلا يمكن نسبتها إلى الميت، واذا كانت قبيحة فلا يمكن نسبتها إلى الله لأنه لايفعل القبيح، فهى أفعال لافاعل لها، فيجب أن نقول ذلك فى كل المتولدات[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٤

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل، ح ١، ص ٩٠، أحمد أمين، ضحى الإسلام، ح٣، ص ١٣١ - ١٣٢

ويظهر أن الجاحظ كان يرى هذا الرأى فأداه إلى القول بأن المعارف ليست من فعل الإنسان، لأنها متولدة أما من اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر ولذلك قال أن الإنسان فى تحصيل معارفة ليس له إلا توجيه الإرادة، ومايحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة، فاذا أنت فتحت عينيك فأدركت أن هذا الشيء أحمر، وهذا أصفر، وأن هذا أكبر من ذاك، ففتحك لعينيك عمل ارادى اختيارى كسبى، وأما المعارف التى تحصل منه، أوبعبارة أخرى تتولد منه، فاضطرارية، وكذلك الشأن فى توجيه الفكر إلى البحث واستعراض البرهان، فتوجيه النظر عمل ارادى، ولكن اقتناع الناظر أو عدم اقتناعه وتحصيل العلم به عمل ضرورى أو اضطرارى لاكسبى.

ومعارف الإنسان معارف بطبعه، فهو يلتقم الثدى بطبعه، ويألم ويطرب بطبعه، فاذا نما عقله طبيعيا نمت معارفه طبيعية، فبدأ يدرك أن الكل أكبر من الجزء، وأن الجسم الواحد لايكون فى مكانين، وهو بطبعه يتطلب الفكر والنظر، وهو بطبعه يقبل ماصح لديه من برهان ويرفض مالم يصح عنده.

ومن قوله أيضا «يوصف البارى تعالى بأنه مريد بمعنى أنه لايصح عليه السهو فى أفعاله ولاالجهل ولايجوز أن يغلب ويقهر، وقال أن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبى وهم محجوبون بمعرفتهم. ثم هم صنفان: عالم بالتوحد وجاهل به، فالجاهل معذور والعالم محجوج ومن انتحل دين الإسلام فانه اعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولاصورة، ولايرى بالابصار، وهو عدل لايجور، ولايريد المعاصى. وبعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله فهو مسلم حقا. وأن عرف ذلك كله ثم حجده وأنكره أو دان بالتشبيه والجبر فهو مشرك كافر حقا، وأن لم ينظر فى شيء من ذلك واعتقد أن الله ربه وأن محمدا رسول الله فهو مؤمن لا لوم

عليه ولاتكليف عليه[1]

هذا ولقد كان للجاحظ أثره في الأدب، فقد أدخل أشكال القياس المنطقية في أساليب البلاغة وذلك في البديع المعروف بالقول الموجب والمثل لذلك رسالته إلى محمد بن عبد الملك الزيات التي يقول فيها: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضاء، المضادة توجب العداوة، خلاف الهوى يوجب الاستثقال ومتابعته توجب الألفة. الأمانة توجب الطمأنينة. الخيانة توجب المنافرة..الخ[2].

الخـــوارج

ظهرت فرقة الخوارج بعد موقعة صفين أى لأسباب سياسية.

وقد عرفت الجماعة الأولى التي خرجت على على رضى الله عنه أثر معركة صفين عند الكتاب باسم الحرورية (نسبة إلى حروراء من نواحي الكوفة وهو المكان الذى ظهروا فيه)[3]، كما عرفوا أيضا باسم الشراة (أى الذين اشتروا من الله أنفسهم بأن لهم الجنة) - خرجت على على لقبوله التحكيم ورفعت شعار «لاحكم الا لله ولهذه سموا أيضا بالمحكمة»[4].

وقد اجتمع الخوارج تحت قيادة عبد الله بن وهب الراسبي وهو أول من بويع بالإمامة[5]، ولحقوا بالمدائن فقتلوا عامل على رضى الله عنه عليها، واشتد على فى قتالهم وقتل عبد الله بن وهب الراسبي[6]. ولكنهم بايعوا إمام

---

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ح١، ص ٩٥ - ٩٦.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣.

(3) الشهر ستاني، المصدر السابق، ص ١٥٧.

(4) المصدر نفسه، ص ١٥٧، ١٦٠.

(5) الشهر ستاني، الملل والنحل، ح١، ص ١٥٩

(6) المسعودي، ح٣، ص ١٥٥ -١٥٧.

آخر وتجمعوا فى منطقة البصرة ومنها انتشروا فى بلاد العرب. وقد وقفوا ضد كل من على ومعاوية الا أن ما أثاروه من اضطراب وقلاقل كان سببا فى ضعف الحزب العلوى مما ساعد على انتصار الأمويين. كما كانوا بعد ذلك سببا لانتصار العباسيين على الأمويين. وقد جلبوا على أنفسهم نقمة الدولة، بسبب عنفهم، فجدت فى حربهم، والقضاء عليهم حتى يمكن القول أنهم اختفوا فعلا عن مسرح الاحداث من أواخر القرن الثانى الهجرى، الثامن الميلادى. هذا، مع بقاء جماعات منهم من الاباضية فى عمان وزنزبار والمغرب (فى طرابلس وتونس والجزائر).

ولقد قوى الخوارج بانضمام كثير من الموالى (أى من غير العرب). وقد جوزوا أن تكون الإمامة (الخلافة) فى غير قريش (عكس أهل السنة والشيعة) بمعنى أنهم أصحاب فكرة الحكومة الجمهورية التى يجوز أن يصل فيها إلى مركز الرياسة أى مسلم دون تفرقة عنصرية – طالما توفرت فيه شروط الأهلية – «فيجوز أن يكون عبدا أو حرا أو نبطيا أو قرشيا»[1]. وأن غير السيرة وحاد أو عدل عن الحق وجب عزله أو قتله[2]. وهم يبجلون ويجلون كلا من أبى بكر وعمر، بينما يقفون من عثمان موقفا وسطا فهم يعترفون بخلافته فى سنواتها الأولى وينكرونها فى سنواته الأخيرة. ولكنهم ينكرون خلافة على ومعاوية.

وقد انقسم الخوارج إلى فرق عديدة من أشهرها فرقة الأزارقة – أصحاب أبى راشد نافع بن الأزرق، وهم من غلاة الخوارج وأكثرهم تعصبا – وخرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز – فى أيام عبد الله بن الزبير – فغلبوا عليها وعلى كورها وماوراءها من بلدان فارس وكرمان. وهم يكفرون من ليس

---

(١) الشهرستانى، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨.

بفرقتهم من المسلمين. وهم لايجيبونهم اذا دعوهم إلى صلاة، ولايتزوجون منهم، ولايأكلون ذبائحهم. وقالوا عن بلادهم انها «دار حرب»: فيجوز قتالهم وقتل أطفالهم ونساءهم. وقد أسقط نافع حد الرجم عن الزانى، وأسقط حد القذف عن قذف المحصنين من الرجال مع وجود الحد على قاذف المحصنات من النساء. «ولكنهم قطعوا يد السارق من المنكب» . وهم يرون أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر كفر ملة خرج به عن الإسلام جملة ويكون مخلدا فى النار[1].

ولقد قويت شوكتهم فى جنوب فارس، ولكن قضى عليهم أواخر القرن الأول الهجرى (نهاية القرن السابع) بعد عدد من الحملات العنيفة.

أما الفرقة الثانية فهى الصفرية، اتباع زياد بن الأصفر، وهؤلاء اتخذوا موقفا وسطا بين الأزارقة والاباضية، فقبلوا وقف الحرب مؤقتا ضد غيرهم من المسلمين وأجازوا التقية (ستر العقيدة). فى القول دون العمل، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين[2].

وانتشروا فى أواخر أيام الدولة الأموية فى كل البلاد خاصة فى المغرب حيث عملوا مع الاباضية على اثارة المغاربة (البربر)، وألحقوا بالدولة هزائم منكرة، كما قتلتهم جيوش الخلافة قتلا ذريعا.

وسيندمج الصفرية فى جماعة الاباضية، والاباضية يمثلون الفريق المعتدل من الخوارج، وهم أصحاب عبد الله بن أباض التميمى الذى خرج فى أيام مروان بن محمد، فى جزيرة العرب، وعملوا بذلك على انتصار العباسيين.

---

(١) الشهرستانى، الملل والنحل ح١، ص ١٦٣ - ١٦٤، «وعن قطع يد السارق انظر، ابن حزم، الفصل فى الملل والاهواء والنحل، ح٤، ص ١٨٩ (ذكر شنع الخوارج)».

(٢) انظر، الشهرستانى، الملل والنحل، ح١، ص ١٨٤

ولما طردوا من الحرمين، ظلوا في عمان وانتشروا في بلاد زنزبار، والمغرب، حيث عملوا مع الصفرية على نشر مذهبهم بين البربر. فأقاموا الامارة الرستمية في تاهرت التي عاشت أكثر من ١٣٠ سنة إلى ظهور الفاطميين، فانسحب الخوارج إلى الصحراء ومازالت جماعاتهم في جربة، وجبل نفوسة، وخاصة في بلاد الزاب وهم على اتصال بجماعات الخوارج في عمان وزنزبار.

ويعتبر الاباضية آخر بقايا الجماعات الخارجية التي اشتد الحجاج وقواده في قتالها. ولا بأس من الاشارة إلى أن الحركة الخارجية لم تكن ضد التطور والازدهار الفكري، فعلى عهد الدولة العباسية ظهر كثير من علمائهم وأدبائهم، كما كان لهم شعراء وخطباء.

أما عن تعاليم الخوارج فهي لم تدون ولم تقنن مما جعلها عرضة للتحوير والتغيير، الا أنها كانت ذات أثر واضح في تقدم الفكر الديني عند المسلمين بعد أن وثقت علاقاتها بالمعتزلة واستخدمت أساليبهم في الكلام.

وقد ظهر الخوارج بمظهر المحافظين على الشرع الذين يرغبون في العودة بالمجتمع الإسلامي إلى وحدته الأولى، وبالإسلام إلى نقائه الأول. والقرآن بالنسبة لهم هو كلام الله الأزلي غير المخلوق، وهو يحتوي على كل علم، وينبغي أن يفسر حرفيا. وقد وصفوا بأنهم أهل صيام وصلاة، وهم لايقرون وجود العقيدة اذا لم تصحبها الأعمال التي تثبتها، فالشخص الذي يرتكب معصية كبيرة ليس بمؤمن بل وينبغي في رأى المتطرفين منهم عزله عن الجماعة الإسلامية، بل وقتله هو وعائلته.

الشيعة

الشيعة لغة هم الاصحاب والاتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين

من الحلف والسلف على اتباع على وبنيه رضى الله عنهم[1].

وأصول الشيعة الرئيسية سياسية: والخلفاء الثلاثة الأول غير شرعيين، أما عن الأمويين والعباسيين فانهم مغتصبون. فالأساس الشيعى فى السياسة هو فكرة «الشرعية» فعلى رضى الله عنه «إمام مفترض الطاعة بعد رسول الله ﷺ وآله واجب على الناس القبول منه والأخذ، ولايجوز غيره، الذى وضع عنده النبى ﷺ وآله من العلم مايحتاج إليه الناس من الدين والحلال والحرام، وجميع منافع دينهم ودنياهم.. وجميع العلوم جليلها ودقيقها واستودعه ذلك كله، ولذا استحق الإمامة، لعصمته وطهارة مولده وسابقته وعلمه وزهده وعدالته فى رعيته، وأن النبى ﷺ نص عليه، وقلد الأمة إمامته، وعقد له عليهم إمرة المؤمنين وجعله أولى الناس منهم بأنفسهم فى مواطن كثيرة»[2]. وقد أوصى النبى صراحة أمام جمع من صحابته بخلافته إلى على، وذلك فى غدير خم أثناء حجة الوداع، فيقولون: أن النبى خطب الناس فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ! قالوا بلى يارسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله». ويحتفل الشيعة بذكرى هذا اليوم، ويسمونه عيد الغدير[3].

وفى نظر الشيعة يعتبر على وسلالته الاثنا عشر هم الخلفاء حقيقة أو الأئمة بوجه أصح، اذ الإمام عندهم وريث النبى ﷺ.ويتم تعيينه بطريق إلهى بفضل وصية سرية تنتقل منذ آدم من إمام إلى آخر: اذ انتقل النور الألهى

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٨.

(٢) النوبختى، فرق الشيعة، طبع النجف، سنة ١٩٣٦، ص ١٨-١٩ - الشهر ستانى، الملل والنحل، ح١، ص ١٩٥.

(٣) انظر، الشهر ستانى، ح١، ص ٢٢٠ حيث نص الحديث: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه»

الذى حل فى آدم والأنبياء من بعده واحدا بعد آخر حل كذلك فى آباء محمد وعلى وانتقل إليهما وإلى ذريتهما من بعد، وبالتالى فقد تجلى هذا النور نفسه فى أبناء على من غير فاطمة أيضا، وهم جميعا من «أهل البيت»[1].

وكما يقول الشيعة فان الأئمة الاثنا عشر معصومون، وأن لكل واحد منهم آياته وكل منهم عندما يحس بالموت يوصى لأخر ليخلفه كإمام، وذلك إلى أن نصل إلى الحسن بن على العسكرى فان هذا يعهد بالإمامة إلى ابنه محمد ويعلن أنه المهدى وأنه سيد الزمان. وولد محمد بن الحسن بسامرا سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م، ويقال انه اختفى هناك فى سرداب بدارهم وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا، يشيرون بذلك إلى الحديث الواقع فى كتاب الترمذى فى المهدى، وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك[2].

ووجود الإمام ضرورى لكل زمان. وظل التشيع على عهد العباسيين، كما كان على عهد الأمويين حزب المعارضة ضد عدم شرعية الحكم. وأضبح للتشيع حياة مستترة عملت بين أتباعه على ظهور الميل إلى ستر أو عدم الكشف عن معتقداته، والأخذ بمبدأ (التقية) ورغم أن التقية أو الكتمان معروف لدى أهل السنة والخوارج الا أنه سيصبح من أهم مميزات فرق الشيعة الغلاة.

والزيدية هم أكثر الشيعة اعتدالا وأقربهم إلى أهل السنة، وقد أسسوا فى اليمن إمامة مستقلة.

---

(١) ديموبين، النظم الإسلامية، ص ٤٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٢.

والزيدية نسبة إلى زيد بن على زين العابدين حفيد الحسين الذى قتله الأمويون سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م، وهم يعترفون بشرعية خلافة أبى بكر وعمر فيقولون بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. وهم ينكرون زواج المتعة (الزواج المؤقت) كماينكرون فكرة حلول روح الله فى الإمام ولاينتظرون عودة الإمام الغائب، فمن رأيهم أنه منذ موت الإمام زيد ينبغى أن تكون الخلافة انتخابية وليست وراثية[١].

وعلى عكس ذلك فان الامامية وهم أغلبية الشيعة يجعلون فى رجعة الإمام المستتر أصلا من أصول العقيدة. فالإمام الثانى عشر وهو محمد ينبغى أن يعود فى الوقت المناسب وأنه المهدى. وسيصبح التشيع فيما بعد المذهب الرسمى لإيران. وانتصر التشيع بدخول البويهيين بغداد. وعلى أيامهم ألفت مجموعات الأحاديث الشيعية التى تعادل مجموعات أهل السنة.

والإمام عند الزيدية يتمتع بالتوجيه الألهى، بمعنى أنه يتقلد سلطانه من الله، ولكن الإمامية يعتبرون أن الإمام يحمل شيئا من نور الله أى أنه متأثر بحلول جزئى يعطيه شيئا من القدسية. أما الغلاة ففى نظرهم أن هذا الحلول تام. فالله يتحد بالإمام اتحادا أساسيا حتى أن الصفة الالهية تغلب على الصفة الإنسانية لدى الإمام[٢].

وفكرة عودة الإمام هى التى تمخضت عن الحركات المهدية التى عرفت فى تاريخ الإسلام. ففكرة المهدى الذى يملأ الأرض عدلا قبل آخر الزمان ظهرت فى وقت متأخر بعض الشىء.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٣٥٠ (عن الزيدية) وكان ينص عليه (أى زيد) مذاهب المعتزلة وأخذه اياها عن واصل بن عطاء، عن جواز امامة المفضول، انظر ابن حزم، الفصل فى الاهواء والنحل، ج٤، ص ١٦٤ ، والشهرستانى، ج١، ص ٢٠٩، وعن الزيدية ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥١.

ويمكن القول أن التشيع أحسن استغلال فكرة المهدى. فعلى لدى الشيعة الغلاة يتحول إلى إله يتحكم فى السحاب فالرعد صوته والبرق سوطه وهكذا يصبح المهدى شيئا فشيئا أحد أفراد بيت على. أى يصبح الإمام الغائب أو سليل فاطمة (الفاطمى) المنتظر. استفاد عبيد الله المهدى من هذه التقاليد الشيعية واستطاع أن يؤسس الدولة الفاطمية فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ العشر الميلادى. وبعد قرنين ظهر مهدى آخر هو محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين وهى الدولة السنية وأن قبلت فكرة المهدى[١].

ويذكر أبن خلدون أن أهل الحلة كانوا يقفون كل ليلة بعد صلاة المغرب

بباب السرداب، الذى اختفى فيه محمد بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر الملقب بالمهدى، وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم، ثم ينفضون، ويرجئون الأمر إلى الليلة التالية وهم على ذلك لهذا العهد[٢]. (أى عندما كان يكتب ابن خلدون فى نهاية القرن الثامن الهجرى).

القرامطة والاسماعيلية:

فرقة الاسماعيلية وهم من غلاة الشيعة ، ويطلق عليهم أيضا اسم «الواقفة» لأنهم يوقفون سلسلة أئمتهم عند الإمام السابع، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق، الذى يختم قائمة الأئمة الشرعيين، وإليه ينتسبون فهم الإسماعيلية. أما عن سبب توقفهم عند الإمام السابع وانكارهم الأئمة الخمس الباقين هو أنه حوالى سنة ١٤٣هـ / ٧٦٠م وجد الإمام السادس وهو

---

(١) كلمة المهدى اسم مفعول من هدى، يقال هداه الطريق أى عرفه ودله عليه وبينه له فهو مهدى، ووردت فى القرآن كلمة المهتدى : «من يهده الله فهو المهتد».

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٢.

جعفر الصادق أن ابنه الأكبر إسماعيل غير جدير بالإمامة فخلعه وأحل محله ابنه الأصغر موسى الكاظم. وأنكرت الإسماعيلية موت إسماعيل فى حياة أبيه «وقالوا لم يمت إلا أنه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس وعقد محضرا وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة»[1].

وفى رواية أخرى «قالوا كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس لانه خاف فغيبه عنهم، وزعموا أن اسماعيل لايموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس»[2].

ورغم ذيوع خبر موته فانهم ظلوا مخلصين له، ونشر أحفاده الذين انتشروا فى فارس والشام مذهبه بفضل الدعاة[3] وقد نصوا على أن الإمام بعد اسماعيل هو ابنه محمد بن إسماعيل «السابع التام وإنما تم دور السبعة به ثم ابتدأ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون في البلاد ويظهرون الدعاة جهرا «وقالوا لن تخلو الأرض قط من إمام حى قاهر إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور، وقالوا اذا كان الإمام مستورا فلابد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين[4].

ومن تعاليمهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية[5].

وظل نشاط هذه الفرقة دينيا طوال قرن تقريبا، ولكن بعض الدعاة تمكن من توجيهه نحو أغراض سياسية واجتماعية. وتمكن الداعى حمدان بن

---

(١) انظر، الشهر ستانى، الملل والنحل، ح٢، ص ٥، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) النوبختى، فرق الشيعة، ص ٦٧.

(٣) انظر، ديموميين، النظم الإسلامية.

(٤) الشهر ستانى، الملل والنحل، ح٢، ص ٢٨.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٩.

الأشعث المعروف بقرمط من أن يجمع حوله عناصر من العمال والفلاحين في أسفل العراق، ممن كانوا قد اشتركوا في حرب الزنج، واكتسبهم إلى جانب الإمام المستور حتى يرضى ميولهم نحو المساواة – التي طالبوا بها – ونظمهم في طبقات من أصحاب المعرفة.

والعقيدة القرمطية الخاصة باكتساب النور والمستقاة من الهلينية والمجوسية هي التي تقرر بنية الفرقة، تلك البنية المتكونة من عقائد وفرائض عملية تتدرج من أبسط العقائد والفرائض التي يعتنقها مسلم بسيط وترتفع إلى مستوى عال من الادراك المباشر للوحدة الالهية، ذلك الادراك الذي ينكر فكرة الواجبات الدينية.

هكذا تجمع القرمطية بتنوعها بين الفلسفة في أعلى قمتها وبين أبسط مظاهر الشيعة المتطرفة في أساسها[1].

وانتشرت حركة القرامطة من العراق إلى جزيرة العرب، وقاموا بأعمال تخريبية متطرفة من ذلك حملة أبي ظاهر سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م، على مكة واستيلائه على الحجر الأسود الذي لم يعد إلى مكانه حتى سنة ٣٤٠هـ/ ٩٣٠م وبفضل وساطة الخليفة الفاطمي[2].

وقد أثار داع آخر، هو أبو عبد الله الشيعي الصنعاني، حماس المغاربة (البربر) للإمام المهدي في إفريقية حيث قامت الدولة الفاطمية. وانتقل الفواطم إلى مصر حيث أصبحت الاسماعيلية المذهب الرسمي لمدة قرنين.

والظاهر أن القرامطة استخدموا مذهب الإمام المستور من أجل الثروة الاجتماعية، ولكن الفاطميين رفضوا هذه الاشتراكية واستخدموا الدعاية

(١) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص ٤٨.

(٢) انظر، ابن الأثير، الكامل.

القرمطية ومذهب الإمام المستور لتحقيق أهدافهم السياسية.

وشرعية الفاطميين كانت محل نقد المؤرخين[١]. فبينما يقول الإمامية بتوارث الإمامة بالوصية من إمام إلى إمام وجدنا أن الزيدية رأوا أن الإمامة تجوز أن تكون لأى علوى. أما الإسماعيلية فاحتجوا ويرون أن الإمامة عهد اجبارى يعطى للمختار من بين العارفين بالعلم الالهى عن طريق استنارة العقل، أى الذى خصته العناية الالهية بالنورانية.

أصبحت مسألة الشرعية ثانوية لدى الفاطميين الذين أعلنوا أنفسهم أئمة واستفادوا من نظرية الحلول إلى أن أصبح الحاكم منهم إلها كما يرى البعض.

ولقد اصطدمت فكرة تالية الحاكم منذ ظهورها فى الشام بمذهب كان هناك منذ عهد قريب، هو مذهب النصيرية[٢] فى شمال الشام. كما اصطدموا بفرق على إلهى الذين يقولون أن عليا أزلى فى طبيعته الالهية رغم أنه الإمام ظاهريا. «وهو الذى يجىء فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه، وانه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا».

وهكذا كانت تزداد الشقة بين النصيرية وبين أهل السنة.

---

(١) انظر، ابن خلدون، المقدمة (فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها) ص ٣٢ - ٣٥.

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل، ج٢، ص ٢٤، والنصيرية من غلاة الشيعة ومن أقوالهم «أن ظهور الروحانى بالجسد الجسمانى أمر لاينكره عاقل أما فى جانب الخير كظهور جبريل عليه السلام ببعض الأشخاص والتصور وإما فى جانب الشر كظهور الشيطان بصورة الإنسان حتى يعمل الشر بصورته. فلذلك نقول أن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص ولما لم يكن بعد رسول الله ﷺ شخص أفضل من على عليه السلام وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية فظهر الحق بصورتهم، ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم ومن هذا أطلقنا اسم الالهية عليهم».

أما عن تطور الإسماعيلية فبعد غياب الحاكم، ظل مذهب الاسماعيلية المذهب الرسمى فى مصر إلى أن انتهت دولة الفواطم على يد صلاح الدين الذى أعاد السنة. ولكن على عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وصل إلى مصر اسماعيلى فارسى هو الحسن بن الصباح، وقد حدث حدث يشبه اعلان عدم صلاحية اسماعيل إمام الاسماعيلية اذ عين الخليفة المستنصر كوريث له ابنه الأصغر (المستعلى) على حساب الابن الأكبر وهو نزار. واتخذ الحسن الصباح لأسباب سياسية جانب الابن الأكبر نزار فطرد من مصر. واستمر الحسن الصباح فى دعايته لنزار فى الشام - (منطقة حلب) ثم فى فارس حيث تمكن بمساعدة أتباعه من الاستيلاء على قلعة الموت وجعلها مقرا لقيادته (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠م)، واستولى على قلاع أخرى واخضع اتباعه خضوعا أعمى، وأضاف إلى تأثيره الشخصى على أتباعه اعطائهم بمخدر الحشيش وإليه نسب الحشاشون. وكان الحشيش يؤثر فيهم تأثيرا مدهشا يجعلهم يتصورون انهم فى الجنة.

واستغل الحسن بن الصباح ذلك فى دفعهم إلى اغتيال الامراء وكبار الشخصيات الذين يناوئونه. واستغل الحسن فرصة الاضطرابات التى أثارها مجىء الصليبيين وأنشأ رغم ارادة سلاطين السلاجقة امارة مستقلة استمرت بفضل الارهاب تحت سيطرة ثمانية من زعماء الحشاشين. ورغم أن الحسن الصباح أعلن نيابته عن الإمام الفاطمى فى مصر فانه كان السيد المطلق لأتباعه وذلك إلى أن توفى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م.

ولكن الرابع من خلفائه من زعماء الموت ذهب إلى أبعد من ذلك فأحدث تجديدا مفاجئا فأعلن نفسه حفيدا لنزار، وهو ابن الخليفة المستنصر. وكان معنى ذلك الخروج على طاعة الخليفة الفاطمى، اذ انه صار هو نفسه

إمام الإسماعيلية. ولم يقتصر سلطان شيخ الموت على قلاع فارس فقط، بل شمل قلاع الشام أيضا التى استولى عليها دعاته مثل: سلمية وبانياس منتهزين الاضطرابات السياسية ومعتمدين على عون النصارى. وأصبح شيخ الجبل فى الشام نائبا لشيخ الموت الأكبر.

وبعد نصف قرن قام أحد هؤلاء النواب فى الشام بخلع طاعة شيخ الموت. واستخدم نفس سياسة الاغتيال الخفى وأرغم الصليبيين وصلاح الدين على مداراته.

ولقد قضت غزوة المغول بقيادة هولاكو (سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) على قوة الإسماعيلية فى فارس. أما عن إسماعيلية الشام الذين أخضعهم سلاطين المماليك بعد ذلك فانهم عاشوا عيشة خاملة. وتوجد الآن منهم جماعات فى فارس وآسية الوسطى وأفغانستان وعمان وزنزبار. على أن الإسماعيلية يحتفظون بقوتهم فى الهند اقتصاديا أن لم يكن دينيا، ورئيسهم من سلالة آخر شيخ الموت[1].

أشهر متكلمى الشيعة

هشام بن الحكم:

يظهر انه أكبر شخصية شيعية فى علم الكلام، وهومولى لبنى شيبان، وكان من تلاميذ الإمام جعفر الصادق، «وجلة أصحابه». نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد، ونال الحظوة عند البرامكة، وكان قوى الحجة، ناظر المعتزلة وناظروه[2].

---

(١) انظر، ديموبين، النظم الإسلامية، ص ٤٨

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٧.

قال عنه ابن النديم، فى «الفهرست» انه هو الذى فتق الكلام فى الإمام وهذب المذهب. وله كتاب الإمامة، كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول، كتاب الوصية والرد على من أنكرها، كتاب الرد على الزنادقة، كتاب الرد على أصحاب الاثنين، كتاب التوحيد، كتاب فى الجبر والقدر، كتاب المعتزلة[1].

أبو جعفر محمد بن النعمان (شيطان الطاق):

وهو من أصحاب جعفر الصادق، معروف بشيطان الطاق، والشيعة مؤمن الطاق(نسبة إلى طاق المحامل بالكوفة حيث نزل) وله مناظرات مع زيد بن زين العابدين فى إمامة جعفر الصادق، وله مناظرات مع أبى حنيفة فى الغيبة والرجعة وزواج المتعة وشرب النبيذ، وله كتاب الإمامة، وكتاب الرد على المعتزلة فى إمامة المفضول[2].

على بن اسماعيل بن ميثم التمار:

يعد أول من تكلم فى الإمامة حسب قول ابن النديم، وله كتاب الإمامة وكتاب الاستحقاق[3].

أبو سهل النوبختى:

وهو إسماعيل بن على بن نوبخت، وكان من كبار الشيعة وهو صاحب نظرية فى الغيبة اذ كان يقول: أنا أقول أن الإمام محمد بن الحسن (العسكرى) ولكنه مات فى الغيبة، وكان تلاه فى الغيبة ابنه وكذلك فيما

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٧، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٤،٢٥٨

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٣

بعد من ولده إلى أن ينفذ الله حكمه فى اظهاره. بمعنى أن الرجعة لن تكون لمحمد بن الحسن (الإمام الثانى عشر) بل لإمام من نسله.

ومن كتب النوبختى: كتاب الاستيفاء فى الإمامة، وكتاب الرد على الغلاة، كتاب نقض رسالة الشافعى، كتاب حدوث العالم، كتاب الرد على أصحاب الصفات، كتاب إبطال القياس[1].

الحسن بن موسى النوبختى:

وهو ابن أخت أبى سهل، عرف بأنه متكلم فيلسوف «كانت المعتزلة تدعيه والشيعة تدعيه»، ويرجح ابن النديم انه إلى حيز الشيعة أقرب، لأن آل نوبخت معروفون بولاية على وولده. وللحسن «الرد على أصحاب التناسخ»، كتاب التوحيد وحدث العلل، كتاب اختصار الكون والفساد الارسطاليسى، كتاب الإمامة ولم يتمه[2].

هذا عن متكلمى الإمامية.

أما عن متكلمى الزيدية وهم الذين قالوا بإمامة زيد بن على زين العابدين ثم قالوا بعده بالإمامة فى ولد فاطمة كائنا من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة. ويذكر ابن النديم أن أكثر المحدثين على هذا المذهب مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثورى وصالح بن حى وغيرهم[3].

أبو الجارود:

زياد بن المنذر العبدى من أشهرهم.

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٧

الحسن بن صالح بن حى (مات مختفيا سنة ١٦٨هـ) وكان من كبار الزيدية وله: كتاب التوحيد، وكتاب أمة ولد محمد[١].

متكلمى الإسماعيلية:

عبـــدان:

يعد عبدان كما يقول ابن النديم أكثر الإسماعيلية كتبا وتصنيفا حتى أن كل من عمل كتابا نحله اياه فأصبح له فهرست منه: كتاب الرحاء والدولاب، وكتاب الحدود والاسناد وكتاب اللامع[٢].

النسفـــى:

الذى كان من دعاة خراسان، وله كتاب عنوان الدين، كتاب أصول الشرع وكتاب الدعوة المنجية.

ولقد صنف بنو حماد المواصلة – أصحاب الدعوة بالجزيرة – كتبا وأضافوها إلى عبدان مثل كتاب الحق المنير، وكتاب الحق المبين[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨١ – ٢٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٢.

القسم الثاني
جوانب حضارية من سودان المغرب[1]

(١) هذا القسم يتضمن الباب الأول والثانى من رسالتى للماجستير الموسومة باسم «انتشار الإسلام فى السودان الغربى من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجرى».

المقدمـــة

في هدف البحث ومصادره

- هدف البحث.
- التعريف بالمصادر.

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾

(قرآن كريم. سورة آل عمران، آية ٨٥)

المقدمـــة

فى هدف البحث ومصادره

يتناول البحث الذى يقوم فى هذه الرسالة الإسلام فى السودان الغربى الذى كان يشمل غانة ومالى وكوكوا والذى يعادل حاليا جمهورية مالى من القرن الخامس الهجرى إلى القرن التاسع الهجرى.

والغرض من هذه الدراسة هو تتبع انتشار الإسلام فى بلاد السودان.

وأول الظواهر التى تسترعى الانتباه انه على عكس انتشار الإسلام فى معظم انحاء المشرق والمغرب وراء الجيوش الإسلامية، فان الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل التجار التى كانت تتردد مابين المغرب والسودان.

وإلى جانب التجارة دخل الإسلام من طريق التبشير، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الاباضية الذين عملوا على نشر الإسلام والعمل على توطيد أركانه فى هذه البلاد النائية التى كانت تعتبر آخر المعمور من الأرض.

وكانت المدن التجارية مثل غانة ومالى وجنى وكوكوا وتنبكت، أهم المراكز الإسلامية لأن موقع هذه المدن الجغرافية هيأ لها فرصة اتصال أكبر بالعالم الخارجى.

وتوغل الإسلام فى قلب بلاد السودان مع مطلع القرن الخامس الهجرى وبفضل قبائل صنهاجة أصحاب اللثام (المرابطين). فبعد أن تم الاتحاد السياسى بينهم بدأ جهادهم الفعلى، وكان هدفهم الأول منه هو غزو بلاد السودان وادخال امه الوثنية فى الإسلام. وقام عبد الله بن ياسين وتلامذته بدعاية دينية حية بين السود القاطنين حينذاك على ضفة السنغال، وكذلك

الشعوب النيجيرية. ومع ذلك كما يقول دلافوس Delafosse فينبغى الا نغالى فى أهمية ادخال السود إلى الإسلام عن طريق المرابطين ولا أن نقول كما فعلوا فى بعض الأحيان أن هؤلاء قد ادخلوا كل السودان فى الإسلام.

والجدير بالملاحظة أنه اذا كانت بلاد السودان الغربية قد عرفت الإسلام منذ وقت مبكر، فان السودان الشرقى والنوبة – رغم أنهما وثيقتا الصلة بمصر من الناحية الجغرافية – على عكس ذلك لم يظهر فيها الإسلام إلا فى وقت متأخر فى أوائل القرن الثامن الهجرى – (انظر، ابن خلدون، العبر، جـ ٥، ص ٤٢٩ عن «أخبار النوبة واسلامهم»، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٧٧). والفضل فى ذلك يرجع إلى بلاد المغرب، ونتيجته أن التأثير المغربى واضح فى بلاد السودان الغربية فكانت «كتابتهم بالخط المغربى على طريقة المغاربة» كما يقول ابن فضل الله العمرى فى مسالك الابصار (وكلامه عن مالى) «ولباسهم عمائم بحنك مثل الغرب، ولبسهم شبيه بلبس المغاربة.

ورغم أن الإسلام سنى فى المغرب ورغم أنه دخل إلى السودان عن طريق المغرب فان الإسلام فى السودان كان له عاداته وتقاليده الخاصة به.

ومما يميز السودان الغربى ظاهرة الاستقلال، فالبلاد لم تخضع للسيطرة الاجنبية – باستثناء العصور الحديثة – ماعدا فترة قليلة لاتتجاوز العشر سنوات (من سنة ١٠٧٦ – ١٠٨٧م)، كانت فيها غانة تابعة للمرابطين، وفترة الحكم المراكشى فى جاو الذى استمر قرن من الزمان (١٥٩١ – ١٦٨٠).

المصــــادر

المصادر التى يرجع إليها لدراسة تاريخ الإسلام فى السودان الغربى، فى فترة القرون الأربعة التى يشملها البحث (من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجرى) تتمثل فى : كتب التاريخ العام، وكتب تاريخ المغرب (لبيان الصلة بين السودان والمغرب) وكتب التاريخ الخاصة بالسودان.

ويعتبر كتاب تاريخ اليعقوبى من أقدم كتب التاريخ العام المشرقية. واليعقوبى هو أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسى، توفى سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م(٢). وكان جده واضح مولى للخليفة العباسى(١) المنصور، ولى عمل ارمينية، وكان عاملا أيضا على مصر(٣). وكان اليعقوبى مؤرخا وجغرافيا ورحالة، اشتهر بميوله الشيعية(٤)، وطاف العالم الإسلامى(٥)، وعاش طويلا بأرمينية وخراسان وزار الهند وفلسطين وتمتع برعاية الطولونيين أثناء مقامه الطويل بمصر والمغرب. وألف كتابا فى التاريخ (يعرف بتاريخ اليعقوبى نشره Houtsma فى ليدن ١٨٨٣) فى جزئين أولهما يعالج التاريخ العام القديم، ويبدأ مثل مثل بقية كتب التاريخ العام بالكلام عن بدأ الخليقة وينتهى بظهور الإسلام.

---

(1) Blachére, Extraits des principaux geographes du moyen age, paris, 1932, p, 116.

(2) Brockelman supl,Vol I, p, 405.

(٣) الكندى، كتاب الولاة والقضاة، نشر رفن جست، بيروت، ١٩٠٨، ص ١٢١.

Blachére, Extraits des principaux geographes du moyen age, p, 116.

(٤) نفس المرجع ، ص ١١٦.

(٥) نفس المرجع، ص ١١٦.

(٦) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مطبوعات جامعة الدولة العربية، جـ١ ، ص ١٥٨.

والجزء الثانى فى تاريخ الإسلام يبدأ بالكلام عن مولد الرسول (ﷺ) ويتوقف عند احداث سنة ٢٥٩ هـ فى خلافة أحمد المعتمد على الله وهومرتب حسب الخلفاء لاحسب السنين.

ويتضمن الجزء الأول فصلا سريعا عن ممالك الحبشة والسودان، يتكلم فيه عن سودان المشرق والمغرب، ويتحدث عن كانم، ومملكة ملل، ثم عن مملكة الكوكو، ثم يحدثنا عن مملكة غانة[١].

وبعد اليعقوبى يأتى المسعودى، وهو أبو الحسن على بن الحسين بن على، من ذرية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه[٢] ولذا عرف بالمسعودى، وهو من أسرة عربية عريقة فى بغداد[٣]. والحقيقة أن المسعودى من الكتاب القلائل الذين تجولوا فى البلاد المختلفة، تجول بفضول لمدة حوالى الأربعين عاما زار خلالها فارس والهند والصين، وزنزبار، وبلاد الشام وكذلك مصر، حيث توفى فى الفسطاط سنة (٤٣٦هـ / ٩٥٦م)[٤].

ويحتوى الكتاب على معلومات كثيرة وليدة التجربة ومشاهدة العيان.

والكتاب يبدأ بذكر المبدأ وشأن الخليقة، وينتهى بخلافة المطيع سنة ٣٣٦[٥].

---

(١) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، جـ١ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٩٤، ابن النديم،الفهرست طبع مصر، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(3) Sauvaget, Historiens arabes,Paris, 1946, p, 39.

(٤) ابن شاكر الكتبى، Sauvaget, Historiens arabes,P, 39.

فوات الوفيات، جـ٢، ص ٩٤.

(٥) المسعودى، مروج الذهب، ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، طبعة التجارية ١٩٥٨، فى أربع أجزاء.

ويتضمن الجزء الثانى من «مروج الذهب» فصلا عن «ذكر السودان، وانسابهم واختلاف اجناسهم وأنواعهم وتباينهم فى ديارهم، واخبار ملوكهم»، ويذكر لنا من بين سودان المغرب: الكانم، وكوكو، وغانة[1] وهو كمشرقى يهتم بالسودان الشرقى على وجه الخصوص، ويهتم بالعجائب والغرائب فهو يحدثنا عن الزرافة، وصيد الفيلة، والبقر والجواميس، وعن معدن الذهب.

وننتقل إلى كتاب البكرى «ورغم أن كتاب البكرى من كتب المكتبة الجغرافية العربية الا أننا نذكره بين كتب التاريخ نظرا للمعلومات التاريخية الهامة التى يحويها بين دفتيه[2].

والبكرى هو أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد، ولد فى قرطبة سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠م وتوفى فيها سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م [3] ويرتفع نسبة إلى بكر بن وائل[4]، وهو ينحدر من بيت شريف، فقد كان أباؤه أصحاب وليه وشلطيش، وظلوا فى امارتهم حتى غصبهم المعتمد ابن عبادولبة[5]. فلجأ عبد العزيز وصحبه ابنه أبو عبيد إلى قرطبة سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م وانتقل ابنه ابو عبيد إلى بلاط المريه لدى السلطان محمد بن تمعن الذى قابله بترحاب

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص ٤.

(٢) الاستاذ الدكتور سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، طبع دار المعارف ١٩٦٥، ص ١٤.

(3) Brock, G.A.L., Vol 1, p, 476, Suppl, Vol 1, p, 875 - 876.

(٤) انجيل بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس طبعة القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٠٩، الاستاذ الدكتور حسين مؤنس، الجغرافية، والجغرافيون فى الاندلس من البداية إلى الحجارى، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد المجلدان السابع والثامن، مدريد ١٩٥٩، ١٩٦٠، ص ٣١٠.

(٤) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى، ص ٢٧٥.

(٥) انجل بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، ص ٣٠٩.

وبعثه الأخير فى مهمة دبلوماسية لدى المعتمد بن عباد فى اشبيلية حيث استقر فيها. ولكنه رجع مرة ثانية إلى قرطبة بعد هزيمة المعتمد على ايدى المرابطين[1].

وأهم كتبه كتاب المسالك والممالك، وقد وصلنا منه الجزء الخاص بصفة المغرب (كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب - نشر دسلان، الطبعة الثانية، الجزائر ، ١٩١١).

ويعتبر الفصل الخاص بـ « ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض والمسافات بينها ومافيها من الغرايب وسير أهلها» - من كتاب المغرب - من أهم ماكتب عن السودان الغربى. وفى هذا الجزء الخاص ببلاد السودان نجد معلومات متنوعة متباينة، معلومات اقتصادية واجتماعية، ومعلومات عن المعتقدات والديانات المختلفة، وعن العادات والتقاليد وكذلك يحدثنا عن العجائب والغرائب. فهو مثلا يكلمنا عن مملكة غانة وعن التنظيم السياسى فيها، عن نظام توارث الملك، وعن جلوس الملك للناس والمظالم، عن العادات المتبعة فى تحية الملك، ويكلمنا عن خطط المدينة، وعن الذهب فى هذه البلاد، وعن المكوس التى يتقاضاها ملك غانة على التجارة، وعن طريقة التبايع، ويحدثنا عن مدينة تكرور وسلى، وعن ملل. وعن مدينة كوكوا، وعن دخول الإسلام إلى هذه المدن فى منتصف القرن الخامس الهجرى وهى الفترة التى كان البكرى معاصرا للأحداث فيها وبمثابة شاهد عيان فهو يكتب فى سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨م.

وهو يحدثنا أيضا عن المدن التى تعتبر أبواب السودان مثل زويلة، وغدامس، وسجلماسة، وأودغست ويرسم لنا صورة واضحة عن الصحراء

---

(١) كراتشكوفسكى، ص ٢٧٥.

الموصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان.وعن قبائل بين لمتونة وبني جدالة من صنهاجة ودورها في جهاد السودان.

ومعلومات البكرى في هذا الجزء تنقسم إلى قسمين: معلومات نقلها عن المؤرخين السابقين، ومعلومات معاصرة. ويبدو أن البكرى استقى معلوماته عن بلاد السودان من التجار، والمسافرين الذين جولوا في هذه الأماكن، إلى جانب اطلاعه على وثائق وسجلات ديوان قرطبة.

ثم ننتقل إلى العمرى، وهو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى[1] وهو ينحدر من أسرة عربية أصيلة، تصعد فيما يزعم إلى الخليفة عمر، حيث أضاف أفرادها إلى إسمهم لقب العمرى[2].

ولد شهاب الدين بدمشق في سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٣٢م) وتلقى تعليمه هناك[3]. وقرأ العربية على كمال الدين بن قاضي شهبة ... وقرأ الاحكام على ابن تيمية[4]. وقد ربطته تقاليد اسرته بعمل الدواوين[5] وكما يذكر المقريزى فان اسرة العمرى قد تولت منصب (كاتب السر) بمصر ودمشق مدة قرن من الزمان تقريبا خلال العصر المملوكي[6]. وكان أبوه يتولى منصب

(١) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة النيل سنة ١٣٢٥ هـ، جـ٣، ص ٩١، ابن حجر، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن، ١٣٤٨ هـ، جـ١، ص ٣٣١ (ترجمة رقم ٨٢٨).

(2) G. Demombynes, Masalik El Absar fi Mamalik El Amsar, L'Afrique moins L'Etypte, Paris, 1927, Preface, p, II.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص٣٣١. .Blachére, extraits, , 301

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٣٣١.

(٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي، ص ٤١٠.

(٦) المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٩٠ - ٩١.

كتابة سر دمشق من قبل السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي سر ٧٣٠هـ / تقلد كتابة السر بالديار المصرية[١]، وقد شغل شهاب الدين في منصب القاضي بمصر[٢]، ثم خلف أباه محيي الدين في كتابه السر للسلط الناصر محمد[٣].

وظل شهاب الدين في وظيفة كاتب السر[٤]، إلى أن غضب علي السلطان - وعزل بأخيه القاضي علاء الدين - وسجن لفترة تقرب من الـ في قاعة الصاحب من قلعة الجبل، وافرج عنه سنة ٧٤٠هـ، وأقام بداره، استدعاه السلطان وولاه كتابة السر بدمشق سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م[٥]، و يباشر مهام الوظيفة حتى مات بدمشق في ٩ ذو الحجة سنة ٧٤٩ هـ / ٩ فبراير ١٣٤٩م بالطاعون[٦].

(١) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص٩١.

(٢) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٩١.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص٩١.

(٤) عن كاتب السر، أو صاحب ديوان الانشاء، انظر القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١، ص ١ - ١٠٤.

(٥) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٩٢.

(٦) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ١، ص ٣٣٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي المسمى تتمة المختـ في أخبار البشر، جـ٢، ص ٣٥٤، (احداث سنة ٧٤٩) يقول: «وفيها في ذى الحجة بلغنا و القاضي شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري بدمشق بالطاعون. منزلته في الانشاء معر وفضيلته في النظم والنثر موصوفة في كتب السر للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقا بعد وفاة أبيه يحيي الدين ثم عزل باخيه القاضي علاء الدين وكتب السر بدمشق ثم عزل وتف للتأليف والتصنيف حتى مات عن نعمة وافرة. دخل رحمة الله قبل وفاته بمدة معرة النعمان ف بالمدرسة التي أنشأتها ففرح لي بها وانشد فيها بيتين أرسلهما إلى بخطه وهما:

وفي بلد المعرة دار علم ... بنى الوردى فيها كل مجد

هي الوردية الحلواء حسنا ... وماء البغر فيها مــــاء ورد

فأجبته بقولي:

وللعمرى عدد من المؤلفات لعل من أهمها الموسوعة الكبرى فى الجغرافية والتاريخ الموسومة بمسالك الابصار فى ممالك الامصار، وإلى جانب الموسوعة الكبرى، للمؤلف مصنف آخر شهير، عنوانه «التعريف بالمصطلح الشريف» والعنوان يحمل فى ثناياه الهدف الرئيسى من تأليف الكتاب، فالكتاب يؤرخ لفن كتابة الانشاء ولديوان الانشاء ونظمه وقوانينه[1] ولكنه بفضل المنهج الذى اتبعه المؤلف أصبح مصدرا هاما بالنسبة للتاريخ والجغرافية التاريخية[2].

وينقسم الكتاب إلى سبعة أقسام الأول فى رتب المكاتبات. والثانى فى عادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير. والثالث فى نسخ الاعيان والرابع فى الامانات والدفن والهدن والمواصفات والمناسخات. والخامس فى نطاق كل مملكة وماهو مضاف اليها من المدن والقلاع والرساتيق. والسادس فى مركز البريد والحمام ومراكز هجن الثلج والمراكب المسفرة به فى البحر والمناور والمحرقات. والسابع فى أوصاف ماتدعو الحاجة إلى وصفه[3].

وفى القسم الأول «رتب المكاتبات» يحدثنا عن ملك التكرور صاحب مالى وعن بلاده، ورسم المكاتبة إليه، وكذلك عن رسم المكاتبة إلى صاحب برنو، وصاحب الكانم[4]، والكتاب نشر فى القاهرة سنة ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م.

امولانا شهاب الدين انى حمدت الله اذ بك تم مجدى

جميع الناس عندكم نزول وانت جيرتنى ونزلت عندى

Brock, G.A.L, Vol II, p, 141, Vol II, p, 175, G. Demom Bynes, L'Afrique moins L' Egypte, introduction, p, II.

(١) أ.د. جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، طبعة القاهرة ١٩٥٨، طبعة أولى، ص ١٠.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٤١١.

(٣) العمرى، التعريف، ص ٢٧-٢٩.

(٤) العمرى، التعريف، ص ٢٧-٢٩.

أما موسوعة العمرى الكبرى. مسالك الابصار فى ممالك الامصار، فيبلغ عدد اجزائها السبعة والعشرين جزءا[١]، ولكن الموسوعة فيما يبدو كانت تتألف من اثنين وثلاثين جزءا كما أثبت ذلك أحمد زكى باشا[٢].

ومسالك الابصار كتب بدون شك بين سنوات (١٣٤٢ - ١٣٤٩)[٣].

والجزء الأول من مسالك الابصار نشر فى القاهرة سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م وقد قام بتحقيقه، أحمد زكى.

والجزء الخاص بأفريقية (عدا مصر) ترجمة مع هوامش، ج.ديمومبين تحت عنوان L;Afrique moins L'Egypte , paris , 1927. ويتكلم العمرى فى الباب التاسع والعاشر من الكتاب عن ممالك السودان الإسلامية فى الباب التاسع يتحدث عن ممالك مسلمى السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر. ويشتمل على فصلين.

الفصل الأول عن النوبة، والثانى عن مملكة الكانم.

أما الباب العاشر فيتكلم فيه عن مملكة مالى[٤].

وهذا الجزء مهم جدا، فهو يمثل أقدم المعلومات التى وصلتنا عن مملكة مالى.

ويبدو من وصف العمرى أن غانة بدأت تتوارى فى الظلال من الناحية السياسية ونزلت عن مسرح الحوادث ليعليه أقليم آخر هو مالى.

(١) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى، ص ٤١١.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ص ٤١١.

(3) Demom Bynes, Masalik, introd, p, II.

(٤) العمرى، مسالك الابصار فى ممالك الامصار، نشر وتحقيق أحمد زكى باشا الجزء الأول، ص ١٢

ومعلومات العمرى فى هذا الجزء تمتاز بالاصالة فهو يستقيها من رجال ثقاة ممن زاروا هذه البلاد واقاموا بها أمثال: «الشيخ الثبت أبو سعيد عثمان الدكالى وهو ممن اقام بمالى ٣٥ سنة مضطربا فى بلادها مجتمعا بأهلها»، والأمير أبو الحسن على بن أمير حاجب (والى القاهرة والقرافة) وقد صحب السلطان منسى موسى فى زيارته للقاهرة، وهو يعتبر شاهد عيان ومعاصر، والأمير أبو العباس أحمد بن على الحاكى المهندار..

هذا عن الروايات الشفوية. اما الروايات المدونة فيذكر العمرى كتاب المغرب لابن سعيد[١].

ويعتبر الفصل الخاص« بالخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف احوالهم والالمام بما اتصل بنا من دولتهم» فى كتاب العبر لابن خلدون، من أهم ماكتب عن السودان الغربى.

وهو ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولى الدين التونسى الحضرمى الاشبيلى المالكى[٢] ينتسب إلى بيت اصله من اشبيلية، انتقل عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن ادفونش عليها، إلى تونس، فى اواسط المائة السابعة كما يقول ابن خلدون[٣].

---

(١) وهو ابو الحسن على الغرناطى، اشتهر بابن سعيد، ولد بقلعة يحصب فيما بين سنتى (٦٠٥ / ٦١٠هـ) صحب اباه إلى الحج سنة ٦٣٨، وذهب ابن سعيد إلى القاهرة واقام بها حتى عام ٦٤٨هـ، مات بدمشق سنة ٦٨٥ / ١٢٧٤م. والاسم الكامل لكتابه المعروف بالمغرب هو كتاب «فلك الارب، المحيط على لسان العرب» وينقسم إلى كتابين كبيرين: «المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى حلى المشرق. انجل بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، ص ٢٤٤، كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٣٠٦ ومايليها.

(2) Brock, G.A.L, Vol II, p. 242, Suppl, Vol II, p, 342.

(٣) ابن خلدون ، العبر ، جـ٧، ص ٣٨٠.

وأصله من عرب حضر موت[1] ولد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م، وقد درس على عدد من العلماء التونسيين والمغاربة، عمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس، وكذلك بني عبد الواد في تلمسان،وبني مرين في فاس، وبني الاحمر النصريين في غرناطة[2]، ثم رحل إلى المشرق ووصل إلى الاسكندرية ومنها إلى مصر سنة ٧٨٤ / ١٣٨٣م (في سلطنة الظاهر)[3]. وجلس للتدريس بالجامع الأزهر [4]، وولي قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ، ثم عزل عن القضاء، وتوجه لقضاء فريضة الحج سنة ٧٩٠هـ[5]، وبعد أن قضى فرضه رجع إلى القاهرة، وقضى بقية ايامه عاكفا على قراءة العلم وتدريسه[6]. ومات في القاهرة، في ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨هـ / ١٧ مارس ١٤٠٦م[7].

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر، وذلك للسببين المعروفين اللذين اختص بهما ابن خلدون واولهما: ملكة المؤرخ العبقري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل، الذي يتلخص في أن الحدث التاريخي أكبر من أن يكون حدثا سياسيا فقط، بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية. وكذلك النفسية ايضا.

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٣٧٩.

(٢) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ، ص ١٧م.
Sauvaget, historiens arabes, p, 137.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٤٥١

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٤٥٢.

(٥) ابن خلدون، نفس المصدر، ص ٤٥٥

(٦) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٤٦٢.

(٧) احمد بابا التنبكتي، نيل، Brock, G.A.L, Vol II, p, 299, Suppl, Vol II, .344.
الابتهاج بتطريز الديباج، هامش على الديباج المذهب لابن فرحون، طبع مصر سنة ١٣٢٩، ص ١٦٩

وهذا مادعا ابن خلدون إلى الكلام عن كل هذه الفنون فى المقدمة حتى جعل مفهوم التاريخ اشبه مايكون بمهفوم الحضارة، أى جعله تاريخا للامم والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء أو طبقات الاعيان وهذا ماسماه البعض «فلسفة التاريخ». وهوفى الحقيقة ليس الا التاريخ كما ينبغى أن يكون[1].

وفى الفصل الخاص بالخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب.... يحدثنا عن غانة، ثم يبين لنا كيف ضعف ملكهم، وتغلب الملثمون وفرضهم الجزية عليهم، وحمل كثير منهم على الإسلام، وتغلب أهل صوصو عليهم. ثم يحدثنا عن أهل مالى وظهورهم على غيرهم من السودان. وتتوقف رواية ابن خلدون عند أواخر القرن الثامن الهجرى سنة ٧٩٢ هـ.

ويستقى ابن خلدون معلوماته تلك من أهل البلاد انفسهم أو ممن زاروا هذه الاقاليم واقاموا بها وخبروها: مثل الشيخ عثمان فقيه أهل غانة، وقد لقيه وكان «قدم مصر سنة ٧٧٩ حاجا بأهله وولده»[2]. والقاضى الثقة ابو عبد الله محمد بن وانسول[3].

وعن العمرى وابن خلدون نقل القلقشندى - فى موسوعته الكبرى المعروفة بصبح الاعشى فى صناعة الانشاء - الجزء الخاص بممالك مسلمى السودان.

وكتاب القلقشندى عبارة عن دائرة معارف فى التاريخ والجغرافية والادب والفن والدين والاجتماع. وكما يفهم من العنوان فان الهدف الاساسى من تأليف الموسوعة هو «ان تكون مرجعا من أجل كتاب

---

(١) الاستاذ الدكتور سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ١٦م.

(٢) ابن خلدون، العبر،جـ٦، ص ١٩٩.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٢٠٢.

الدواوين أى عمال ديوان الانشاء»[1].

والقلقشندى هو شهاب الدين ابو العباس أحمد بن على[2]، ولد فى عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م ببلدة تدعى «قلقشندة» وهى من أعمال مديرية القليوبية بمصر[3]، واليها نسب. وهو من أصل عربى من قبيلة بنى بدر من فزارة من قيس عيلان[4].

وفى سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) التحق بالعمل فى ديوان الانشاء[5]، وقد هيأله عمله فى كتابه الانشاء اخراج هذا المصنف الكبير.

وفى الفصل الخاص بممالك السودان الإسلامية ينقل القلقشندى معلوماته عن العمرى فى كتابيه «التعريف بالمصطلح الشريف»، و «مسالك الابصار»، وكذلك ينقل عن ابى الفدا فى «تقويم البلدان» وعن المؤرخ المغربى الكبير ابن خلدون، فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر – وكان القلقشندى معاصرا لابن خلدون الذى عاش بمصر فى تلك الفترة – وعن ابن سعيد.

وعمله فى ديوان الانشاء جعله فى موقف يسمح له بالاطلاع على الوثائق والكتب التى ترد إلى السلطان وهو يحفظ لنا نسخة من الكتاب الذى

(١) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى، ص ٤١٦ ؛

(٢)ويطلق ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٣، ص ١٧٥، ترجمة رقم (٣)).

– (ذكر من مات فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة من الاعيان) على مؤلف القلقشندى اسم «صبح الاعشى فى معرفة الانشاء»

(٣) السخاوى، الضوء اللامع، جـ٢، ص ٨،، Brock, G.A.L, Vol II, p, 134, Suppl., Vol II, p, 164.

(٤) القلقشندى، نهاية الارب فى معرفة انساب العرب، تحقيق الابيارى، طبع القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٥) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ ١، ص٨.

ورد على الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٤هـ (أى فى الوقت الذى كان فيه القلقشندى يعمل فى ديوان الانشاء) من صاحب البرنو ابى عمر وعثمان بن ادريس.

وقد فرغ المؤلف من تأليف الكتاب فى ٢٨ شوال سنة ٨١٤ هـ / ١٤١٢م[١].

وللكتاب مختصر اطلق عليه القلقشندى اسم... «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر». وقد طبع الجزء الأول منه فى مطبعة الواعظ بالقاهرة فى سنة ١٣٢٤هـ[٢].

وتوفى القلقشندى فى ١٠ جمادى الاخرة سنة ٨٢١هـ/ ١٦ يوليه ١٤١٨م[٣].

ننتقل الآن إلى الكلام عن الكتب الخاصة بتاريخ السودان.

فى مقدمة الكتب كتاب **محمود كعت** «تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»[٤]. وهو القاضى محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت، وقراءة هذا الاسم الاخير كما يقول دلافوس ظل مشكوكا فيها، وقد كان القاضى محمود كعت من أصل وعكرى أى سننكى (أوسركله) وكان يقيم فى تنبكت، ولكنه ينتمى إلى عائلة تسكن فى كرمن (وهو الاسم الذى يطلق

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ١٤، ص ٤٠٤.

(٢) مقدمة كتاب صبح الاعشى، جـ١، ص ٢٣.

(٣) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ١٧٥.

Brock, G.A.L, Vol II, p, 134, Suppl, Vol II, p, 164.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش ، نشر هوداس ودلافوس، طبع باريز ١٩١٣، ص ١١.

على مقاطعة مجاورة لتنبكت وتقع على النيجر وكان مركز هذه المقاطعة هو تندرم على الضفة اليسرى للنيجر بقرب بحيرة فت[1].

ولد في عام ٨٧١هـ / ١٤٦٨م، ولانعرف الكثير عن سيرة حياته سوى تلك المعلومات التى نستقيها من خلال الكتاب نفسه والتى يذكرها المؤلف عرضا فى سياق الكلام. ويبدو أنه سلك نفس الطريق الذى يسلكه الشباب فى ذلك الوقت من دراسة القرآن والحديث والفقه واللغة.

وقد شغل محمود كعت وظيفة القاضى وهى من أجل الأعمال فى سلطنة سنغى، وكان القضاة يتمتعون بمركز ممتاز ومقربين لدى الاساكى من ذلك مايذكره المؤلف عن اسكى الحاج محمد (١٤٩٣ - ١٥٢٩) وكان قد «جعل للقضاة اذا جاءوه يأمر لهم ببسط حصير الصلاة لهم»[2]. وكذلك ليس هناك «من ينادى على عبده ويرسله بأمر ولايقدر أن يأبى ويفعل له فى الأمر مايفعل فى امر اسكى الا القاضى[3].

واستحق محمود كعت بسمعته العلمية لقب الفع (ألفا) أى الفقيه وكان صديقا شخصيا لاسكيا الحاج محمد، وقد صحبه فى رحلته التى ذهب فيها إلى بيت الله الحرام، لاداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول ﷺ سنة ٩٠٢هـ[4]. كما كان مستشارا مسموعا لخلفائه. فهو اذن كان فى مركز يسمح له بالمشاركة فى الاحداث المهمة فى بلده.

وبدأ القاضى محمود كعت فى تأليف الكتاب سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩م،

---

(١) دلافوس، ترجمة تاريخ الفتاش، بالفرنسية، هـ٢، ص ٦.

(٢) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١١.

(٣) نفس المصدر، ص ١١.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٦.

فى سن الخمسين كما يقول هو.

والكتاب عبارة عن تاريخ لمملكة سنغى فى عصر الأساكى، وهو يبدأ الكلام عن عصر اسكيا الحاج محمد ويتضمن معلومات عن الغزو المراكشى لبلاد السودان فى عصر اسكى اسحاق (سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩١م)[1]، وكان محمود كعت شاهد عيان للفتح المغربى.

الكتاب يحوى بعض المعلومات الضئيلة - السابقة لعصر المؤلف خاصة بمملكة مالي وملكهم ملكى كنك موسى، وايضا عن شيء علي وعصره، وهى عبارة عن مجموعة من الروايات الشفوية جمعها المؤلف من أفواه شيوخه وأصدقائه.

ومن بين الكتب التى نقل عنها يذكر كتاب «درر الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان» تأليف باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين[2]. وكذلك كتاب «كفاية المحتاج فى معرفة ماليس فى الديباج» لاحمد بابا التنبكتى.

أما الجزء الأكبر والأهم من الكتاب فيتناول الفترة التى عاصرها المؤلف

---

(١) نفس المصدر، ص ١٥٢.

(٢) تاريخ الفتاش، يشير إليه مرارا، صفحات ٤٤، ٥٢، ٩٢، ٩٣، ١٢٦، ١٤٦ وهذا المؤلف الذى يعنى عنوانه تقريبا (درر الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان) مجهول لدينا وسوف يكون من المهم بدون شك أن يعثر على نسخة منه، ومحمد بن الأمين كانوا، والد المؤلف ورد ذكرة فى تاريخ السودان على اعتبار انه فلت باعجوبة من المذبحة التى راح ضحيتها فى ٢٠ أكتوبر ١٥٩٣، فقهاء تمبكتو (تاريخ السودان - الترجمة الفرنسية ص ٢٥٨ - ٢٦١). وكان محمود كعت قد مات منذ حوالى شهر فى هذه الفترة. وتبعا لبعض مقتطفات نفس المؤلف التى يرد ذكرها بعد ذلك، يبدو انه قد كتب حوالى منتصف القرن السابع عشر على أقل تقدير.
دلافوس، ترجمة تاريخ الفتاش، بالفرنسية، هامش ١، ص ٨٣.

وعاش أحداثها وشارك فيها وكان بمثابة شاهد عيان لما يجرى خلالها، وهو عبارة عن مذكرات شخصية كتبها المؤلف بنفسه.

وتوفى العلامة الفقيه محمود كعت، فى أول المحرم سنة ١٠٠٢ هـ / ٢١ سبتمبر ١٥٩٣ م ودفن بتنبكت[١].

ورواية تاريخ الفتاش تقف فى عام ١٥٩٩م بعد ست سنوات من وفاة محمود كعت، بينما يشار لتواريخ تستمر حتى سنة ١٦٦٤ - ١٦٦٥م. وفى الحقيقة كما يقول دلافوس فان محمود كعت لم يحرر شخصيا الا جزءا ضئيلا من تاريخ الفتاش كما ورد الينا وهى التى تناسب بدون شك الجزء الأغلب من الفصول الستة الأولى من ترجمتنا والتى تحتوى بعد المقدمة، نوعا من المدح لاسكيا الحاج محمد، وكبار الشخصيات المختلطة بتاريخه، ومذكرة عن دولة مالى، وكيمغ وجار، وشى على واسكيا الحاج محمد، ومع ذلك فان بعض المشاهد لم تكتب رأسا بواسطته حيث انها نقلت من الأوراق التى قد يكون تركها. ومحمود كعت، فى الواقع لم يكن ليتم عمله ولكنه كتب وهو يهدف إلى استكمال مذكرات ووثائق مختلفة - وأولاده وكثيرا منهم قد شغلوا وظائف هامة تركوا أيضا أوراقا ومذكرات وأخيرا فان أبنا لاحدى بناته أخذ وثائق العائلة واستكملها ونسقها واكمل الرواية التى بدأها جده وهكذا، فالى هذا التعاون من الجد والاخوال والحفيد يرجع تاريخ الفتاش. والمصنف الحقيقى للمؤلف هو (سبط) محمود كعت، بينما الموحى بالفكرة هو محمود كعت، ونحن نجهل شخصية وتاريخ ميلاد هذا المصنف وقال لنا فقط أن والده كان يسمى المختار قنبل وأن أمه كانت ابنه الفع محمود كعت، وكلمنا عن أخواله أولاد محمود كعت، وهؤلاء الأخوال هم القاضى

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١١، الترجمة الفرنسية، ص ٣٢٢.

اسماعيل كعت والقاضي محمد الأمين كعت، ويوسف كعت، والقصة نفسها تنتهي في عام ١٥٩٩ ، ولكن بالنسبة لبعض الشخصيات فان آخر المؤلفين يذكر تواريخ تستمر حتى ١٦٦٥ . وهكذا كما يقول دلافوس يمكننا القول أن تاريخ الفتاش الذى بدأه محمود كعت سنة ١٥١٩ قد اكمله سبطه ابن المختار حوالى ١٩٩٥ على أقل تقدير أى بعد عشر سنوات من انتهاء تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى، وهكذا فان أحد هذين المؤلفين سابق وفى نفس الوقت لاحق ولو لمدة قصيرة على الثانى[١].

السعدى، تاريخ السودان.

واسمه بالكامل عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدى ((السعدى) نسبة إلى قبيلة بنى سعد[٢]. أو إلى الأمراء السعديين حكام مراكش[٣].

ويبدو أن أصل الأسرة من البيضان فهو يذكر أن جد جدته أم والده الفقيه عبد الله البلبالى. هو والله أعلم أول البيضان صلى بالناس فى تلك المسجد (مسجد سنكرى) فى أواخر دولة التوارق وفى أوائل دولة سن على[٤].

---

(١) دلافوس، مقدمة تاريخ الفتاش بالفرنسية ، ص ١٨ - ١٩.

(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١٣، الترجمة الفرنسية، ص ١٢٥ . وعن بنى سعد ، انظر، القلقشندى، نهاية الارب فى معرفة انساب العرب، تحقيق الابيارى، طبعة القاهرة ١٩٥٩، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، القلقشندى صبح الأعشى، جـ١ ، ص ٣٤٠ يقول: « من قبائل قيس هوازن ومن هوازن بنو سعد الذين كان رسول الله ﷺ رضيعا فيهم وهو بنو سعد بن بكر بن هوازن.قال فى العبر : وقد افترق بنو سعد هؤلاء فى الإسلام ولم يبق لهم حى فيطرق الا أن منهم فرقة بافريقية من بلاد المغرب بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان.

(3) Houdas, Histoire du Soudan, introduction, p, XIII.

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص ٥٧، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٩٢ - ٩٣.

وينتسب السعدى إلى أسرة نبيلة بتنبكت[1]، ولد فى سنة ١٠٠٤ هـ / ٢٨ مايه ١٥٩٦م[2].

وتقلد مؤلفنا عدد من الوظائف العامة فى الدولة، عمل فى وظيفة شاهد فى مدينة جنى[3]، وإلى جانب ذلك كان نائبا للإمام فى الصلاة فى مسجد سنكرى ثم تولى إمامة المسجد بعد وفاة شيخة الإمام محمد بن محمد بن أحمد الخليل فى سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م[4]. ويذكر لنا السعدى أنه بعد ذلك بعشر سنوات فى سنة ١٠٤٦هـ «عزل من الإمامة ظلما وعدوانا»[5]، ورجع إلى تنبكت واستقبل من أهلها استقبالا طيبا[6].

واخيرا فى سنة ١٠٥٦ هـ، توجت أعماله السابقة بشغله لوظيفة الكاتب[7]. واحتل مركزا مباشرا فى أعمال بلده، ولعب دور الوسيط مرارا لدى امراء السودان المختلفين[8]. ويحتمل أن تكون فكرة كتابة هذا التاريخ الذى سمح فيه بالربط بين أحداث الماضى والحاضر قد اختمرت فى ذهنه خلال هذه الفترة[9].

وبالرغم من العنوان العام (تاريخ السودان) فان هذا المؤلف لايعالج فقط

---

(١) هوداس، مقدمة ترجمة تاريخ السودان للسعدى، ص ١٣.

(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١٣، الترجمة الفرنسية، ص ٣٢٥.

Brock, G.A.L, Vol II, P, 467, Suppl, Vol II, p, 716.

(٣) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٣٥ -٢٣٦.

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٤٤.

(٥) السعدى، تاريخ السودان، ص٢٥٨.

(٦) السعدى، تاريخ السودان، ص٢٥٨.

(٧) السعدى، تاريخ السودان، ص٢٧٧.

(٨) هوداس، مقدمة الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان للسعدى، ص ٩٣.

(٩) نفس المصدر والصفحة.

الاتاريخ جزء من السودان[1]. وهو فى الحقيقة لايتكلم بطريقة مفصلة الا عن امبراطورية سنغى وخصوصا عن غزو واحتلال مراكش للمنطقة الواقعة على ضفاف المجرى الأوسط للنيجر والجزء الأعلى شمالا من المنحنى الذى يكون النهر الافريقى الكبير.

ولم يتكلم المؤلف عن امبراطورية مالى الا فى بضع كلمات قليلة. ونحن نشعر مع ذلك أن اهتمامه الأكبر هو تعظيم تنبكت (تنبكتو) المدينة التى ولد[2] فيها. وأن يميز الدور المجيد الذى لعبته هذه المدينة فى عالم السود[3].

وفى الوقت الذى كان عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعدى يكتب تاريخه عن السودان، كانت تنبكت قد بدأت الدخول فى عصر اضمحلالها. والاجانب الذين فتحوا هذه المدينة التجارية لم يستطيعوا مطلقا ادارتها وأن يجعلوا منها منهلا للثراء لبلادهم[4]. وبذرت مظالمهم واغتصاباتهم الخراب فى الشعوب السوداء ذات الطبيعة الهادئة. وفى الفترة التى انتهت فيها رواية المؤرخ كان قد حل موعد طرد الغزاة بصفة نهائية من هذه البلاد التى احتلوها سنوات طويلة[5].

ومما كتبه السعدى فان تاريخ السودان يتكون من جزئين لهما طابع مختلف.

أولهما وهو يكون أكثر من نصف النص، يمثل ملخصا للمعلومات التى

---

(1) Houdas, introduc, p, I.

(٢) نفس المصدر والصفحة، السعدى تاريخ السودان، ص ٢١ عند كلامه عن تنبكت «التى هى مسقط رأس وبغية نفسى».

(٣) هوداس، مقدمة ترجمة كتاب تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ١.

(٤) هوداس،مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ١، ص ٢.

(٥) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٢.

جمعها المؤلف من الروايات الشفوية والمكتوبة[1]. والثانى يمثل على عكس ذلك طابع المذكرات الشخصية والمعلومات التى تضمنها أتت جميعها من شهود عيان، وأغلبها من المؤلف نفسه الذى كان مختلطا مباشرة بالاحوال السياسية فى بلده[2].

والجزء الأول بأكمله جاف بعض الشيء وموجز فهو قد كتب بناء على معلومات لم يبين مصدرها الا قليلا جدا، وأتت بدون شك، من الروايات الشعبية، وهى تحمل فى طياتها أوجه النقص وعدم التأكد التى تلازم هذا النوع من المعلومات[3].

وهل كانت توجد وثائق مكتوبة عن كل هذه الفترة السابقة للقرن السادس عشر؟ ونظرا لعدم وجود أى بيان أكيد أو دقيق فانه ليس أمامنا الا التخمينات[4]. وفى الواقع فانه باستثناء معجم سير أحمد بابا، فاننا لانقابل أى اشارة أخرى عن أعمال سابقة ومستعملة[5]. وكاشارة وحيدة فان الكاتب يكتفى أحيانا بالقول انه حصل على هذه الواقعة من أحد أخوانه أو عن طريق أحد العلماء[6]. وحتى فيما يخص تاريخ مراكش فانه لايذكر الا كتاب «الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية»[7] وبرغم ذلك كما يقول

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر ، ص ٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢.

(٤) هوداس، المقدمة ، ص ٣.

(٥) هوداس، المقدمة، ص ٣.

(٦) السعدى، تاريخ السودان، ص ٦٢ يقول «وحدثنى بعض الشيوخ المعمرين من أهل تنبكت، ص ٥٩ : يقول «كما وقفت عليه فى بعض التواريخ وسمعت من بعض الفقهاء الذى له حفظ واعتناء بمعرفة التواريخ».

(٧) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤٢.

هوداس Houdas فانه من المحتمل انه كانت هناك نصوص أحرى تحت عينه. وسكوته فى هذه الناحية لايوحى قطعا أن حوليات عن السودان لم تكتب قبل ذلك. ومن المحتمل أن يعثر فى يوم ما على بعض هذه الأعمال التى تجهل اليوم عناوينها[١].

والجزء الثانى من تاريخ السودان بالغ الحيوية. ويتمثل فيه رخاء فى التفصيلات. وهنا فان المؤلف لايتكلم الا عن ماشاهده، أو ماقصه عليه شهود عيان جديرين بالثقة. والوظائف العامة التى تقلدها وضعته فى علاقات مع أكبر الشخصيات وأكثر من ذلك فان كفايته الشخصية جعلته يكلف بمهام سياسية ذات أهمية كبيرة[٢]. وهو يقصها بنفسه ويغوص كثيرا فى التفاصيل التى تبدو أحيانا دقيقة. والاهتمام الذى يبديه نحو بعض الاحداث يبدو لنا احيانا مبالغا فيه. ولكن عددا من هذه الحوادث غير ذات قيمة فى ظاهر هالها بالنسبة لنا ميزة اخبارنا عن الوسط وعن البيئة التى نشأ فيها[٣].

والسعدى مثل الأغلبية الساحقة من المؤرخين العرب، يكتب دون خطة محدودة من قبل. فهو يجهل فن التكوين اللغوى، واللغة التى يكتب بها أبعد ماتكون عن الصواب المطلق. فهو لايخشى استعمال الكلمات التى لم تجد مكانها فى المعاجم القديمة ، ويتصرف وفق هواه مع القواعد العربية[٤]. ونحس من وقت لاخر أنه يفكر بعبارات سودانية وأنه يكتب بلغته. ورغم ذلك فان افكاره لايكتنفها الغموض الا قليلا جدا. ويجوز لنا أن نرجح أن نواحى

---

(١) هوداس، مقدمة كتاب تاريخ السودان للسعدى، بالفرنسية، ص ٤٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) هوداس، نفس المصدر، ص ٣.

(٤) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٤.

الغموض القليلة التى نجدها فى كتابه انما نتجت بسبب اخطاء اقترفها النقال[1]. ونحن نعلم انه فى البلاد الإسلامية أكثر منه فى أى مكان آخر فان النساخ يعلقون أهمية كبيرة على جمال الخط أكثر من النقل الصحيح.[2]

ولايتعين علينا أن نطالب شخص نما فى قلب افريقية، وعاش فى بداية القرن السادس عشر الميلادى، أن يدلى بنصيب كبير فى نقد الأحداث التى يرويها، ولايجب أن نطلب منه البحث عن أسباب الوقائع أو أن يستخلص منها النتائج[3]، ومع ذلك وفى الجزء الثانى من كتابه فانه يبين لنا بوضوح أن الكاتب يكون افكارا، عن الاشياء التى تدور تحت عينيه، وان تقديره بالرغم من كونه غامضا، فانا نستنتج بالفعل الاشياء التى لم يقلها[4].

وبالرغم من نقص المنهج والفجوات التى تتخلله فان «تاريخ السودان» يسمح لنا بالوضع الذى هو عليه أن نعرف بطريقة عامة التنظيم العسكرى والادارى لجزء كبير من السودان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من عصرنا – ونجد عرضا للأسباب المختلفة التى أدت إلى فترات متعاقبة من الرواج ومن الفقر. وسنجد فى المقام الأول الاضرار التى تنتج عن النظام الاقطاعى حيث لايفكر كبار الاقطاعيين الا فى تحطيم الوحدة الحكومية للبلاد ويقودون بهذه الوسيلة الهجمات التى تأتى من الخارج[5]. وستأتى بعد ذلك الاخطاء التى ارتكبها المغاربة وهى اخطاء ألبت عليهم مشاعر الشعوب المغلوبة وتجعلنا نفهم الجهود التى ابداها الوطنيين لطرد هؤلاء الاجانب من بلدهم[6].

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) هوداس، مقدمة تاريخ السودان ، بالفرنسية، ص ٤.

(٣) هوداس، المقدمة، بالفرنسية، ص ٥.

(٤) هوداس، المقدمة ، ص٤.

(٥) هوداس، مقدمة تاريخ السودان، بالفرنسية، ص ٥.

(٦) هوداس، المقدمة ، ص ٥.

وهنا وهناك نقابل بعض الاخبار القصيرة عن تاريخ الشعب المغربى فى بلاده، وهذه الاخبار تسمح لنا بمراجعة بعض روايات المؤرخين المغاربة عن بلادهم وتوقف السعدى عند احداث سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥م.

هذه هى أهم الكتب التاريخية من المصادر التى تتناول الفترة التى ندرسها.

وبعد ذلك تأتى الكتب الجغرافية.

والكتب الجغرافية مهمة بالنسبة للتأريخ للسودان الغربى، وذلك لأن الجغرافية العربية وثيقة الصلة بالتاريخ، وبمرور الوقت استطاعت الجغرافية أن تنفصل عن التاريخ انفصالا غير تام على كل حال[1].

والجغرافية العربية تنقسم إلى نوعين: **أولهما** الجغرافية الرياضية وتضم فرعين هما:

علم الاطوال والعروض Le science des longitudes et des latitudes.

وعلم تقويم البلدان Le détermination de la position des pays[2].

وثانيهما الجغرافية الادبية أو الوصفية وتشتمل على فرعين هما:

علم المسالك والممالك Le science des itineraires et des etats.

وعلم عجائب البلدان Le science des merveilles du monde.

---

(١) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد،ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة فى القرنين ٦، ٧ للهجرة (١٢-١٣م)، نقد للمصادر، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، المجلد الثامن، ١٩٥٤، ص ٩١.

(٢) الاستاذ الدكتور سعد زغلول، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة ،ص ٩١

وأهمية كتب الجغرافية في انها «تكمل كتب التاريخ التى اهتمت بالاحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها، إلى جانب وصف الاحوال الطبيعية والبيئية، بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة، منها الاقتصادية والاجتماعية ومايختص بعادات الشعوب وتقاليدها...الخ[1].

وفى كتب الجغرافيين القدماء من المشارقة أمثال: ابن خرد اذبة واليعقوبى، وابن الفقيه، والاصطخرى، والمسعودى، والمقدسى لانجد معلومات كافية عن بلاد السودان بشكل عام وعن سودان المغرب بشكل خاص. ويعلل الاصطخرى (توفى سنة ٣٤٠هـ) ، وينقل عنه ابن حوقل، عدم اهتمامه ببلاد السودان بسبب انها بلادجاهلية غير متحضرة وفى ذلك يقول: «ولم نذكر بلاد السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى اعراضهم من الأمم لان انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولاحظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك[2].

هذا بينمانجد الوضع مختلف لدى الجغرافيين المغاربة، «فبلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية»[3]، ومن هنا أولوها اهتمامهم.

من كتب النوع الأول كتاب الخوارزمي والمعلومات عنه قليلة للغاية

يذكر لنا ابن النديم أن اسمه محمد بن موسى وكنيته أبو جعفر، وأصله

---

(١) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٢١م.

(٢) الاصطخرى ، مسالك الممالك، نشر دجوية، ليدن ١٩٢٧ ، ص ٤-٥، ابن حوقل صورة الأرض، نشر كريمر، ليدن ١٩٣٨، ص ٩-١٠ . وانظر فيما بعد الفصل الخاص بـ «بلاد السودان».

(٣) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٤٠ .

من خوارزم، وكان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة[١]. وهو من جغرافي النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وآخر ذكر ورد له مقترنا بوفاة الخليفة الواثق سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٣م، ويبدو أنه توفى بعد ذلك بقليل[٢].

ويطلق على الكتاب اسم «صورة الأرض»، وقد ورد بالكتاب اسم غانة مما يدل على أن العرب قد عرفوها فى تلك الفترة المبكرة.

وقد نشر Hons . V. Mzik الكتاب فى فينا سنة ١٩١٦.

ثم ننتقل إلى أكبر جغرافي انجبه الاندلس فى رأى دوزى وهو البكرى[٣].

وأهم كتبه كتاب المسالك والممالك، وقد وصلنا منه الجزء الخاص بصفة المغرب - كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب - (نشر دسلان) الطبعة الثانية، الجزائر ١٩١١م، وللكتاب أهمية تاريخية كبرى لأنه ينقل بعض كتب تاريخ المغرب الأصلية التى لم تصل الينا[٤]. (وعن البكرى انظر ماقبل ص ٧).

وبعد البكرى يأتى الادريسي: وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسى[٥]، ولد بمدينة سبتة فى سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م، وكانت تابعة فى ذلك العصر للمرابطين[٦]. ونحن نعرف القليل

(١) ابن النديم، الفهرست، طبعة مصر، ص ٣٨٣.

(٢) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ص٩٩.

(٣) انجل بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ٣١٠.

كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى، ص ٢٧٤.

(٤) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٢م.

(٥) دوزى، مقدمة صفة المغرب، بالفرنسية، ص ٢، انجل بالنثيا، الفكر الاندلسى، ص ٣١٢.

(6) Brock, G.A.L, Vol I, P, 477, Blachére, extraits. p, 190, Dozy. introd, p, III.

جدا عن حياته، فهو حفيد لادريس الثاني الحمودى أمير مالقه، ويبدو أنه تلقى علومه فى قرطبه، وقد بدأ أسفاره منذ سن مبكر، فزار كثيرا من نواحى الأندلس والمغرب[١]، وفى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦ - ١١٧٠م، وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره زار آسية الصغرى، وزار سوريا ومصر. ثم زار صقلية حيث لقى اعجاب ملكها رجار، فاقام عنده[٢]، وهناك الف كتابه المعروف، «نزهة المشتاق فى اختراق الافاق» ويعرف ايضا بكتاب رجار[٣]. وانتهى من تأليفه سنة ٥٤٨هـ /١١٥٤ م. وأكثر الاحتمالات انه مات بسبته سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٦م[٤].

ونشر دوزى ودجويه الجزء الخاص بافريقية والاندلس تحت اسم «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس» (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) ليدن ١٨٦٦ ، واتبعا النص بترجمة فرنسية مع هوامش بعنوان.

Description de L'Afrique et de L'Espagne

والجزء الخاص بالسودان يتضمن معلومات مهمة عن السودان فى عصره (القرن السادس الهجرى) فهو يحدثنا عن غانة أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا[٥]. وينفرد بذكر معلومات منها أن ملك غانة ينتسب إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن على ابن طالب. ويتكلم بافاضة عن التبر بأرض ونقاوة. ،كذلك يتضمن معلومات مهمة جدا عن التجارة المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان ومعلوماته يستقيها من بعض السفار الثقات،

---

(١) انجل بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، ص ٣١٣، بلاشير، ص ١٩٠.

(٢) بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسى، بلاشير، ص ١٩٠.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة على عبد الواحد وافى، جـ ١، ص ١٨٤.

(4) Blachére, Extraits, p, 191, Brock, G.A. L, Vol I, p, 477.

(٥) الادريسى، صفة المغرب، ص ٦ ، والترجمة الفرنسية، ص ٧.

وكذلك من بعض الثقات من متجولي التجار في بلاد السودان[1].

وبعد الادريسي يأتي كتاب الاستبصار، وعنوانه الكامل هو «كتاب الاستبصار في عجائب الامصار» ويتضمن (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب والسودان) وهو لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجرى، الثاني عشر الميلادى. وقد قام بنشره وتحقيقه الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، وهو من مطبوعات جامعة الاسكندرية.

والجزء الخاص ببلاد السودان يعتمد فيه اعتمادا كبيرا على البكرى. ويهتم بصفة خاصة بذكر الثروة الزراعية والمعدنية في بلاد السودان فهو يستطرد في ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس.

وكذلك يقول انه اطلع على الرسائل الرسمية الصادرة باسم غانة ملك أحد هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين[2].

والى كتب الجغرافية تضاف كتب الرحلة التي تتميز بتسجيل المعلومات وليدة التجربة ومشاهدة العيان[3].

أهم الرحلات - بالنسبة لموضوع البحث - **رحلة ابن بطوطة**.

وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، اللواتي نسبة إلى قبيلة لواته البربرية (وهي فرع من بربر البتر) ولد بمدينة طنجة في ١٧ رجب سنة ٧٠٣هـ / ٢٤ فبراير ١٣٠٤م[4]. خرج من

---

(١) الادريسي، صفة المغرب، ص ١٠، ص ٣٢.،

(٢) كتاب الاستبصار، المقدمة ص ن ، ث، ص ٢١٩

(٣) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٤م

(٤) رحلة ابن بطوطة، طبعة التجارية في جزئين، القاهرة ١٩٦٤ جـ١ ، ص ٤.

Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, London, 1939, Introduc, p, 2, Brock, G.A.L, Vol II, p, 256, Suppl, Vol II, p, 365,

=

طنجة فى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، وهو فى سن الثانية والعشرين، «معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام»[(١)]. ولكن المقادير ساقته والقت به فى مختلف البلاد ولم يقدر له العودة إلى بلده الا بعد أكثر من ربع قرن. ووصل بلاط السلطان أبى عنان فى أواخر شعبان سنة ٧٥٠هـ / نوفمبر ١٣٤٩م. ولكن تجوله لم يقف عند هذا الحد فقد قام بزيارة الاندلس ورجع إلى المغرب مرة ثانية. وفى أول المحرم عام ٧٥٢هـ ١٨ فبراير١٣٥٢م ثم خرج فى رحلة كانت وجهته فيها بلاد السودان الغربية.

من أهم ماتمتاز به الرحلة الوصف الدقيق للطريق من سجلماسة إلى مالى. وكان بحكمها فى ذلك الوقت السلطان منسى سليمان، كذلك حوت الرحلة معلومات متابينه أهمها ماهو خاص بالعادات والتقاليد والنظم المتبعة فى البلاد.

وفى طريق العودة زار معادن النحاس فى تكدا، ومن هناك وفى ١١ شعبان سنة ٧٥٤هـ / ١٢ سبتمبر ١٣٥٣م بدأ رحلة عصيبة استغرقت بضع شهور فى صحبة رفقه من تجار الرقيق، وصل معها إلى بلاد هكار بعد أن مر على غات. ووصلت القافلة إلى بواد (وهى من أكبر قرى توات) ومنها وصل إلى سجلماسة ومنها سار فى ظروف صعبة وكان الثلج يتساقط فى الطريق حتى وصل إلى فاس فى نهاية سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م. وفى هذه المدينة ظل على مايبدو حتى مات فى ٧٧٩ / ١٣٧٧م[(٢)].

= Blachére, extraits, p, 348.

(١) رحلة ابن بطوطه، ص ٤- ٥، الترجمة الانجليزية لجب ، ص ٤٣.

(2) Brock, G.A.L, Vol Ii, p, 257, Suppl, Vol II, p, 366.

«هذا بينما يذكر جب فى مقدمة ترجمة رحلة ابن بطوطه انه مات فى سنة ١٣٦٨ أو ١٣٦٩ = ٧٧٠هـ.

Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, introduction, p, 2.

وإلى السلطان أبى عنان يرجع الفضل فى ظهور وصف رحلة ابن بطوطة إلى النور، يتضح ذلك بجلاء من قول ابن جزى «وصدر الامر العالى لعبد مقامهم الكريم.. محمد بن محمد بن جزى الكلبى اعانه الله على خدمتهم.. ان يضم اطراف ما املاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملا فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا... ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله بالفاظ موفيه للمقاصد ...»[1]

ومن هذا النص يتضح أن رحلة ابن بطوطه الموسومة باسم «تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار» ليست من تصنيف ابن بطوطه ولكن الذى قام بصياغتها صياغة ادبية وفقا لرواية ابن بطوطه هو ابن جزى. وانتهى ابن جزى من تقييدها فى عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥[2] ولم يعمر ابن جزى طويلا فقد وافاه الاجل فى نفس العام التالى[3].

وبعد ابن بطوطه يأتى الحسن بن محمد الوزان.

والملاحظة الأولى الجديرة بالتسجيل هى أن اسمه الغريب يشير إلى ماأكتنف سيرة حياته من تعقيد كبير.

اسمه المعروف به فى البلاد العربية هو الحسن بن محمد الوزان الزياتى[4]، ولكن اسمه الذى ورد فى مؤلفاته التى كتبها هو جون ليون الغرناطى وترجمته بالعربية يوحنا الأسد الغرناطى[5]، ولد فى غرناطة فى تاريخ غير محدد بين ١٤٨٩ - ١٤٩٥ / ٨٨٥- ٩٠١هـ، والوزان تعنى الوزان،

---

(١) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ١، ص٤.

(٢) رحلة ابن بطوطة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢١١ ترجمة جب، ص ٣٣٩.

(3) Blachére, extraits, p, 350.

(4) Brock, G.A.L, Suppl, Vol II, p, 710.

(5) Brock, G.A.L, Suppl, Vol II, p, 710.

ويبدو أن هذا كان اسم العائلة التى عمل احد اسلافها فى وظيفة تتعلق بالوزن. والزياتى تبرز فيما يبدو اسم قبيلته الاصلية.[1]

وبعد وقوع غرناطة فى ايدى النصارى فى يناير سنة ١٤٩٢م، والتى تلاها طرد المسلمين، لجأت عائلة الحسن إلى فاس حيث احتلت مكانا مرموقا. واتبع الطفل فى دراسته نفس النهج الذى لازال يتبعه مثقفو اليوم فى مدرسة فاس وفى جامعة القرويين الإسلامية. وفى سنة ١٥١١م وفى سن السابعة عشر صحب الحسن أحد أعمامه فى رحلة دبلوماسية إلى تمبكتو (تنبكتو)[2]. وقد قضى الجزء الأكبر من سنوات ١٥١٤ - ١٥١٥ فى مراكش، حيث كان فى خدمة السلطان، كما كلف بمهام سياسية غالبا وتجارية أيضا، وفيما بعد قام بأعباء مماثله لدى السلطان محمد سلطان فاس[3].

وسافر الحسن فجأة من فاس فى أغسطس ١٥١٥م / ٩٢١هـ ويبدو من غير المؤكد أنه كلف بسفاره لدى سليم، سلطان القسطنطينية[4]. ولانعلم شيئا عن المكان الذى بدأ الحسن منه رحلته إلى القسطنطينية، ولاعن تاريخ سفره، وكذلك لانعرف شيئا عن مده اقامته بالشرق. غير أنه كان موجودا فى مصر فى يونيو ١٥١٧-٩٢٣هـ، وفى رشيد، فى نفس الوقت الذى كان فيه هناك امبراطور الترك، السلطان سليم[5]. وقام خلال اقامته بالشرق بالحج إلى مكة، وعاد من مصر إلى مراكش فى ١٥١٨ مارا بطرابلس[6] وانتهت جولته

---

(1) Jean-Léon L'Africain, description de L'Afrique, N.édition, traduite de L'italienpar A. Epaulard, Paris 1956, introduct, p, VII.

(٢) ليون الافريقى، وصف افريقية، بالفرنسية، جـ١ ، المقدمة، ص ٧، كراتشكوفسكى، ص ٤٥٠.

(٣) ليون الافريقى، وصف افريقية، المقدمة، ص ٨.

(٤) ليون الافريقى، وصف افريقية، المقدمة، ص ٩.

(٥) ليون الافريقى، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، المقدمة، ص ٩.

(٦) ليون الافريقى، وصف افريقية، المقدمة، ص ٩، كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٤٥١.

نهاية محزنة. فبينما هو فى طريق العودة وأثناء نزوله فى جربة وقع فى أسر القرصان الصقلى بترو Pietro الذى صحبه إلى ايطاليا وهناك قدمه هدية إلى البابا ليون العاشر، وقد احسن الباب استقباله واخيرا عمد الحسن بن محمد الوزان الزياتى على يد البابا فى كنيسة القديس بطرس بروما فى ٦ يناير ١٥٢٠ تحت اسم جيوفانى ليونى[١]. واقامة ليون فى ايطاليا غير معروفة بدقة، وقام بتدريس اللغة العربية فى بولونيا[٢]، ومن بين مولفاته معجم عربى عبرى لاتينى - وكان المامه الجيد باللغة الاسبانية خير معين له على اجادة الايطالية واللاتينية - الفه فى سنة ٩٣٠هـ /١٥٢٤م لاتزال مخطوطته محفوظة بالاسكوريال[٣]، وتمكن ليون أو الحسن، ربما فى سنة ١٥٢٨، بطريقة ما من الافلات راجعا إلى افريقية (تونس) وهناك مالبث أن طرح المسيحية وعاد ثانية إلى الديانة الإسلامية، وقد توفى الحسن الوزان على مايبدو بتونس فى أواخر عهد بنى حفص وذلك فى عام ١٥٥٢م[٤].

وقد وجدت مزاعم تقول بأن الأصل العربى «لوصف افريقيا» كان موجودا لدى المؤلف عندما وقع فى الأسر، وقيل فيما بعد بأن مخطوطته وقد وجدت طريقها إلى أحد محبى الكتب فقدت فى الطريق إلى نابلى عند هجوم القراصنة[٥]، وعلى الرغم من كل ذلك فان القول بأنه قد وجد مصنف تام فى يد ليون الافريقى عند وصوله إلى ايطاليا قول ضعيف وأغلب الظن أن الأمر اقتصر على قطع متفرقة وتخطيط ذى طابع عام[٦].

---

(١) نفس المراجع السابقة.

(٢) ليون الافريقى، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، جـ١، المقدمة ص ٩.

(٣) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٤٥٢.

(٤) نفس المرجع، ص ٤٥٢.

(٦) كراتشكوفسكى، تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٤٥٢.

وماسينيون Massignonبوجه عام لايعتقد فى وجود مخطوطه عربية للكتاب ويعتبر القول بذلك محض خطأ بل انه يرى خلافا لذلك أن ليون الافريقى لم يدون الكتاب باللغة العربية وانما صاغ مذكراته وملاحظاته باللغة الايطالية رأسا[١].

وقد انتهى جيوفانى ليونى (أو الحسن الوزان) من تدوين كتابه فى أثناء وجوده بروما فى ١٠ مارس سنة ١٥٢٦[٢].

وينقسم المصنف تبعا للمتن الايطالى إلى تسعة كتب، يعالج فى الكتاب السابع، بلاد السودان[٣]. وفى الفصل الخاص ببلاد السودان يحدثنا الحسن الوزان عن ولاته (ايوالاتن) وعن أهميتها التجارية، وعن عادات الناس، وطريقة حياتهم التى تشبه حياة جيرانهم الذين يقطنون الصحراء... وعن غينيا (جنى) ومملكة مالى - وثراء سكانها وسببه احترافهم التجارة «وهم الاكثر تمدنا، أكثر ذكاء، وأكثر احتراما من كل السودان»[٤].

ويكلمنا أيضا عن تمبوتو Tombutto[٥]تأسيس المدينة، منازلها، مساجدها، قصر الملك، السكان وعادتهم، ...ثروة الملك، وعن جند الملك من الفرسان، تجارة الملح. وعن مملكة Gago (كوكو - كاغ) ... وعن ونقارة Guangara ومعدن الذهب الموجود فيها ... وعن مملكة البرنو.

ومن كلام الحسن (عن بلاد السودان) يبدو أنه قام برحلتين، الأولى فى

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى، ص ٤٥٢.

(2) L. Massignon, Leo Africanus, Ency de L'islam, Vol III, p, 23.

(٣) ليون الافريقى، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، نشر A.Epaulard باريز ١٩٥٦، فى جزئين، الجزء الثانى، ص ٤٦١، ومايتبعها Pays des Noirs .

(٤) ليون الافريقى، وصف افريقية، الترجمة الفرنسية، جـ٢، ص ٤٦٦.

(٥) ليون الافريقى، نفس المصدر، ص ٤٦٧.

سنة ١٥١١ في صحبة عمه، والرحلة الثانية لايذكر تاريخها[١].

ومعلومات الحسن تنقسم إلى قسمين: معلومات منقولة تتراوح بين الصواب والخطأ، ومعلومات وليدة مشاهدة العيان والتجربة وهي المعلومات الخاصة بعصره.

وقليلا مايشير الوزان إلى مصادره، ولكنه يورد اسم البكرى والمسعودى وابن الرقيق. واذا كان مصنف ليون له صفات ممتازة ويمدنا بوثائق غاية في الأهمية فانه يوجد به عدد من الأخطاء التى ترجع لاسباب عديدة[٢]، منها، انه قد دون مصنفه من الذاكرة، ولم تكن ذاكرته تسعفه دائما، وعلى الرغم من أن الوصف الجغرافي عنده يتميز بالدقة الشديدة الا أن مادته التاريخية وتواريخه ليست في المستوى المرجو[٣].

وللكتاب عدة طبعات ظهرت الطبعة الأولى لراموزيو Ramusio في البندقية سنة ١٥٥٠ تحت عنوان Navigationi Viaggi .

وتلى ظهور الطبعة الايطالية ظهور الترجمتين اللاتينية والفرنسية، وكذلك الترجمة الانجليزية، وأحدث طبعة لوصف افريقية هى الترجمة الفرنسية الحديثة لايبولار.

ثم يأتى بعد ذلك كتب الطبقات وهى نوعين: كتب طبقات عامة مثل (ابن خلكان: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان) **وكتب طبقات عامة** (اقليميا) **خاصة موضوعيا مثل**: طبقات المالكية والشافعية، والحنفية،

---

(١) كراتشكوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٤٥٠، ليون الافريقى، وصف افريقية، جـ٢، ص ٤٦٩.

(٢) ليون الافريقى، وصف افريقية ، جـ١ ، المقدمة ، ص ١٠.

(٣) كراتشكوفسكى، نفس المرجع، ص ٤٥٢.

والحنابلة، وطبقات الصوفية، وطبقات الاطباء والحكماء، واللغويين والنحويين، والقضاة، والفقهاء، وكتب خاصة اقليميا.

وميزة هذه الكتب تتلخص فى أنها تهتم بالتاريخ الاجتماعى والحضارى، أكثر من اهتمامها بالتاريخ السياسى(١). ويهمنا منها الكتب الخاصة بالسودان الغربى.

ويعتبر أحمد بابا التنبكتى ممثلا للنوع الأول (كتب الطبقات الخاصة موضوعيا العامة اقليميا) واسمه بالكامل أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد اقيت المدعو بابا التكرورى الصنهاجى السودانى(٢).

ولد أحمد بابا بقرية اروان بتنبكت فى ٢١ ذى الحجة عام ٩٦٣ هـ / ٢٦ أكتوبر ١٥٥٦ م من عائلة بربرية تنحدر من قبيلة مسوفة(٣).

وهو ينتسب إلى اسرة اشتهرت فى مجال العلم والرياسة فى تلك الحاضرة السودانية. وتعدد فيها العلماء والائمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتى سنة(٤) خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر(٥).

(١) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٦م.

(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص ٣٥، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٥٧ - ٥٨، السلاوى، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، طبع القاهرة، جـ٣، ص ٦٣.

Brock, G.A.L, Vol II, P, 618, Suppl, Vol II, p, 715 - 716, L.Provencal Les historiens de la chorfa, 1923, p, 250 - 251. (Ahmed BaBa).

ويسميه المحبى فى خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر، طبع مصر سنة ١٢٨٤ هـ الجزء الأول، ص ١٧٠ «أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد اقيت، ابن عمر ابن يحيى بن كذالة بن مكى بن نيق بن لف ابن يحيى بن تشت بن تنغر بن حيراى ابن البخر بن نصر بن ابى بكر بن عمر الصنهاجى الماسنى السودانى يعرف بابا صاحب كتاب الديباج.

(٣) المحبى، خلاصة الأثر، جـ١، ص١٧٠.

Brock, G.A.l, Vol II, P, 618, Suppl, Vol II, P, 715, Ency de L'islam, Nouvelle édition, tome I, Levraison 5, p, 288.

(٤) السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ٦٣.

(٥) ency de L'islam , p, 288.

ودرس أحمد العلوم الاسلامية من قرآن وحديث وفقه ونحو وبيان ومنطق وتاريخ وهو يعدد لنا شيوخه ويترجم لهم في مؤلفه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وعلى رأس شيوخه والده وأعمامه وبعض أفراد أسرته[1].

أما أشهر شيوخه الذين يذكرهم فهو شيخه محمد بن محمود بن أبى بكر الونكرى التنبكتى (عرف ببغيغ)، (ولد سنة ٩٣٠ هـ وتوفى ١٠٠٢ هـ)، وقد ختم عليه الموطأ، وتسهيل ابن مالك، واصول السبكى، وألفيه العراقى وصغرى السنوسى، وحكم ابن عطاء الله، ورجز المغيلى، وقرأ عليه أيضا صحيح البخارى، وصحيح مسلم..[2].

وألمت بالأسرة كارثة كبيرة عقب الغزو المراكشى، ودخول جند المنصور السعدى مدينة تنبكت سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢م[3]، ورفضت الأسرة الاعتراف بسيطرة بلاد مراكش، وسئم أهل السودان ملك المغاربة وكانت آذانهم صاغية لآل آقيت، وتخوف السلطان المنصور منهم وربما نمّ اليه بعض اخبارهم، فكتب إلى عامله محمود زرقون بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش[4]. فقبض على عدد كبير منهم الفقيه أحمد بابا «فحملوا مصفدين فى الحديد ومعهم حريمهم ونهبت خزائن كتبهم، وسقط هو (أى أحمد

---

(١) أحمد بابا التنبكتى، نيل الابتهاج، (هامش على كتاب الديباج المذهب لابن فرحون)، الطبعة الأولى، مصر ١٣٢٩هـ، صفحات ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١٠٢، ٢١٨، ٣٦٠، السعدى، تاريخ السودان، صفحات ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ الخ.

(٢) السعدى، تاريخ السودان، ص٤٥، ٤٦.

(٣) السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ٤٣.

Ency de L'islam, tome I, P, 288.

(٤) السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ٦٣، الوفرانى، نزهة الحادى باخبار ملوك القرن الحادى، نشر هوداس، باريز ١٨٨٨، ص ٩٧، السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١٢.

Brock, G. A.L, Vol II, p, 618, Suppl, Vol II, p, 716.

بابا) عن الجمل الذى كان يحمله فانكسرت رجله»، وكان القبض عليهم فى آخر المحرم سنة ١٠٠٢هـ - ووصلوا مراكش أول رمضان سنة ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٤ م. وبقوا فى مراكش مسجونين عامين، وفى سنة ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٦ م اطلق سراح الفقيه أحمد - (ومن معه) - على ان يظل بمراكش، وهناك انقطع أبو العباس للتعليم فى جامع الشرفاء «فتنافس كبار طلبة مراكش فى الأخذ عنه مع كون لسانه معقدا لايفهم الا بعد ممارسة»[1].

وفى ذلك يقول أحمد بابا فى «تكميل الديباج» «ولما خرجت من المحنة طلبوا منى الاقراء فجلست بعد الاباية بجامع الشرفاء بمراكش من أقوى جوامعها، اقرأ مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه، وكذا تسهيل ابن مالك، وألفيه العراقى، فختمت على نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم والسبكى، والحكم والجامع الصغير، قراءة تفهم مرارا وغيرذلك. وازدحم على الخلق وأعيان طلبتها ولازمونى وأفتيت فيها لفظا وكتابة بحيث لاتتوجه الفتوى غالبا الا إلى وعينت لها مرارا، فابتهلت لله أن يصرفها عنى، واشتهر اسمى فى البلاد من سوس الاقصى إلى بجاية والجزائر وغيرهما»[2]. وظل أحمد باب مقيما بمراكش إلى أن توفى المنصور فى سنة ١٠١٦هـ / ١٦٠٧ م، فاذن له ولده وخليفته زيدان - ولمن معه من المنفيين السودانيين فى الرجوع إلى تنبكت[3].

(١) أ.ليفى بروفنسال، نخب تاريخية جامعة لاخبار المغرب لاقصى ، باريز ١٩٤٨، ص ٩٤ «أسر الفقيه أحمد بابا بمراكش «نقلا عن كتاب صفوة من انتشر للافرانى (ربما كان صحة الاسم اليفرنى) (نسبة إلى بنى يفرن).

(٢) بروفنسال، نخب تاريخية جامعة، ص ٩٤، المحبى، خلاصة الاثر، جـ١ ، ص ١٧١ ، ١٧٢، الوفرانى، نزهة الحادى، ص ٩٧، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ٦٣.

(٣) الوفرانى، نزهة الحادى ص ٩٧، ليفى بروفنسال، نخب تاريخية جامعة، ص ٩٤، (نقلا عن الوفرانى، فى صفوة من انتشر)، السلاوى، الاستقصا جـ٣، ص ٦٣
Brock, G. A.L, Suppl, Vol II, p, 716.
=

وفي تلك الفترة قام الفقيه بأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى مسقط رأسه، حيث كرس جهوده للعلم، ومات في ٦ شعبان ١٠٣٦ هـ / ٢٢ ابريل ١٦٢٧م[١].

ولأحمد بابا مايزيد على الاربعين مؤلفا في الفقه المالكي، والنحو ، والموضوعات الأخرى، ولكن أهم مؤلفاته الذى وصلنا كاملا هو كتاب «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» وهو عبارة عن معجم سير لفقهاء المالكية ذيل فيه على كتاب ابن فرحون «الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب» الذى توقفت تراجمه عند سنة ٧٦١هـ. وقد جمع أحمد بابا في مصنفه تراجم لعلماء المالكية ممن ليس في ديباج ابن فرحون، وكذلك زاد في بعض التراجم التي ذكرها، وهو مرتب حسب الحروف الابجدية.

وفرغ من تقييده في سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م بمدينة مراكش[٢].

ومن خلال تراجمه لفقهاء المالكية في بلاد السودان يعطينا فكرة واضحة عن الحياة العلمية والفكرية في هذه البلاد – وخاصة مدينة تنبكت.

ونشر الكتاب في فاس سنة ١٤١٧ هـ.

وطبع في القاهرة ، هامش على كتاب «الديباج المذهب» لابن فرحون، سنة ١٣٢٩.

وللكتاب اسماء أخرى مثل «تكملة الديباج» و «ذيل الديباج» و «توشيح

محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٨٢.

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢٤٤، الترجمة الفرنسية ، ص ٣٧١، السلاوى، الاستقصا ، جـ٣، ص ٦٣.

Brock, G. A.L, Suppl, Vol II, p, 716.Suppl, Vol II, p, 716, Ency de L'islam nouv. Edition, p, 288.

(٢) احمد بابا، نيل الابتهاج، ص ٣٦١.

الديباج» و «اليواقيت الثمنية فى أعيان مذهب عالم المدينة»[1].

«كفاية المحتاج فى معرفة من ليس فى الديباج» وهذا المصنف عبارة عن تهذيب واختصار لكتابه الأول[2].

«اللآلى السندسية فى فضائل السنوسية» أو «المواهب القدوسية فى المناقب السنوسية». و«معراج الصعود» أو «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان»[3] وهو مصنف فى ذم الرق كتبه فى مراكش.

ثم يأتى كتاب « **تذكرة النسيان فى اخبار ملوك السودان**».

ويمثل النوع الثانى (كتب الطبقات الخاصة اقليميا). وهو لمؤرخ غير معروف حفيد الفع محمد بن الأمير صود[4]، ينحدر من سنغى[5]. ويذكر لنا المؤلف أن جد والده اسمه الفع (الفقيه) الأمين بن محمد صود كان يعمل معلم للصبيان[6].

ولد المولف فى سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ فى مدينة تنبكت[7].

والكتاب عبارة عن تاريخ فى صورة تراجم Histoire biographique للباشات المراكشيين الذين حكموا السودان، وكذلك الاساكى من أهل سنغى، والقضاة، وأئمة الجامع الكبير، منذ الفتح المغربى للبلاد سنة ١٠٠٠

---

(1) Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 716.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، الترجمة العربية، ص ٤٥٨.

(3) Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 716.

(٤) تذكرة النسيان فى اخبار ملوك السودان، النص العربى، نشر هوداس، باريز ١٨٩٩، ص ١٤.

(5)Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 468.

(٦) تذكرة النسيان ، ص ٤.

(٧) تذكرة النسيان، ص ٨.

Brock , G.A.L, Suppl, Vol II , p, 468.

هـ / ١٥٩٢م ومجيء القائد جودر، وحتى سنة ١١٦٤هـ ، ١٧٥١م.

والكتاب متأخر عن الفترة التى ندرسها، ولكن أهميته تتلخص فى انه يعطينا صورة واضحة وحية عن الحياة الاجتماعية، والعادات والتقاليد فى بلاد السودان خاصة مدينة (تنبكت). ومن بين الأشياء الهامة التى يرويها لنا قراءة صحيح البخارى فى شهر رمضان؛ ومنزل الإمام بمثابة الحرم. ويحدثنا أيضا عن طريق التعامل بالودع.

ومن بين الظواهر التى حرص على تسجيلها ، حرص على تسجيل مرات سقوس المطر فى تنبكت، واحتفال الناس بذلك[1].

والكتاب مرتب على حروف المعجم.

---

(١) تذكرة النسيان، ص ١٥١.

الباب الأول

الصحـراء والسـودان

الفصل الأول

أ - الصحراء.

ب- السودان

الباب الأول

الصحراء والسودان

الفصل الأول

أ - الصحراء

تمهيد:

ان الكلام عن انتشار الإسلام فى السودان الغربى، يقودنا إلى الحديث عن الصحراء الكبرى فى شمال افريقية. فعبر هذه الصحراء انتشر الإسلام والحضارة الإسلامية من بلاد المغرب إلى بلاد السودان. فالصحراء كانت منذ القدم طريقا للمواصلات والربط بين المغرب وبلاد السودان أكثر منها حاجزا وفاصلا بينهما كما قد يخطىء البعض، وبالتالى كانت همزة الوصل بين المنطقتين مما أدى إلى المزج بين البيضان والسودان منذ أقدم العصور.

امتداد الصحراء:

فالصحراء «الكبرى» شمال افريقية[1]، اذ تمتد من ساحل المحيط الاطلنطى (البحر المتوسط) (موريتانيا) غربا، حتى حدود سودان النيل فى الشرق، أى لمسافة ٤٠٠٠ كيلو متر، كما أنها تمتد لمسافة ١٥٠٠ كيلو متر بين الشمال والجنوب، أى بين أطلس وتمبكتو (تنبكت)[1]. وبذلك يحدها بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) من شمال، وبلاد السودان

---

(1) E.F. Gautier, Le Sahara, Payot, Paris, 1928, p, 9.

(٢) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى - الجوانب الجيولوجية. مصادر الثروة المعدنية. استغلالها. ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى، القاهرة، ١٩٦٣.

من الجنوب[1]. فالصحراء تكاد تعزل كلاً من البلدين وأن كانت فى نفس الوقت وسيلة الربط بينهما.

وقد ميز الجغرافيون المحدثون خصوصا بين الصحراء الشرقية أى الصحراء الليبية والصحراء الوسطى والصحراء الغربية[2].

والعرب أول ما عرفوا السودان المغربى عرفوه عن طريق الصحراء الشرقية، حيث كان هناك طريق يسلك من واحات مصر[3]، ويمر بالواحات الداخله والكفرة[4]، ويتجه إلى السودان الغربى متجها إلى غانه، ومنها إلى أودغشت، فعدل عنه فى القرن الرابع إلى طريق سجلماسة، وذلك بسبب توافر الرياح السافية للرمال على القوافل، وهلاك أكثر من رفقة، وأيضا عدوان اللصوص على القوافل، فأمر ابو العباس احمد بن طولون (حكم من ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م إلى سنة ٢٧٠-٨٨٤م)، بقطع الطريق ومنع أن يخرج عليه أحد[5].

ويورد العمرى (يكتب فى سنة ٧٣٨ هـ) فى «مسالك الأبصار»، رواية

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، نشر كريمر، طبع ليدن، ١٩٣٨، جـ١، ص ٨٣، البكرى، المغرب، نشر دسلان، الجزائر ١٩١١، ص ٢١، أبو الفدا، تقويم البلدان، نشر رينو ودسلان، باريز، ١٨٤٠، جـ١، ص ١٢٢.

(2)Actes du VII Congrés de l'Institut des Hautes-études Marocaines, Compte rendu des séances, p, 9, Hesperis, Tome XI, 1930.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٥٣، حيث يقول: «واما الواحات فانها بلاد كانت معمور بالمياه والاشجار والقرى والروم قبل فتحها، وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذى كان يؤخذ ويسلك قديما من مصر إلى غانة فانقطع ..»، الادريسى، صفة المغرب، ص ٢٢، الاستبصار، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) ادم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام، ترجمة د. عبد الهادى أبوريده، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٧، جـ٢، ص ٤١٣.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٦١، ص ١٥٣.

يفهم منها أن الطريق من مصر إلى بلاد السودان، عبر الواحات اتخذ مرة ثانية. ونص هذه الرواية: «وبلاد مالى وغانة ومامعها يسلك إليها من غربى صعيد مصر على الواحات، فى بر مقفر يسكنه طوائف من العرب ثم من البربر إلى عمران يتوصل منه إلى مالى وغانة ...»(١).

وتوصف الصحراء بأنها موحشة جدبة مقفرة، إلا أن الأمر ليس كذلك فمنابع المياه والواحات تنتشر فى أرجائها، وبفضلها أمكن للرفاق أن تقطع الصحراء من أقصاها إلى أدناها.

أما الصحراء التى ليس فيها ماء ولا خصب إلا القليل فهى صحراء المغرب الأقصى الجنوبية (الصحراء الغربية) موريتانيا الآن - حيث كان يقطن الملثمون - الموصلة بين سجلماسة وغانة.

حدودها :

وهذه الصحراء التى يحدها من ناحية الغرب البحر المحيط، ومن الشرق نهر النيجر عندما ينثنى شمالاً إلى جهة تنبكت ومن الشمال منطقة سجلماسة التى يقال لها اليوم تافيلالت، وبلاد السودان من الجنوب. ويوجد بها الماء القليل الذى يتزود به من مواضع معلومة.

وصف الطرق الموصلة إلى السودان :

ومن أقدم الروايات التى وصلت إلينا، والتى تتكلم عن الصحراء الموصلة بين المغرب وبلاد السودان، رواية البكرى (يكتب فى سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧-١٠٦٨م) على أيام المرابطين. ويصف لنا البكرى «الطريق من وادى

---

(١) العمرى، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١٠٩، والترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٨٠ وهامش ١ حيث يقول جودفروا ديمومبين. «أنه الطريق المعتاد بين مصر والسودان».

درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان، وصفا دقيقا. فمن وادى درعة، على بعد خمس مراحل، وادى تارجا (ترجا عند صاحب الاستبصار)[1]. وهو أول الصحراء، وبعد مسيرة يومين أو ثلاث، يوجد الماء، وبعد ذلك تصل إلى «رأس المجابة»[2]، وبعد هذه المجابة يذكر البكرى عددا من الآبار غير العذبة[3]، قبل الوصول إلى جبل أدرار وزال ومعناه بالبربرية جبل الحديد. ومن هذا الجبل تبدأ «المجابة الكبرى»[4] ويوجد الماء فيها على بعد ثمانية أيام، وبعدها قرية تسمى مدوكن منها إلى غانة مسيرة أربعة أيام.

ويتضمن كتاب البكرى أيضا وصفا «للطريق من مدينة تامدلت إلى مدينة أودغست»[5] فمن مدينة تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة[6] (يبدو من اسمها أنها كانت موقفا لقوافل الجمال التى تجوب الصحراء). وهى بئر عميقة يبلغ عمقها مسافة أربع قامات، وبعد هذه البئر شعب ضيق لايسمح إلا بمشى الأبل بعير أثر بعير، ثم جبل يدعى أزور، وهو جبل متحجر تنسحج

---

(١) البكرى، المغرب، ص.١٦٣، الترجمة الفرنسية لدسلان، ص ٣٠٩، الاستبصار ص ٢١٣.

(٢) «المجابة» تعنى الاجزاء التى تغطيها الرمال المتحركة، والتى ينعدم فيها الماء تماما. الادريسى، الترجمة الفرنسية لكتاب صفة المغرب، ص ٣٧، هامش٢.

(٣) ...... إلى بيو تسمى تزامت وهى بير غير عذبة قد حفرت فى حجر صلد من عمل الأول، وفى الشرق من هذه البئر بئر الجمالين، وبالقرب منها بير تسمى نالى غير عذبة أيضا البكرى، المغرب، ص ١٦٣، الترجمة الفرنسية لدسلان، ص ٣٠٩.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٦٤، الترجمة الفرنسية لدسلان، ص ٣١٠.

(٥) تامدلت: بلد من بلاد المغرب، شرقى لمطة أسسها عبد الله بن ادريس العلوى، وهى كثيرة العمارة حافلة بالأسواق، بينها وبين مدينة درعة مسيرة ٦ أيام فى عمارة متصلة .ابن حوقل ، صورة الأرض، جـ١ ص ٩٢، البكرى، المغرب، ص ١٦٣، الاستبصار، ص ٢١٣، ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد، جـ١ ، ص ٨١٢.

(٦) انظر فيما بعد الفصل الخاص بانتشار الإسلام فى بلاد السودان.

فيه حافر البعير من المشى حتى تحفى. وبعد هذا الجبل ماء يسمى تندفس[1]، وهو عبارة عن أبار على السطح يحفرها المسافرون ولاتلبث أن تنهار، ثم بير كبير يقال لها وين هيلون، وبعدها «أرض سواء صحراء» ربما وجد فيه الماء متبقيا من مياه الأمطار على صفا تحت الرمل[2]، وبعد هذه الصحراء يجد المسافرون ماء يقال له تازقى، وبعده بير احتفرها عبد الرحمن بن حبيب فى حجر صلب، وعمقها أربع قامات، وبعدها مكان يسمى أوكازنت وهو أرض يحفر أهل القوافل عن الماء فيها فيجدونه على عمق ذراعين أو ثلاث ثم تأتى «مجابة رمل معترضة لاماء فيها»، ويستمر الطريق إلى موضع يقال له وانزمين وهو أبار ماء قريبة الرشاء[3]، (وهذا يعنى أن المياه بها قريبة من السطح)، يوجد فيها الماء العذب، ويحف بها جبل طويل صعب. وبعد هذا الماء جبل واران وهى «مجابة فى كثبان رمل». ويذكر البكرى عدداً من الآبار ، وبعدها جبل يدعى أزجوفان، ثم منطقة من الرمال تصل إلى ماء يقال له بئر واران، ومنها إلى أرض تمتلئ بالآبار. وقبل الوصول إلى أودغست يوجد شرف عال مشرف عليها[4]، وتعتبر مدينة أودغست أول بلاد السودان وبينها وبين غانة خمسة عشر يوما[5].

(١) «تندوف، وهى تقع على سفح هضبة درعة، يحتمل أنها انشئت مكان آبار تندفس التى ذكرها البكرى».

- De la chapelle, Equise d'une histoire du sahara accidental, p, 36, note I.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٥٧، «الصفا، العريض من الحجارة الاملس، جمع صفاة، والصفاة الحجر الصلد الضخم الذى لاينبت شيئا». ابن منظور، لسان العرب، جـ ١٤، ص ٤٦٢.

(٣) «والرشاء رسن الدلو»، ابن منظور، لسان العرب، طبعة بولاق، جـ ١٩ ص ٣٧.

(٤) البكرى،المغرب، ص ١٥٧.

(٥) البكرى، المغرب، ص ١٦٨. ويذكر البكرى. «أن المسافة من تامدلت إلى أودغست أربعون مرحلة». البكرى، المعرب، ص ١٥٩.

وأودغست أو (أودغشت)، مدينة فى المغرب الأقصى فى الجنوب فى الصحراء، ويفترض الدكتور بارث، "H.Barth" أن أودغست كانت تقع بين خطى طول ١، ١١ غربى جرينتش، وبين خطى عرض ١٨، ١٩ شمالا، غير بعيد من «قصار» Ksar «وبركة» Barka، أى أنها كانت جنوب غربى موقع تجكة "Tidjika" فى موريتانيا الفرنسية[١].

ويصف لنا الأدريسى (توفى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)، الصحراء التى كان يسلكها المسافرون إلى أودغست وغانة (وهو يستقى معلوماته تلك من بعض الثقات من المسافرين ومن متجولى التجار فى بلاد السودان، ويطلق عليها اسم صحراء نيسر (نيسر - نيستر)، ولعل نيسر تحريف لاسم ينتسر، وهم قبيلة من صنهاجة ذكرهم البكرى عند كلامه عن «الطريق من وادى درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان، قال : «..... ومن هذا بالجبل مجابه ماؤها على ثمانية أيام وهى المجابة الكبرى، وذلك الماء فى بنى ينتسر من صنهاجة .....»[٢]، وهى صحراء قليلة الأنس، لايقطنها أحد، ويوجد بها الماء القليل، ويتزود به من مجابات معلومة، وهذه المجابات تمشى فيها القوافل يومين وأربعة وخمسة وستة واثنى عشر يوما قبل أن تجد الماء[٣]. وإحدى هذه المجابات مجابة نيسر، وهى تقع فى بداية الطريق من سجلماسة إلى غانة وهى ممتدة لمسافة ١٤ يوما لايوجد فيها ماء، وتتزود القوافل بالماء لسلوك هذه المجابات فى الأوعية على ظهور الجمال، وأكثر أرضها رمال تثيرها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان[٤].

(1) G.Yver Awdag ost, encyclopédie de l'islam, Nouvelle édition paris, 1958, Tome I, Livraison 13, p, 50.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٦٤.

(٣) الادريسى، صفة المغرب، ص ٣، الترجمة الفرنسية، ص ٢.

(٤) الادريسى، صفة المغرب، ص ٣، ص ٣١، الترجمة الفرنسية، ص ٢، ص ٣٧.

وفى القرن السابع الهجرى يصف لنا ابن سعيد (توفى سنة ٦٨٥هـ)، الذى ينقله أبو الفدا) الصحراء الواقعة بين سجلماسة وغانة ويطلق عليها اسم صحراء يسر (نيسر عند الإدريسى)، وهى تقع غربى مدينة أودغست. وهذه الصحراء طويلة عريضة «ليس فيها ماء ولامرعى»، ويعانى المسافرون فيها من شدة العطش والحرارة الشديدة، وربما هبت عليهم ريح جنوبية، يكون نتيجتها نشف المياه التى توجد بقربهم، ولذلك يلجئون إلى المياه التى تكون فى بطون الجمال فينحرون بعضها ويترمقوا بما فى بطنة[1].

ويصف ابن بطوطة فى رحلته إلى السودان الغربى (منتصف القرن الثامن الهجرى/١٤م) الطريق الصحراوى الذى قطعه من سجلماسة إلى إيوالاتن[2]، وصفا دقيقا. ويلاحظ أنه رغم بعد الطريق عن العمران إلا أن به بعض مواضع المياه المعروفة.

ومدينة سجلماسة تقع فى شمال وادى درعة، على طرف الصحراء، وتليها المفارة الكبرى التى تفضى إلى غانة من بلاد السودان[3]. وبعد سجلماسة وعلى بعد خمسة وعشرين يوما توجد قرية تغازى (تغاز لدى محمود كعت والسعدى)[4]، وأرضها عبارة عن رمل بداخله معدن ملح

(١) ابو الفدا ، تقويم البلدان، ص ١٣٩.

(٢) ايوالاتن، جمع ولات، يكتب اسمها أيضا فى شلك ولاتن (انظر، أحمد بابا التنبكتى، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون، طبع القاهرة ١٣٢٩هـ، ص ١٦١.

- Gibb, Ibn Battuta travels in Asia and Africa, p, 378, note 6.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٣٧، القلقشندى، صبح الاعشى، ٢٠٠ - ٢٠١، ابو الفدا، تقويم البلدان، جـ١، ص ١٣٧، القلشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ١٦٣.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٣٤، السعدى، تاريخ السودان، ص ١١، والترجمة الفرنسية لهوداس ص ٢١، ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ١٩١، والترجمة الانجليزية لجب، ص ٣١٧.

ولهذا لايوجد بها أشجار، أما ماء تغازى فهو زعاق. أى أقرب إلى الملوحة، ومنها يتزود بالماء لدخول الصحراء التى تليها، والتى تقطعها القوافل وهى تحمل مؤنتها من الماء فى عشرة أيام، إذ لا يوجد فيها الماء إلا نادراً فى بعض الغدران[1]، التى خلفتها الأمطار.

ويلى ذلك تاسرهلا[2]، وهى فيما يبدو محط ذو أهمية للقوافل التى تخترق الصحراء مترددة بين الغرب وبلاد السودان. وهى إحساء[3] ماء تعرس فيه القوافل وتقيم لمدة ثلاث أيام يستجمون ويملئون قربهم بالماء «ويخيطون عليها التلاليس» خوفا من الريح.

وبين تاسرهلا وبين ثغر مالى المسمى أيوالاتن صحراء ذات طبيعة متباينة، رملية مجهلة، لايوجد فيها طريق واضح ظاهر، أو أثر، وإنما هى رمال تقذف بها الرياح، فترمى تلالا من الرمال فى مكان وبعد ذلك تراها قد انتقلت إلى مكان آخر. ولاتهتدى فيها الرفاق، ولايمر الوارد، إلا بالدليل «التكشيف» الخبير من مسوفة الملثمين «الظواعن بذلك القفر» يستأجره التجار فيتقدم إلى أيوالاتن ليعلن قرب وصول القافلة، ويخرج الناس إلى الصحراء للقاء القافلة وهم يحملون قرب الماء للبيع، هذه الرحلة من سجلماسة إلى أيوالاتن تستغرق شهرين وأيوالاتن بالنسبة لابن بطوطة تعتبر أول «عمالة السودان»[4].

---

(١) «جمع غدير، والغدير: كل ماء غودر من ماء المطر فى مستنقع صغيرا كان أوكبيرا». ياقوت، معجم البلدان، طبعة القاهرة، جـ٦، ص ٢٦٩.

(٢) تاسرهلا: يحتمل أن تكون مايدعى لدى الادريسى بئر تيسر فى صحراء ازواد. جب، ترجمة رحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٧، هامش٥.

(٣) الاحساء، جمع حسا، وهورمل يغوص فيه الماء حتى اذا صار إلى صلابة الأرض امسكته فتحفر عنه العرب وتستخرجه.

ياقوت، المشترك وصفا والمفترق صقعا، طبع وستنفلد، جوتنجن، سنة ١٨٤٦، جـ١، ص ١٤، ابو الفداء، تقويم البلدان، جـ١، ص ٩٩، ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٩، الترجمة الانجليزية، ص ٣١٩.

(٤) ابن بطوطه، الرحلة ،ص ١٩٣، الترجمة الانجليزية، ص ٣١٩.

ووصف ابن بطوطة هذا ينبض بالحياة والحركة، وهو ربما لايتميز كالبكرى - بالدقة الوثائقية الشديدة، ولكن أهميته تأتى من أنه نتاج المعاناة والتجربة الشخصية. ونلحظ من وصف ابن بطوطه اختفاء أودغست، المدينة التجارية الهامة، وحلت محلها ولات، التى كانت فى وقت ما، عاصمة لصنهاجة أصحاب اللثام، والتى كانت تعتبر أول بلاد السودان، والحقيقة أن الوهن بدأ يدب فيها ابتداء من القرن السادس من الهجرى / ١٢م، كما نستبين من وصف الأدريسى حيث يقول: «وهى مدينة صغيرة فى صحراء ماؤها قليل وعامرها قليل وليس بها كبير تجارة ولاهلها جمال ومنها يتعيشون[١].

واحات الصحراء همزة وصل بين المغرب والسودان :

وكذلك واحات الصحراء «الكبرى» كانت همزة الوصل بين المغرب والسودان[٢]. فمن بواد (بودى عند ابن خلدون)، (وتقع عند الطرف الشمالى لوادى توات)، (وتوات مجمع القوافل الآتية من بلاد السودان تقع فى قلب صحراء الجزائر الحالية)، يسلك الطريق إلى بلاد هكار، وهى قليلة النبات كثيرة الحجارة، طريقها وعر، ثم إلى كاهر[٣] وهى أرض كثيرة الأعشاب، ومنها إلى تكدا، والطريق يستمر من تكدا إلى كوكو من بلاد السودان[٤]

(١) الادريسى، صفة المغرب،ص ٣٢، الترجمة الفرنسية، ص ٣٨.

(٢) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص٥٥.

(٣) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢٠٧ - ٢١٠، الترجمة الانجليزية، ص ٣٣٥ - ٣٣٨. ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٥٦، «وكاهر هو متغير لاسم اير الذى اطلق على البلد كثيرة التلال المتفرقة السكان والتى تقع إلى جنوب» "in Azawa" أو "Asui" جب ترجمة رحلة ابن بطوطه، هامش ٤٠، ص ٣٨٣.

(٤) مشكلة موقع تكدا لم يتفق عليها حتى الان. ومن المعلوم عموما على أساس تعريف =

وكانت وارجلى (وأرقلان)، وهى تقع فى صحراء الجزائر (صحراء المغرب الأوسط) جنوب بلاد الزاب قبلى بجاية باباالولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان[1].

ومن غدامس (فى صحراء طرابلس)، يدخل إلى تاد مكة وغيرها من بلاد السودان[2] وأيضا من فزان وزويلة (التى يصفها الكتاب العرب بأنها أول حد بلاد السودان)، فى صحراء طرابلس (الصحراء الشرقية)، يدخل إلى بلاد الكانم والبرنو[3].

ثروات الصحراء :

من هذا العرض الخاص بوصف صحراوات المغرب وطرقها الموصلة مابين الشمال والجنوب ومابين الشرق والغرب، نلاحظ أن الصحراء لاتعنى الجدب المطلق فالماء، موجود على طول الطرق وأن تنوعت اشكاله ما بين العذوبة والملوحة ومابين القرب أو البعد من سطح الأرض. ولهذا وجدت الحياة النباتية والحيوانية فى الصحراء متناثرة حسب موارد الماء ومتطورة بالنسبة لطبيعة الأرض ونوع الماء.

= بارث" Barth" لها، انه قرنها بـ "Tegidda n'tismet" ، ٩٧ ميل غرب شمال غرب اغاديس. جب ترجمة رحلة ابن بطوطه، هامش ٣٥، ص ٣٨٢.

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٥١ : ويقول الادريسى عن أهل ورقلان: «..... وهم وهبية اباضية نكار خوارج فى دين الإسلام، ويذكر أن المسافة من ورقلان إلى غانة ٣٠ مرحلة».
الادريسى، صفة المغرب وأرض السودان، ص ١٢١ ، الترجمة الفرنسية لدوزى ودغوية، ص ١٤١ .

(٢) الاستبصار، ص ١٤٥ -١٤٦ ، ياقوت، معجم البلدان، جـ٦ ، ص ٢٦٨ ، ابو الفدا، تقويم البلدان ، جـ١ ، ص ١٤٧ ، القلقشندى، صبح الاعشى ، جـ٥، ص ١٠٨.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٠ ، الاستبصار، ص ١٤٦ ، الادريسى، صفة المغرب، ص ١٣٣ ، ابو الفدا، تقويم البلدان، جـ١، ص ١٤٧ .

الثروة النباتية :

ونباتات الصحراء على وجه العموم خشنة وبعضها لاثمر له مثل شجر الأهليلج، كما توجد بها أشجار الصمغ وشجر الحنا والحيف[١].

الثروة الحيوانية :

ويعتبر الجمل أهم ثروة حيوانية في الصحراء، لأنه أقدر الحيوانات على الحياة في القفر وورود المياه الملحة، وإلى جانب الجمل يوجد اللمط لصبره على العطش[٢] ، وهذا الحيوان «دابة دون البقر لها قرون رقاق حادة[٣]، ويتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية، وهى خفيفة لاينفذ إليها النشاب، ولايؤثر فيها السيف[٤]. ويوجد في الصحراء أيضا الفنك الجيد الكثير، ومنها يحمل جلودها إلى جميع البلاد[٥]. وبها كذلك البقر

(١) البكرى، المغرب، ص ١٥٧- ١٥٨.

(٢) ابو الفدا، تقويم البلدان، جـ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) الاستبصار، ص ٢١٤.

(٤) ابو حامد الاندلسى، تحفة الالباب، نشر وترجمة، G.Ferrand, Journal asiatique .1925, p, 44, trad Franc, p, 249.

(٥) الاستبصار ، ص ٢١٤.

فنك: « بالتأكيد هو نوع من الثعالب الصغيرة جدا فى حجم القط، يسكن المناطق الحارة فى أفريقية من الحبشة ودارفور حتى شمال افريقية فى "Oran" وكان العرب يستخدمون فراءه. ولكن اسم فنك "Fanec" كان يطلق أيضا على حيوانات أخرى أو على الاصح على أنواع آخر من الفراء سواء جاءت من الشمال أو من الوسط ويطلق الفرس فنك على ثعلب بلاد التتار الصغير، الذى يطلق عليه علماء الطبيعة اسم "Canis Carsak" وبالتركية الشرقية «قارساق» On lit dans m: . والفنك حيوان فروته أحسن الفراء واعد لها قيل هو نوع من جراء الثعلب التركى وقيل يطلق على جرو ابن آوى فى بلاد الترك.

Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t.second. p,285.

«ويقول الدميرى فى حياة الحيوان، طبعة التجارية، جـ١ ، ص ٢٢٥»، الفنك، كالعسل دويبه يؤخذ =

الوحشى[1].

وتوجد الحيات فى الصحراء بكثرة «وهى طوال القدود غلاظ الأجسام»، ويصيدها السودان ويطبخونها بالملح والماء والشيح -بعد قطع رؤوسها- ويأكلونها وهى تعد لديهم من أطيب الطعام[2].

الثروة المعدنية :

أما أهم معادن الصحراء فهو معدن الملح، تحفر الأرض لاستخراج الملح، ويوجد الملح تحت قامتين أو أقل من سطح الأرض، ويقطع كما تقطع الحجارة[3].

ويوجد معدن ملح على بعد عشرين يوم من سجلماسة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال (هل هو تغازى عند ابن بطوطة؟) ويشرف عليه - كما يقول البكرى - حصن مبنى بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشازفه وغرفة قد شيدت من كتل الملح[4]. وقد مر ابن بطوطة بتغازى أثناء رحلته إلى بلاد السودان، وتحدث عن بيوتها ومسجدها المشيد من حجارة الملح، وسقفها المبنية من جلود

=

منها الفرو. وقال ابن البيبطار انه اطيب من جميع الفراء، ويجلب كثيرا من بلاد الصقالبة ويشبه ان يكون فى لحمه حلاوة. وهو ابرد من السمور واعدل وامر من السنجاب يصلح لاصحاب الامزجة المعتدلة.

(وحكمه) الحل لانه من الطيبات. ونقل الامام أبو عمر بن عبد البرفى التمهيد عن أبى يوسف انه قال فى الفنك والسنجاب والسمور كل ذلك سبع مثل الثعلب وابن عرس».

(١) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ ٢، ص ١٩٠.

(٢) الادريسى، صفة المغرب، ص ٣١، الترجمة الفرنسية، ص ٣٧ - ٣٨.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٧١، الاستبصار، ص ٢١٤.

(٤) نفس المصادر، السابقة.

الجمال[١]. ويوجد الملح أيضا فى توتك[٢].

وإلى جانب الملح يوجد بالصحراء أيضا معدن الحديد، ويتركز خام الحديد فى بعض الأماكن مثل جبل الحديد (Montagne de Fer) بالقرب من حديقة مركز فورت جورو (فى موريتانيا). وقد أشار البكرى إلى جبل الحديد (فى القرن الخامس الهجرى/ ١١م) عند كلامه عن الطريق من «وادى درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان[٣].

كما يوجد بالصحراء، النحاس وقد مر الرحالة ابن بطوطة فى أثناء رحلته قافلا من مالى إلى فاس (سنة ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٤م)، باير، وقد نزل بأحد الأماكن ويدعى تكدا، وتحدث ابن بطوطة عن معدن النحاس بتكدا قال، «ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الأرض ويأتون إلى البلد فيسبكونه فى دورهم ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضباناً فى طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال...[٤].

---

(١) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩١، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣١٨، ويقول القزوينى فى كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٥ - ٢٦ عن تغازة: «حدثنى الفقيه على الجنجانى انه دخلها فوجد سور المدينة من الملح، وكذلك جميع حيطانها، وكذلك السوارى، والسقوف، وكذلك الابواب فانها من صفائح ملحية مغطاة بشيء من جلد الحيوان كى لايتشعب أطرافها، وذكر أن جميع ماحول هذه المدينة من الأراضى سبخه وفيها معدن الملح....»

(٢) «توتك: معدن ملح (تحت الأرض)، وبين توتك وتادمكة ست مراحل» البكرى، المغرب، ص ١٨٣.

(٣) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى، ص ٢٩٣-٢٩٤، البكرى، المغرب، ص ١٦٤-١٥٦، الدمشقى، نخبة الدهر، فى عجائب البر والبحر، ص ٢٣٩، وانظر ماسبق، ص ٤٢

(٤) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢٠٩.

ب- بلاد السودان

لانجد في كتب الجغرافيين القدماء من المشارقة - (ابن خرداذبة، واليعقوبى وابن الفقيه، والاصطخرى، والمسعودى، والمقدسى) - معلومات كافية عن بلاد السودان بشكل عام وعن سودان المغرب بشكل خاص. ويعلل الاصطخرى (توفى سنة ٣٤٠ هـ) (وينقل عنه ابن حوقل) عدم اهتمامه ببلاد السودان بسبب أنها بلاد جاهلية غير متحضرة، وفى ذلك يقول : «ولم تذكر بلد السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى أعرافهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولاحظ لهم فى شئ من ذلك فيستحقوا أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك ...»[1].

هذا بينما الوضع مختلف بالنسبة للنوبة والحبشة، لاتصال العرب الوثيق خاصة بأرض الحبشة ومعرفتهم بأحوالهم قبل الإسلام. يبدو ذلك واضحا من الأدب التاريخى والجغرافى، فتقول رواية الطبرى أن الرسول ﷺ أمر المسلمين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى

---

(١) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٤-٥. ويقول نص ابن حوقل: «ولم اذكر بلدان السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون فى هذه الخصال ولاحظ لهم فى شىء من ذلك فيستحقوا به أفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك». ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١ ص٩-١٠ وكلمة زنك كلمة فارسية تعنى مصرى، Egyptian، وحبشى Ethiop ، ومور Moor، وأسود Negro .

Steingass, A Comprehenive Persian English dictionnary, Second impression, London, 1936, p, 627.

وفى ذلك يقول ابن خلدون: «الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد، وأن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند ....»، ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٤ «المقدمة الثالثة فى المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى الوان البشر والكثير من أحوالهم»، والترجمة الانجليزية لروزنتال، جـ١ ، ص ١٧١ .

لايظلم أحد بأرضه وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا[١].

ولأن النوبة والحبشة كانتا تدينان بالنصرانية، وكانتا تعرفان نظما وتراتيب إدارية لم يعرفها بقية السودان نظرا لاتصالهما بمملكة الروم. وفى ذلك يقول نص الاصطخرى . «غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة فانهم نصارى يرتسمون بمذاهب الروم وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم... ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم[٢].

لكن مع مرور الوقت أخذ الابهام يتبدد بعد أن اتصل العرب ببلاد السودان، وأزدادت المعلومات عن البلاد وخاصة سودان المغرب لدى الجغرافيين المغاربة بسبب العلاقات الوثيقة بين بلادهم وبين بلاد السودان الغربية. ومن ثم نجد معلومات فى كتب البكرى والأدريسى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين تمدنا بالمعلومات القيمة عن دوله وثرواته وحضارته.

التسمية (بلاد السودان) :

بلاد السودان تعنى بلاد السود (أى الجنس الأسود)، والنسبة هنا «بالسمة والجهة»[٣] وذلك فى مقابلة بلاد البيضان ويقصد بها شمال أفريقية

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، نشر وتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مجموعة ذخائر العرب، طبع دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، جـ٢، ص ٣٢٨. وانظر أيضا، ابن خلدون، العبر، القسم الثانى من الجزء الثانى، ص ٨.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص٥، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠

(٣) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص٥٨ (المقدمة الثالثة فى «المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى الوان البشر والكثير من أحوالهم»، والترجمة الانجليزية لروزنتال، جـ١، ص ١٧٣

(المغرب) والصحراء[١].

والسودان صيغة جمع أسود والمقصود الرجال ذوى البشرة السوداء الذين يعرفون أيضا الأساود؟ وعلى نفس الوزن استخدم العرب كلمة البيضان أى الرجال ذوى البشرة البيضاء[٢].

وبلاد السودان اسم أو مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم شبة الصحراوية فى أفريقية شمال نطاق الغابات الاستوائية، والتى انتشر فيها الإسلام، والواقعة جنوب الصحراد الكبرى.

حـدود السودان :

أما عن حدود بلاد السودان فهى كما يقول الاصطخرى (توفى سنة ٣٤٠هـ) وابن حوقل (توفى سنة ٣٦٧هـ)، من المغرب البحر المحيط (المحيط الأطلنطى) ومن الشرق الصحراء الموصلة بينهما وبين أرض مصر على ظهر الواحات، ومن الشمال الصحراء الممتدة بينها وبين أرض المغرب، وينتهى حد بلاد السودان من ا لجنوب إلى الصحراء التى يقول الجغرافيين المشارقة أنه لايثبت فيها عمارة لشدة الحر...[٣].

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٥٩ (يطلق على البربر اسم البيضان).

(٢) فى القاموس، السواد نقيض البياض سود وساد واسود اسودادا واسود اسويدادا ويحوزفى الشعر اسواد تحرك الالف لئلا يجمع بين ساكنين وهو أسود والجمع سود وسودان»، ابن منظور، لسان العرب، جـ٤ ص٢٠٩.

– وجاء فى القاموس البياض ضد السواد يكون ذلك فى الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقبله غيره – والبيضان من الناس خلاف السودان.

ابن منظور، لسان العرب، جـ٢، ص ٣١٩.

(٣) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١٠-١١، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٥؟-١٦.

– وتقول رواية صاحب كتاب «حدود العالم» عن بلاد السودان: «شرقها وجنوبها مصاقبة للأراضى الجنوبية الخالية من السكان وغربها المحيط الغربى، شمالها الصحراء التى تفصل السودان عن المغرب. وهو اقليم واسع وممتد للغاية ويبلغ حوالى سبعمائة (٧٠٠) فرسخ.

Hudud al Alam the regions of the world A persian geography A.D
=

وتقـول رواية القلقـشندى (توفى سنة ٨٢١هـ/ ١٤٨١م)، عن بلاد السودان أنه يحدها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل اليمن، ومن الشمال الصحراء الممتدة بين مصر وبرقة وبلاد البربر من جنوبى المغرب إلى البحر المحيط، ومن الجنوب الخراب مما يلى خط الاستواء(١).

ويبدو من نص القلقشندى أن العرب كانوا يعتقدون أن خط الاستواء ينهى بلاد السودان، وأن وراءه لايوجد عمران، وهو اعتقاد باطل، ويظن أن هذا التوهم مبعثة أن العرب لم يتوغلوا فى أرض السودان تجاه الجنوب بل اقتصر نشاطهم شمال نطاق الغابات الاستوائية التى تقع جنوب السودان «والتى كانت وسائل النقل والاتصال فيها صعبة جدا إلى وقت قريب بحيث لاتسمح بدخول مؤثر بواسطة الأجانب»(٢).

ومفهوم السودان بهذا الشكل عام وشامل، ويعنى جنوب الصحراء (الكبرى) - ولكن الكلمة عندما استخدمها الجغرافيون العرب المشارقة لم يكن لها هذا المعنى الشامل فقد سموا الأجزاء الشرقية من السودان بأسمائها السياسية المعروفة.

= 372-982 A.D translated and explained by V.Minorsky, Oxford, 1937. "Discourse on Sudan and its towns, p,165.

ويقول الزهرى فى كتاب الجغرافية عن حد بلاد السودان: «البحر الأعظم فى المغرب وحده فى الشرق بحر القلزم وساحل الحبشة، وحده فى الجنوب خط الاستواء وجبال الذهب المسماه بجبال تونا بلسان النوبة، وحده فى الشمال مما يلى المغرب مدينة نول، وفى وسطه مدينة ارمس، وفى شرقه مدينة وارقلان....» الزهرى، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق.

B.d'etudes orientales t. XXI, année 1938, p, 119.

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٧٣.

(2) Fage, an introduction to the history of West Africa, P. 4.

البجـــة :

فالإقليم الموجود فى جنوبى صعيد مصر مما يلى الشرق فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل هوبلاد البجا[١] . وقاعدتهم مدينة سواكن ومن مدن البجا أيضا العلاقى وهى بالقرب من بحر القلزم[٢] .

بلاد النوبـــة[٣] :

تقع فى جنوبى مصر ممايلى المغرب على ضفتى النيل، ويحدها ناحية الشمال مصر ومن الشرق أرض البجـة وبحر القلزم[٤] . وقاعدتهم مدينة دنقلة (دمقلة)[٥] .

مملكة الحبشة :

وهى مملـكة عظيـمـة متسعـة الأرجاء، وأول بلادهـم من الجـهـة الغربـية التكـرور[٦] مما يلى جـهـة اليـمن، وأولهـــا مـن ناحيـة الشـمال

(١) المسعودى، مروج الذهب، طبعة التجارية، جـ٢، ص ١٨ ، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١ ، ص ١٨ ، ابن حوقل، صورة الأرض،جـ١ ، ص ٥٠ ، الادريسى، صفـة المغرب، ص ٢٦ ، ص ٢٧ ، الترجمة الفرنسية لدوزى ودغويه، ص ٥١ ، ص٥٢ القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥ ، ص ٢٧٤.

(٢) اليعقوبى، كتاب البلدان، ص ٣٣٤، المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص ١٨ ، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٢٧٣-٢٧٤ .

(٣) النوبة اشتقاق محتمل من الكلمة الهيروغليفية "Nb" «الذهب» الذى يظهـــر فى القبطيةNoob.

L.P.Kirvan, A survey of Nubian Origins, Sudan notes and records, Vol XX, 1937, part I, p, 47.

(٤) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١١ ، الادريسى، صفة المغرب، ص ١٠ ، ابن خلدون، المقدمة (الفصل الخاص بالجغرافية) ، ص ٥٥، الترجمة الانجليزية لروزنتال، جـ١ ، ص١٢١ ، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٧٥.

(٥) الادريسى، صفة المغرب، ص ١٠ ، ص ١٤ ، العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديمومبين ، ص ٤٧، القلقشندى، صبح الاعشى،جـ٥، ص ٢٧٥.

(٦) ومن المفهوم جيدا أن هذا ليس هو التكرور السودانى. يقترحM.C أن يكون التكرور منطقة فى Metemma ويحددها فى المنطقة الصحراوية للـ«المسالك» فى جزيرة اللبان، ديمومبين، الترحمة الفرنسية لمسالك الابصار للعمرى، هامش٢ . ص٢٢ .

الشرقى بحر الهند واليمن[1].

بلاد الزنـــج :

وهى أطول أراضى السودان، وهى لاتتصل بمملكة غير الحبشة[2]، وهى على بحر الهند[3]، فى مواجهة اليمن وفارس وكرمان إلى أن تحاذى بعض أرض الهند[4].

السودانان الأوسط والغربى :

بعد أن تحددت مسميات الأقاليم الشرقية من السودان بمفهومة العام من البجة إلى النوبة إلى الزنج إلى الحبشة أصبحت حدود السودان الحقيقى عند الكتاب ممايلى الحبشة غربا إلى سواحل البحر المحيط، يفهم ذلك من نص القزوينى (توفى سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، حيث يقول عن بلاد السودان «هى بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهى شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البرارى، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط....»[5].

وابتداء من القرن الخامس الهجرى (١١م)، ميز الجغرافيون العرب الأقاليم الغربية البعيدة من هذا السودان فاطلقوا عليها اسم (سودان الغرب - المغرب). يقول نص البيرونى (توفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م). والبجة على سوادهم لايقال لأرضهم أرض السودان، وذلك أن هذا الاسم يقع فى العرف على

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٠٣.

(٢) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١١، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٦.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ[illegible] ص ١٩٨، (ينقل عن ابن سعيد).

(٤) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ١١، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٦.

(٥) القزوينى آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت ١٩٦٠، ص٢٤.

أرض السودان بالمغرب المجلوب منهم الخدم[١].

ومما يجدر الإشارة إليه أن بلاد السودان فى عرف الجغرافيين المغاربة هى بلاد السودان الغربى.

هكذا كان مفهوم السودان عام تم تحددت الأجزاء الشرقية منه باسماء مميزة مثل الحبشة والزنج وبذلك أصبح السودان يمثل الجناح الغربى من دولة الإسلام فأبن حوقل يقول : «..... فأما مملكة الإسلام فان شرقيها أرض الهند وبحر فارس، وغربيها مملكة السودان السكان على البحر المحيط المتصلين ببرارى أودغست وصحاريها تجاه أوليل[٢]. وبناء على ذلك فاذا كان السودان يمثل الجناح الغربى لدولة الإسلام فان الأقاليم البعيدة منه سميت «بسودان الغرب» لأنها تسامت المغرب ابتداء من فزان شرقا إلى البحر المحيط غربا[٣].

ففى مقابل برقة وأفريقية جنوبا إلى سمت المغرب الأوسط وجدت بلاد الكانم (والبرنو) التى تعادل نيجيريا الشمالية حالية[٤].

وقد ورد اسم كانم لأول مرة فى رواية اليعقوبى (توفى سنة ٣٨٤هـ)، عند ذكره للسودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب، فانهم قطعوا البلاد فصارت لهم عدة ممالك. «فأول ممالكهمم الزغاوة وهم النازلون بالموضع الذى

---

(١) البيرونى، الجماهر فى معرفة الجواهر، الطبعة الأولى، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن سنة ١٣٥٥، ص ١٦٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠.

(٣) ابو الفدا، تقويم البلدان، جـ١، ص ١٤٩، عندما يتكلم عن زويلة يقول انها «من أطراف سودان الغرب»، قاعدة بلاد فزان.

(٤) العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٤٥، القلقشندى صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٨٠، يقول عن الكانم «والكانم بكاف بعدها الف ثم نون مكسورة وميم فى الاخرة». قال فى «مسالك الابصار» وبلادهم بين افريقية وبرقة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط.

يقال له كانم». ويبدو من نص اليعقوبى أن قبيلة زغاوة – التى كانت تجوب الصحراء بين موطن أهل اللثام والنيل – هى التى أسست دولة كانم[1].

أما البرنو وهى منطقة تقع غربى تشاد، فأقدم من ذكر اسمها العمرى (يكتب فى سنة ٧٣٨هـ)، فى كتابة «التعريف بالمصطلح الشريف». هذا ويلاحظ أن العمرى لم يذكر مملكة البرنو فى موسوعته الكبرى «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»[2].

وغربى الكانم فى مقابل المغرب الأقصى تقع بلاد كوكوا ومالى وغانة والتكرور ويصف ابن بطوطة فى رحلته (منتصف القرن الثامن الهجرى/ ١٤م)، إلى بلاد السودان، ذلك الطريق الذى سلكه من أيوالاتن (ولات – بير) إلى مدينة مالى، حاضرة ملك السودان، وصفا دقيقا.

---

(١) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة بيروت، جـ١، ص ١٩٣.

(٢) العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، طبع مصر، ١٣١٢، ص ٢٨، يقول عن صاحب البرنو: «بلاده تحد بلاد ملك التكرور، (مالى)، فى الشرق، ثم يكون حدها فى الشمال بلاد صاحب افريقية ومن الجنوب الهمج».

هذا وقد تعرض العمرى لمملكة البرنو أيضا فى «التعريف» عند كلامه عن (ملك التكرور) قال: «وهو صاحب مالى ... وحد مملكته فى الغرب البحر المحيط، وفى الشرق بلاد البرنو وفى الشمال جبال البربر وفى الجنوب الهمج».

هذا وقد نقل عمر بن ادريس قاعدة بلاده إلى برنو ومنذ ذلك الوقت اصبح اسم مملكة الكانم معروفا بها.

وفى غرب تشاد لازالوا يسمون الكانورى Kanuri باسم برنو، وبدون شك فان تكوين from برنو هو لاشكال برن Baran وبرم Baram وهى جمع بر وتعنى رجل ذكر Male، ومحارب Warrior فى بعض اللهجات الصحراوية, Palmer, Bornu Sahara and Soudan .London, 1936,p,6.

الطريق من أيوالاتن إلى مالى :

والمسافة بين أيوالاتن ومالى (نينى)، يقطعها المسافر المجتهد فى أربعة وعشرين يوما، وتلك الجادة يوجد بها الكثير من الأشجار (وذلك يسميها ابن بطوطة بالغابة). وهى أشجار عظيمة العمر وضخمة بحيث نستطيع القافلة بأكملها أن تستظل بظل أحداها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق، مع ذلك فالظل الذى يلقيه جسمها يكفى بحيث يستظل به إنسان. ورغم أن المياه غير موجودة فى هذه المواضع، إلا أنها كانت توجد فى أماكن ماكان يظن أن تكون فيها، من ذلك مايورده ابن بطوطه من أن بعض تلك الأشجار أستأنس داخلها وتجمع فيه ماء المطر، وأصبحت كبئر، يشرب الناس من الماء الذى يوجد فى داخلها[1]، وهكذا فهى تمكن الجماعات من الاستقرار فى أماكن لايكون بها أبار. وفى أشجار أخر يوجد نحل وعسل نحل، يجمعه الناس.

وهناك نوع آخر من الأشجار يشبه الآجاص والتفاح والخوخ

---

(١) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٥، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٢١ - ٣٢٢ وشجرة الـ Baobab، التى يصل جذعها بسرعة إلى حجم كبير جدا، غالبا مايتم تجويفها صناعيا لتخزين المياه. وهكذا فهى تمكن الجماعات من الاستقرار فى أماكن لايكون بها ابار. وقد ادخلت هذه الاشجار لذلك الغرض إلى السودان الشرقى (كردفان) من غرب افريقية فى القرن الثامن عشر، ولكن وفقا لوصف ابن بطوطه يبدو أن عملية التجويف الصناعية لم تكن قد مورست بعد هناك. الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٧٨، هامش ٧.

- وهناك رواية يوردها القزوينى، صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٧، تذكر نفس الأشجار ولكن فى الطريق من سجلماسة إلى غانة؟ تقول: «.... وحكى الفقيه ابو الربيع الملتانى أن فى طريق غانة من سجلماسة اليها اشجارا عظيمة مجوفة، يجتمع فى تجاويفها مياه الامطار فتبقى كالحياض، والمطر فى الشتاء بها كثير جدا، وتبقى المياه فى تجاويف تلك الاشجار إلى زمان الصيف فالسابلة يشربونها فى مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر اليهم المرور اليها.

والمشمش، وفيها أيضا أشجار تخرج ثمرا يشبه الفقوس. ويستخرج من هذه الأرض حب كالفول[1] وعلى بعد عشرة أيام من أيوالاتن توجد قرية زاغرى[2]، ويستمر الطريق من زاغرى إلى بلدة كارسخو[3] وهى تقع على النهر الأعظم (النيجر) الذى ربط ابن بطوطة بينه وبين النيل)[4]. وقبل الوصول إلى مالى (العاصمة)، يوجد نهر صنصرة وهو على بعد عشرة أميال[5] منها ويجاز فى المعدية إلى مالى، وهى على مسيرة أربعة عشرة يوما من زاغرى.

---

(١) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ١٩٥. Voyages d'ibn Batoutah, texte arabe accompagné d'un tradution par G. Defremery et le D R B. Sangiunetti, Paris, 1949, tome IV, p, 390.

(٢) ابن بطوطه ر، جـ٢، ص١٩٦، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٢٢ زاغزى، قرنها دلافوس Delafosse، بديورا Dioura، وقد اوضح لنا ليبر Lippert انها نفس القرية التى سماها بارث Barth تورسنقه أو سنغا ture- ssangha جنوب شرق باسيكونو أو Bacikounou – الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه ر، ص ٣٧٨، هامش ٩.

(٣) كارسخو اعتبر دلافوس Delafosse انها هى Kara- Sakho أى سوق كارا «قريبة من وتواجه ناحية كونجوكورو Kongokuru الحالية، على الضفة الشمالية من النيجر على مسافة شمال كارا Kara ، جب الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٧٨، هامش ١٢.

(٤) ربط ابن بطوطه بين النيجر والنيل. (ربما عن طريق بحر الغزال) فابن بطوطه على الاقل كان يعتنق اقل وجهتى النظر خطأ التى كان معتقدا فيهما قبل اكتشافات منجو بارك Mungo Park والادريسى، يتبعه ليون الافريقى وكثير من الجغرافيين الاوروبيين الاوائل (القدامى) تخيلوا أن النيجر ينساب غربا (ناحية الغرب) وقرنوه بنهر السنغال. الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٧٩، هامش ١٧.

(٥) ابن بطوطه، جـ٢، ص ١٩٧، الترجمة الانجليزية ، ص ٣٢٣.

اسم صنصرة الذى اطلقه ابن بطوطه على مجرى يقع على بعد ١٠ أميال شمال مالى، وجد بارث Barth. ان الاسم لايزال يطلق على الرافد الصغير الذى يتصل بالنيجر تحت نياميتا Niamina . جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص٣٨٠، هامش ١٩.

الطريق من مالي إلى ميمة :

ومن مالي (العاصمة) يصف الطريق إلى ميمة. فمن مالي يصل إلى خليج كبير يخرج من النيل (النيجر)، لايعبر إلا في المراكب، وذلك المكان يمتلئ بالبعوض، ولايستطيع أحد أن يمر بهذا الموضع إلا بالليل. ثم قرية قرى منسا[١]، ويستمر الطريق من قرى منسا إلى ميمة[٢]، في منطقة يتوفر فيها الماء في آبار خارجها.

يلي ذلك مدينة تنبكتو وبينها وبين النيل (النيجر) أربعة أميال[٣]، ومنها أبحر ابن بطوطة في النيل (النيجر) نزولا من تنبكت إلى كوكو التي يصفها بقوله : «وهي مدينة على النيل من أحسن مدن السودان، وأكبرها وأخصبها فيها الأرز الكثير، واللبن والدجاج، والسمك، وبها الفقوس العناني الذي لانظير له .....»[٤]. ثم ينحدر النيل (النيجر)، من كوكو إلى «مولي»[٥] وهي

---

(١) ابن بطوطه،الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢٠٦، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٣٢. قرى منسا حدد دلافوسDelafosse موضعها قريبا من قريتي كوكرى Kokri ومسمن Massamane الحاليتين، شمال شرق سنسندغ Sansanding وليس بعيدا من المكان السابق الذى حط فيه ابن بطوطه في كارسخو. جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص٣٨١، هامش ٢٩.

(٢) يبدو أن ميمة كانت احدى المدن الرئيسية في المنطقة التي ذكرها ابن بطوطه اعلاه تحت اسم زاغة. وفي العصور اللاحقة فان هذا الاسم قد اطلق على المنطقة اعلى البحيرات (وربما كانت تحتوى البحيرات ايضا، وطبقا لبارث Barth فان موضع ميمة لايزال موجودا، برغم انه اصبح قفرا، على بعد أميال قليلة غرب Lere جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٨١، هامش ٣٠.

(٣) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢ ص ٢٠٦ الترجمة الانجليزية، ص ٣٣٣.

(٤) ابن بطوطه، الرحلة جـ٢ ص ٢٠٧، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٣٤.

(٥) ومولي على مايبدو وهي الاقليم الذى اصبح اسمه فيما بعد مورى Muri على الضفة الشمالية للنيجر قرب Niamey وكانت Qumbri تشغل الضفة المقابلة (وربما كانت Qumburni التي تكلم عنها ابن بطوطه). جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٧٩، هامش ١٤.

مدينة من بلاد الليميين[١] وهي أخر عمل في دولة مالي[٢].

نيل السودان :

مما تقدم رأينا أن ابن بطوطة يسمى نهر النيجر في قلب السودان الغربي بالنيل وكان النيل هو نهر السودان، وهو مفهوم كلمة النيجر باللاتينية. والحقيقة أن النيل يعتبر العمود الفقرى لوحدة البلاد بالنسبة لتصور الجغرافيين العرب. فبلاد السودان - بالرغم من التسميات والتقسيمات المختلفة التى ذكرت فيما سبق - بلاد واحدة والنيل هو عامل الربط بينها جميعاً من الشرق إلى الغرب.

ولابأس من الإشارة إلى أن بعض الجغرافيين المسلمين قالوا بوجود نيل شرقي ونيل غربي. ويقول الأدريسي (الذى ينقله ابن خلدون في المقدمة في الفصل الخاص بالجغرافيا)، أن النيل يخرج من جبل عظيم خلف خط الاستواء يسمى جبل القمر، وهذا الجبل يخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة وبعضها في أخرى، وتخرج أنهار من البحيرتين، فتصب كلها في بحيرة واحدة (يسميها ابن سعيد الذى ينقله أبو الفدا) بحيرة كورى[٣]، ويخرج من هذه البحيرة نهران، يذهب أحدهما إلى ناحية

---

(١) الليميون عند ابن بطوطه، (اعتبرهم دلافوس Marquart , Delafosse سكان منطقة (اقليم) كب. ولكن هناك بالرغم من ذلك مايمكن ان يرجح وجهة نظر Cooley من أن الليميين مرادفة للملم الذين ذكرهم الجغرافيون العرب الاخرون. جب، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطه، ص ٣٧٩، هامش ١٥.

(٢) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٦، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٢٣.

(٣) ابو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٥١، ص ١٥٤--١٦٣ يقول نقلا عن ابن سعيد: البحيرة (اى بحيرة كورى)، (تشاد) [illegible] وسط افريقية، هى التى يخرج منها نيل مصر ومصبه البحر الشامى بحر الروم (البحر المتوسط)، ونيل مقدشو ومصبه فى البحر الهندى (المحيط الهندى)، ونيل غانة ومصبه في البحر المحيط.

الشمال، ويمر ببلاد النوبة.. ويسمى نيل مصر، ويذهب الآخر ناحية المغرب إلى أن يصب فى البحر المحيط وهو نهر السودان (نيل السودان)[1] وهو يشبه النيل فى زيادته ونقصانه وفلاحة أراضية[2]، وربما كان هذا التشابه هو السبب فى تسميته بالنيل

وهكذا لم يفرق الكتاب العرب بين نهرى النيجر والسنغال بل أطلقوا عليهما معا اسم نيل السودان. ولكن الحسن الوزان يعتبر المؤلف الوحيد الذى ذكر نهر النيجر فى كتابة «وصف أفريقية» ، وفى ذلك يقول «فى وسط أرض السود يمر نهر النيجر، الذى يبدأ من صحراء تسمى سو Seu حيث يخرج من بحيرة كبيرة، وطبقا لما يؤكده الجغرافيون عندنا فان النيجر هو فرع من النيل حيث يختفى تحت الأرض ثم يخرج منها ثانية ليكون البحيرة[3].

(1) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٤٧-٤٨، الترجمة الانجليزية لروزنتال ص ١٠١. اما العمرى فى «مسالك الابصار» فيقول عن النيل «.... وحدثنى الشيخ الثبت سعيد الدكالى (وهو ممن أقام بمالى خمسا وثلاثين سنة، مضطربا فى بلادها، مجتمعا بأهلها، قال، «المستفيض ببلاد السودان أن النيل فى أصله ينحدر من جبال سود تبان على بعد كأن عليها الغمائم. ثم يتفرق نهرين: يصب احدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبى، والأخر يصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامى».

قال الشيخ سعيد الدكالى : «ولقد توغلت فى اسفارى فى الجنوب مع النيل فرأيته متفرقا على سبعة أنهر، تدخل فى صحراء منقطعة ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهرا واحدا مجتمعا. كلا الرؤيتين فى بلاد السودان. ولم اره لما اجتمع بالصحراء لاننا لم ندخلها، اذ لم يكن بنا حاجة إلى الدخول إليها.

- العمرى، مسالك الابصار فى ممالك الامصار، نشر وتحقيق أحمد زكى، طبعة دار الكتب، ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م، حـ١، ص ٧٠ - ٧١.

(2) الدمشقى، نخبة الدهر ، ص١١٠.

(3) ليون الافريقى، «وصف افريقية» بالفرنسية، حـ١ ، ص ٥ يقول النص

"Au milienw : la terre des Noirs passe le fleuve Niger qui commencé dans un desert appelé seu. et ou il sort d'un grand lac. d'aprés ce qu' affirment nos geographes le Niger est une branche du Nil qui se perd sous la terre et en ressort pour former ce lac.

وحتى مطلع القرن التاسع عشر كانت افريقية كلها غير معروفة الا قليلاً حتى لقد انشئت سنة ١٧٨٨ فى انجلترا (جمعية تشجيع الكشف داخل افريقية) وقد اتجهت العناية أولا إلى حل مشكلة

النيجر، وقام منجو بارك عن طريق السنغال وغمبيا للوصول إلى باماكو، وانفق عدة أشهرتعلم خلالها الماندنجو لغة أهل البلاد. وعقب ذلك انضم إلى مجموعة من تجار الرقيق وسار معهم في اقليم غامبيا على طول مجرى النهر إلى أن وصل إلى بيسانيا Pisnnia، وهي مركز تجاري كان يقع على غمبيا على بعد ٢٠٠ ميل من النهر، ومنها استمر في طريقه شرقا، بعد أن تغلب على كثير من الصعوبات وفي ٢٠ يوليو ١٧٩٦، وصل إلى مدينة سيجو Segu عاصمة البمبر، حيث رأى النيجر، الذي يصفه بهذه الكلمات: « رأيت بسرور لانهائي الهدف الأساسي من بعثتي، يتمثل أمامي في عظمة النيجر، الذي يتلألأ مع شمس الصباح، والذي يبلغ عرضه مثل عرض نهر التيمز Thames عند وست منستر West munster . والذي يتدفق ببطء ناحية الشرق... أن تدفق نهر النيجر ناحية الشرق .. لم يثر دهشتي حيث كنت مترددا كثيرا بصدده منذ تركت أوربا، ذلك رغم أنني كنت أفضل دائما الاعتقاد بأنه يجرى في الاتجاه المضاد ، ولذلك فقد كنت اعدد الاستعلام عن هذا النهر، خلال تقدمي، وقد تلقيت من سودان Negroes من أمم مختلفة، تاكيدا واضحا أن المسار العام لهذا النهر ناحية شروق الشمس، الأمر الذي لم يترك في ذهني أي شك ...» ومن سيجو Segu اتجه بارك إلى Silla حيث انهى رحلته هناك، وقرر العودة، ويصل إلى قرية كمليا Kamalia، في الحوض الأعلى لنهر السنغال....

ومن Kamalia انضم بارك إلى قافلة من تجار الرقيق واتخذ طريقه إلى ساحل غرب افريقية ليصل من هناك إلى انجلترا، وقد قوبل عند عودته بفتور شديد – فنشر جيمس رنل James Rennel كتابا بعنوان رحلات Travels ناقش فيه «انه من المستطاع التكهن ان نهر النيجر أو كما يسمى نهر جوليبا Joliba ينتهي إلى بحيرات في الجزء الشرقي من أفريقية وأن هذه البحيرات تقع في غانة وونجارة، ولهذا قرر بارك أن يذهب إلى منطقة ونجارة التي تبعد ١,٤٠٠ ميل عن سيجو، لرؤية هذه البحيرات، رغم أنه كان يعتقد أن النيجر ماهو الا رافد من نهر الكنغو، وانه يتفرع من النهر الأخير عند مصبه. وعلى أية حال ففي ٤ مايو ١٨٠٥ قام بارك برحلته الثانية ورافقه حوالي ٤٠ شخصا بدأوا رحلتهم من بيسانيا Pisania وشرقوا في اتجاه النيجر حيث كان يأمل بارك في الوصول اليه قبل بدء الفصل المطير، غير أن أمله لم يتحقق، ووصل إلى بمباكو Bambakoo في ١٩ أغسطس بعد أن بقي من رجاله احياء احدى عشر فقط .. ومن سيجو واصل بارك سيره في نهر النيجر إلى أن غرق هو ورجاله عند جنادل بيسا، بعد أن قام بدور كبير في كشف نهر النيجر.

وبعد موت بارك لم ... المجهودات الكشفية لحل مشكلة النيجر. ففي عام ١٨١٦ . ارسلت رحلة كشفية ذات شقين للوصول إلى النيجر، احدهما ابحرت عن طريق الكنغو Congo تحت قيادة كابتن Tuckey والأخرى تقدمت شرقا من ساحل غرب افريقية متخذه طريقا بريا وتحت

خيرات البلاد :

غلات معدنية :

التـــبر :

كان التبر أهم غلة عند السودان «وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم»[1] (ولكن فى القرن التاسع عشر كانت معادن الذهب تقترب من النفاذ وكان الانتاج ذو قيمة قليلة)[2]. ونسجت الأساطير حول الذهب، وفى ذلك يقول

قيادة كابتن Campbell هذه الرحلة لم تنجح ولم يعد أحد من رجالها، هذا ويجب أن نلاحظ أنه رغم أن خط سير الرحلة السابقة قد وضع على أساس افتراض أن نهر النيجر يصب فى نهر الكنغــو الا أنه فى عــام ١٨٠٣ قــد نشــر أحــد العلمــاء الالمان ويدعى رتشــارد فى مجلة"Ephémerides" رأيه وهو يتــضــمن أن نهــر النيــجــر يصب فى خليج غــانة (Geographiques) وأن الانهــار الموجودة على هذا الســاحل والمعروفة باسمOil rivers ماهى الا فروع لدلتا هذا النهر.

– وفى عــام ١٨٢١ قــام كــابتن كــلابرتون Clappertonودنهام Denham واودنــى Audney برحلة من طرابلس واتجهوا فيها إلى الســودان مع قافلة من التجار. ومن هناك رحل كلا برتون عام ١٨٣٤ إلى بحيرة تشاد حيث أثبت أن نهر النيجر لايصب فيها، كما قام بعدد من الرحلات فى منطقة سكت Sokoto.

– وعقب ذلك حاول كلابيرتون سنة ١٨٢٥ أن يصل إلى نهر النيجر عن طريق ساحل غانة وفى هذه المحاولة نجح فى الوصــول إلى بيــسا Busa واستطاع أحد رفقــاء كــلابيرتون وهو رتشــارد لاندر Richard Lander أن يهــبط فى النيــجر الادنى حتى بلغ خليج غانة سنة ١٨٣٠، وبذلك تأكد لديهم أن النيجر لايصب فى تشاد أو النيل.

H.J. Wood, exploration and discovery, London, 1951, pp, 131-132-133-134-135-136, Bovill the golden trade of the Moors, Chapter 20, p, 208.

ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى، ص ١٢١.

(١) الادريــسى، صفة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩ «والتبر هو الفتات من الذهب والفضة قبل أن يصاغا، فاذا صيغا فهما ذهبا وفضة، والتبرما كان من الذهب غير مضروب فاذا ضرب دنانير فهو عين». ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت، جـ٤، ص ٨٨

(2)Bovill, The golden trade, p, 201.

ابن الفقيه عن بلاد غانة أنه كان «ينبت فيها الذهب نباتا فى الرمل كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس»[1]. هذا بينما يقول نص البيرونى : «وقد يضاف إلى ماقلنا من أساطيرا خرفى نبت الذهب فى تلك البرارى كالخرز وأنه لايعثر عليه إلا عند طلوع الشمس بلمعان شعاعها عليه»[2].

وفى القرن الثامن الهجرى، نجد العمرى (يكتب فى سنة ٧٣٨هـ)، فى كتابه مسالك الأبصار يذكر نفس الرواية عن نبت الذهب، ولكنه يضيف أن هذا النوع من الذهب يوجد فى وقت الربيع عقب هطول الأمطار حيث ينبت فى مواقعها، وله ورق شبيه بالنجيل أصوله التبر[3].

ورغم عدم صحة هذه الرواية، فهى تعبر عن كثرة الذهب فى بلاد غانة التى أطلق عليها الكتاب اسم «أرض الذهب» أو «معدن الذهب».

وتطورت الرواية عن النباتات التى تمنح الذهب فى ألف ليلة وليلة، وفى ذلك تقوم الرواية وصل Boluqqiya إلى جزيرة صغيرة يبدو أن سهلها وجبلها مكونان من البلور. ورأى فيها العروق التى يصنع منها الذهب، وأشجار غريبة لم ير مثلها أبدا فى رحلاته، وكانت لزهورها لون الذهب. ورسا Boluqqia فى هذه الجزيرة، وتنزه فيها حتى المساء، وعندما هبط الظلام، أخذت زهور الجزيرة تلمع مثل النجوم. وسحر Boluqqiya بما يراه على هذه الجزيرة وقال: «أن

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبع ليدن سنة ١٣٠٢، ص ٨٧، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٨١٢، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت سنة ١٩٦٠، ص ١٨.

(٢) البيرونى، كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، طبعة حيدر أباد الدكن ١٣٥٥هـ، ص ٢٤٠.

(٣) العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية، لديمومبين ص ٧٠ - ٧١، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٨٩- ٢٩٠.

زهور هذه الجزيرة هي تلك التي عندما تجففها الشمس وتسقط على الأرض وتحملها الريح تتجزأ تحت الحجارة، وتصبح أكسيرا، وعند ذلك يجمعونها ويصنعون منها الذهب[١]. أما الرواية السودانية - التي أمدنا بها السحرة كمايقول دلافوس Delafosse فهي تتكلم عن أمطار من الذهب جعلها تسقط على وكد ثعبان كمب المقدس[٢]. وتوجد معادن التبر (في غانة)، حول مدينة كوغة، وهذه المدينة كما يقول البكرى هي «أكثر بلاد السودان ذهبا»[٣]. ويوجد أيضا في مدينة غيارو[٤]. وببلاد الفرويين أيضا معادن الذهب، ترابه أحمر، ويستخرج كما يستخرج الحديد والرصاص والنحاس والفضة[٥]، حيث يحفر في معادن الذهب الحفرة عمق قامة أو مايقاربها بها فيوجد الذهب في جنباتها، ربما يوجد مجتمعا في سفل تلك الحفاير[٦].

ويوجد التبر في ونقارة، وهي كما وصفها الأدريسى، جزيرة طولها ٣٠٠ ميل وعرضها ١٥٠ ميل يحيط بها النيل من كل جهة (وكان نيل الأدريسى يسير من الشرق إلى الغرب وكان يشبه بالتأكيد نهر السنغال)[٧]، وفي شهر أغشت (أغسطس)، عندما ترتفع حرارة الشمس، ويفيض النيل، يغطى هذه الجزيرة لمدة معينة، ثم يأخذ النيل في الإنحسار والجزر، والظاهر أنه عندما تفتر

(١) العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديموميين.
Additions, p, 253, p, 71, note 2.
(2) Delafosse, Les Negres, 1927, p, 69.
(٣) البكرى، المغرب، ص ١٧٩، الاستبصار، ص ٢٢٢.
(٤) البكرى، المغرب، ص ١٧٦، الاستبصار، ص ٢٢١.
(٥) الاستبصار، ص ٢١٩.
(٦) العمرى، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١١٠، القلقشندى، صبح الاعشى جـ٥، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.
(7) Bovill, the golden trade of the Moors,p, 194.

قوة الماء الحامل للذهب باقترابه من المستواة فيعجز عن حمله ويحليه للرسوب كما يفهم من رواية البيرونى[١]، ويأتى الناس من بلاد السودان إلى تلك الجزيرة يبحثون عن التبر الذى تركته المياه خلفها، ويبقون هناك حتى يرتفع الماء من جديد[٢].

ويرجح المحدثون أن تكون ونجارة الأدريسى هى حقول الذهب فى بامبوك وبيط، وحقول الذهب هذه لاتقع على جزيرة ولكن البلاد التى توجد فيها تقطعها الأنهار من جهات كثيرة، فى الشمال السنغال وفى الغرب الفلمة وفى الشرقة النيجر، وفى الجنوب التينكسو Tinkisso حتى أنها تصبح قريبة جدا من كونها جزيرة. ولايزال الذهب يستخرج بانتظام بين أرتفاع وانخفاض الفيضانات من يناير حتى مايه تماما كما وصف الأدريسى وأخيرا فان جزءا من البلاد لايزال يطلق عليه جنجارة Gangara جونجارة Gwangara، جبنجارة Gbangara أو جنجارم Gangaram[٣].

---

(١) البيرونى، كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر، الطبعة الأولى حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥، ص ٢٣٦ (فى ذكر اخبار الذهب ومعادنه).

(٢) الادريسى، صفة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩.

ويذكر العمرى فى كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف»، ص ٢٧، رواية عن الذهب شبيهة بما ورد فى الادريسى، يقول: «ونبات الذهب بها (اى بمالى)، يبدأ فى شهر أغشت (أغسطس) وذلك عند أخذ النيل فى الارتفاع والزيادة فاذا انحط النيل تتبع حيث ركب عليه من الأرض فيؤخذ منه ماهو نبات يشبه النجيل وليس به فمن قراميه الذهب ومنه مايوجد كالحصى والأول افحل واخلص واقوم فى العيار».

(2) Bovill, the golden trade of the Moors, p, 194.

وضع ليون الافريقى ونجارة فى الهوسا. كتب جونجارة Guangara تصاقب من أعلى من ناحية الجنوب الشرقى زنفارة Zanfara وهى مأهو له بالسكان، ويوجد ملك يحكمها بمتلك حامية من سبعة الاف من الرماة وخمسة الاف من الفرسان، وهو يحصل على دخل كبير من التجار ومن الضرائب التجارية.

وينطبق أيضا على بامبوك – بيط Bambuk-Burc ماسرده لنا الكتاب المتقدمين عن التجارة. فالسنغال يملأ جميع الاشتراطات الى توفرت فى النهر الذى كان مسرحا للتجارة الصامتة Silent trading وكان النساء يحصلن على الذهب من حفر لايمكن أن تكون إلا مكامن فى الأرض قال ياقوت (توفى

– وقد يعني هذا أن ونجارة كانت جنوب شرق زنفارة أو أن زنفارة كانت جنوب شرق ونجارة. وهذا لعدم وضوح قد حير الكارتوجرافيين الذين قرأوه بعضا منهم بالطريقة الأولى والبعض الآخر بالطريقة الثانية. ولكن الجميع حتى نهاية القرن الثامن عشر وضعوا ونجارة فى الهوسا، على بعد مئات من الأميال شرق المكان الذى تنتمى إليه، وهكذا فانهم عمقوا جوانب الغموض الذى كان يحيط بشخصية ونقارة.

– ولكن ليون كان لديه أكثر من ذلك ليقوله عن ونقارة كتب يقول: كان سكانها أغنياء جدا وكانت لهم تجارة مستمرة مع البلاد المتاخمة، وكانت تقع إلى جنوبهم منطقة وفيرة بالذهب حتى أن تجار جونجارة Guangara كانوا غالبا يرتحلون إلى هذه المنطقة الوفيرة بالذهب، ونظرا لأن الطرق كانت قاسية وصعبة حتى أن جمالهم كانت لاتستطيع أن تخترق هذه الطرق لانهم كانوا يحملون سلعهم عل ظهور العبيد. وتأكيد ليوعلى غنى ونجارته Wangara يدل على أنه كان يعتقد انه يصف ونجارة الادريسى؛ ولكن كان هناك فرقا. بينما كانت الأخيرة (أى ونقارة الادريسى) منتجة للذهب فان ونجارة ليوكانت تحصل على ذهبها من الجنوب، (كما قال آخرون) بلاد «الذباب».

– ونظرا لان ليون قد جاء من الغرب، حيث رأى جزءا كبيرا من تجارة الذهب، فان وضعه لونجارة حيث وضعها مدهش حقا. ومن المحتمل أن الخطأ قد نشأ من ازدواج معنى اسم ونجارة، ومن اطلاقها على شعب وعلى بلد معا. وفى الهوسا فقد كانت هناك جاليات من الماندنجوMandingoes كانوا يعرفون محليا باسم ونجارة أو ونجراوة Wangarawa وفى القرن التاسع عشر طبقا لبارث Barth فانهم كانوا التجار الاساسيين فى كتسينا Katsina وهى ليست بعيدة عن زنفارة، وربما كانوا ناسا مهمين فى عصر ليو، وعندما كان ليوفى زنقارة ربما سمع عن جالية من الونجارة أو المادنجو فى مكان ما إلى الجنوب الشرقى كانوا يتاجرون فى الذهب الذى يوجد فى هذه الانحاء، خصوصا فىGwari وربما قاده هذا إلى الاعتقاد انه كان مجاور الونجارة الادريسى Bovill, the Golden trade of the Moors chapter 19, (Wangara) pp, 198-200.

ليون الافريقى «وصف افريقية»، بالفرنسية، جـ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.

سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)، أن أصحاب المعادن يسكنون فيها[١].

غلات زراعية :

الأبنـــوس :

ويوجد بغانة كما يقول البكرى الأبنوس الجيد المجزع، وهو أكثر نبات أرضهم ومنه يحتطبون[٢].

ويذكر محمود كعت صاحب «تاريخ الفتاش» أنه يوجد فى أرض مملكة مل «شجرة كور التى لاتوجد مثلها فى الأرضين من التكرور إلا أرض برك[٣]، ووجدت كذلك فى أرض سنغى شجرة كنكو ويستخدم خشبها فى البناء[٤].

وإلى جانب ذلك وجد أيضا ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزى (توريرى عند صاحب الاستبصار)، وهى تنبت فى الرمال، ولها ثمر كبير منتفخ، داخله صوف أبيض، تصنع منه الثياب والأكسية، ولاتؤثر النار

---

(١) Bovill, op, cit, pp, 194 - 195. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٨٢١.

(٢) البكرى، المغرب، ص١٧٧، «والابنوس شجر كقطعة حجر على رأسه نبت أخضر وخشبه صلب جدا لايقف على الماء بل يرسب وهو أشبه خشب بالحجر. قال الشيخ الرئيس اذا وضعته على الحجر فاحت منه رائحة طيبة ويجلو الغشاوة والبياض اذا حل بماء واكتحل به واذا احرقت نشارته على طابق ثم غسلت واكتحل به ينفع من الرمد اليابس وجرب العين وقال غيره ينفع من حرق النار ويحل نفخ البطن والله الموفق. القزوينى، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، هامش على كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميرى، طبعة سنة ١٩٦٣، حـ٢، ص ٤

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٣٩، والترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ٦٧.

- كور: وهو اسم اعطى لجوز الكولا فى عديد من لهجات السودان وخاصة فى سنغى تاريخ الفتاش الترجمة الفرنسية، ص ٦٨، هامش ٥.

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص ١١٠.

فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب[1] .

الرقيـــق :

يعتبر الرقيق من أهم حاصلات السودان. (وعن الرقيق – الخدم) انظر فيما بعد الفصل الخاص بانتشار الإسلام فى بلاد السودان.

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٩.

الفصــل الثــانى

أ- سكان الصحراء.

ب- سكان السودان.

الفصل الثانى

أ – سـكان الصحـراء

السـودان

المفروض أن سكان الصحراء من العناصر البيضاء (البربر). لكن المعروف تاريخيا أن الصحراء وواحاتها كانت منذ أقدم العصور، معموره بجماعات من الأحابش (الأثيوبيين) الخلطين[١] وهم السـودان حسب تفسيـر بعض المحدثين[٢].

وهم أناس أصحاب بشرة ضاربة للسواد Au visage brulé نتيجة لعامل البيئة، إذ أسودت بشرتهم بفعل حرارة الشمس. وهم من نحاتى الصوان المهرة، ويقومون بزراعة النخيل فى الواحات[٣]، وكانوا يعيشون فى ظل مناخ قاس فيما يبدو ومثل اليوم[٤]. ويبدو أنهم كانوا يقطنون السفح الجنوبى للأطلس ويريد البعض العثور على أحفادهم فى الجماعة المعروفة بالحراتين "Harratin" فى واحات الغرب، وكانت بينهم وبين البيض (البيضان) علاقات وثيقة[٥]. وكان هذا العنصر يسكن موريتانية[٦] بأجمعها من أول Tiris وكدية أجيل Kediat

(1) Julien, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1915, p. 160, H. Terrasse, Histoire du Macoc, tome I, p. 2 II.

(٢) أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٥٤.

(٣) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠.

(٤-٥) De la chapelle, Esquisse d'une histoire du sahara occidental,Hespéris, tome XI, 1930, Fax I-II, p, 39. وحرتانى Hartani، وجمعها حراتين Hraten اسم اعطى لسودان واحات جنوب مراكش، André Adam, le costume dans quelques tribus de L'Anti-Atlas, Hespéris, p.XXXIX anneé 1952, 3-4 trimestres, p, 482.

(٦) موريطانية :اسم يطلق على اقاليم المغرب الاقصى الخاضعة للدولة الرومانية (ويقول البكرى ان اسم طنجة موريطانية). أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٢، البكرى، المغرب، ص ٢١.

ijjil[1]، والحوض[2]، وثنية النيجر.

غزو البربر الرحل الصحراء :

صنهاجة أهل اللثام. :

ويعتبر بربر صنهاجة الملثمون من أقدم سكان الصحراء، وقد أصحروا عن الأرياف – تبعاً للنصوص العربية – والعمران، وهجروا التلول منذ دهور قبل الفتح الإسلامى[3] وسكنوا القفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، «صاروا، ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا»[4]. (ونكتفى بهذه الإشارة هنا إلى صنهاجة سنعالجها فيما بعد).

هذا ويحدد الكتاب المحدثون بناء على ذلك سكنى البربر، أهل البلاد حاليا فى الواحات والصحراء بالعصر الرومانى بعد أن احتلت روما البلاد، ومع توسع الاستعمار الرومانى الذى استولى على الأرض الخصبة فى الشمال مما ترتب عليه التجاء البربر إلى الأقاليم الجنوبية الفقيرة فى الصحراء، وذلك ابتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى[5].

---

(١) «منطقة شنقال وشمال غرب ادرار».De la chapelle, p, 36, note 2. الكدية من الفعل كدا. ويقال كدت الأرض تكدو كدوا وكدوا، فهى كادية اذا ابطأ نباتها.

والكدية الأرض المرتفعة، وقيل: هو كل شىء صلب من الحجارة والطين «لسان العرب»، جـ٥، ص ٢١٦.

(٢) عبارة ساحل السودانية تعنى المنطقة الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر الأوسط، واقليم الحوض يكون الجزء من الصحراء الذى يقع مباشرة شمال الساحل نفس المرجع السابق، ص ٣٩، هامش٣.

(٣) ابن خلدون ، العبر، جـ٦، ص ١٨١.

(٤) ابن خلدون ، نفس المصدر السابق.

(٥) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٥٤ – ٥٥

وكان لانتشار الجمل واستخدامه على نطاق واسع أثره في إنسيال البربر إلى الصحراء «وتوغل الجمل والبربرى، وأحدهما يحمل الأخر إلى الصحراء. وتغلب الرحل البيض على السود المتوطنين»[١].

وأبتوطن البربر بكثرة جماعاتهم من الشمال، الصحراء كلها تقريبا حتى "inchiri"[٢]، و "Khat"[٣]، والحدود الشمالية للحوض[٤] وفيما بعد فتحت هذه الهجرة الطريق أمام قبائل أخرى استطاعت، بفضل عددها، أن تتغلب رويدا رويدا على صحراء المغرب وأن تدفع الوطنيين (atuoctones) نحو الجنوب. ويبدو أن هذا الغزو قام غالبا على طول المحيط، ومن منطقة درعة وتفللت نحو الحوض وثنية النيجر[٥].

زناتـــة :

تعد قبائل زناته أيضا من أقدم سكان الصحراء، وزناته «تشبه العرب في كثير من الشعائر من بينها : سكنى الخيام وإتخاذ الأبل، وركوب الخيل، والقيام بالرحلتين»[٦]. ومواطن زناته بشكل عام ببلاد النخيل مابين غدا مس والسوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، وأكثرهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته،

---

(١) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠.

(٢) مر من الأرض الصلبة يتجه من الشمال الشرقي إلى ناحية الجنوب الغربي من تلال الـ Ahchar وتلال الـ Amathich ، ويصل منطقة ادرار بساحل المحيط الاطلنطي إلى ناحية نواكشوط Noukchut نفس المرجع De la chapelle ص ٤٩، هامش ٢.

(٣) منخفض يفصل الادرار وتاجنت، نفس المرجع السابق، ص ٤٩، هامش ٣.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ٤٩.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ٤٩ - ٥٠.

(٦) ابن خلدون، العبر، حـ٧، ص ٢.

ومنهم بالمغرب الأقصى أم أخرى»[1]

ويوجد بطون منهم فى واحات الصحراء، مثل : بنووار كلا، فى وار كلا (على بعد ثمان مراحل جنوب بسكره فى جنوب المغرب الأوسط)، وسكانه فى عصر ابن خلدون (القرن ٨ هـ/ ١٤م)، إلى جانب بنى وار كلا، أعقاب أخوانهم من بنى يفرن ومغراوة[2].

وفى قصور توات (على بعد ثلاثة مراحل قبلة سجلماسة)، وتمنطيت، وتيكارين، وتاسبيبت، وتيكدارارين[3]، يوجد بنويامدس (وهم بطن من بطون بنى وماتوا من زناتة)، ووتطغير، ومصاب وبنى عبد الواد وبنى مرين، وهم أهل عدد وعدة «كما يقول ابن خلدون، وفيهم الرجالة والخيالة، ويعتمدون فى معاشهم على بلح النخيل[4]، وتوجد قبائلهم أيضا فى تافيلالت (سجلماسة) حيث توجد قبائل مكناسة[5] وفى هذه القبائل التجار إلى بلاد السودان.

اليهـــود :

إلى جانب صنهاجة اللثام، وزناتـــة، وجد اليهود أيضا فى الصحراء. وتاريخ اليهود فى بلاد المغرب غير واضح تماما. ونعرف عن طريق المصادر الرومانية وجود بعض الجماعات اليهودية فى برقة على وجه الخصوص بين القرنين الأول والثانى للميلاد[6].

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٥١.

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٥٩.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٥٧.

(٥) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ١٢.

(6) Fage, An introduction to the history of west Africa, Cambridge, 1962, p. 13.

وعندما فتح العرب شمال أفريقية فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)، وجدوا الجماعات اليهودية فى جادوا[1]، وفى قابس[2]، واجد ابيه وأهلها الغالب عليهم اليهود كما يقول الأدريسى[3]، وفى أغمات إيلان[4]، وفى سجلماسة[5].

ونجد فى الروايات التاريخية، مكان مرموق لليهود، إذ اهتم الرواة والمؤرخون باليهود فجعلوا لهم مكانة كبيرة فى الصحراء، فى واحات توات، وتمنطيت (تمنطيطة لدى أحمد بابا)[4] وفى وادى درعة، ووادى نون[5].

صنهاجة (أهل اللثام) :

أشرنا فيما سبق إلى أن بربر صنهاجة من أقدم سكان الصحراء، وقد تعددت قبائلهم من كدالة (جدالة)، ولمتونة[6]،ومسوفة[7]، وتريكة وتاوكا وزغارة ثم لمطة[8]، مسراته[9]، وسمسطة، وشرطة[10]، وازواد وبنى وارث،

(١) الاستبصار، ص ١٤٤.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٧٠.

(٣) الادريسى، صفة المغرب، ص ١٣٢.

(٤) الادريسى، نفس المصدر، ص ٦٩، ابو الفداء، تقويم البلدان، جـ١، ص ١٢٤.

(٥) البكرى، المغرب، ص ١٤٨، الاستبصار، ص ٢٠٢.

(6) De la chapelle, Histoirc du sahara occidental, p, 52.

«وقام بحركة الجهاد ضد اليهود فى توات وتمنطيت فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م الإمام العالم محمد بن عبد الكريم المغيلى، وأمر جماعة «فلبسوا الات الحرب»، واتجهوا إلى كنائس اليهود فهدموها، وكان من يقتل منهم يهوديا يعطيه سبع مثاقيل».

احمد بابـ التنبكتى، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، هامش لكتاب الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب لابن فرحون، طبع مصر، ١٣٢٩هـ، ص ٣٣٠-٣٣١.

(6)De la chapelle, Histoire du sahara occidental, p, 52.

(٧) ابن خلدون، العبر، جـ١، ص ١٨١ (ابن حوقل يكتبها فى شكل لموتونا) صورة الأرض جـ١ ص ١٠٥.

(٨) البكرى، المغرب، ص ١٦٩، ابن حوقل، صورة الارض، جـ١، ص ١٠١ (يكتبها فى شكل بنو مسوفا).

(٩) ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، طبعة التجارية، جـ٨، ص ٧٤.

(١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠١ -١٠٥.

وجزوله[1]. وبنى نيتسر[2].

وقبيلة لمتونة أهم هذه القبائل، وفيهم بطون كثيرة، منهم بنو ورتنطق وبنوصولان وبنوناسجة[3]، وهم ظواعن رحالة، وكانت مواطن لمتونة الأولى فى أقاليم تاجنت ومنطقة أودغست (أودغشت)[4]. وعن هذا الطريق قامت هذه القبائل بعد سنة أربعين وأربعمائة بجهاد السودان المجاورين وحملهم على الإسلام[5]. وكانت قبيلة جزولة ولمطة، تسكن المنطقة التى تمتد من وادى سوس إلى مدينة نول لمطة[6]. ويبدو أن مجالاتهم كانت تمتد على الطريق الموصل من تامدلت إلى أودغست[7] في الصحارى المجاورة للبحر المظلم (المحيط الأطلنطى[8])

وكانت قبيلة جدالة رحالة مابين ادرار موريطانية الاطلنطى (البحر المحيط[9])، ولذلك فهى أقرب القبائل إلى غانة وصنغانة[10].

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠١-١٠٥

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٥٧، ابن حوقل، جـ١، ص ١٠٥.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٦٤.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١.
M. Delafosse, les Noirs de L'Afrique, p, 46.

(٥) البكرى، المغرب، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٢٠٠.

(٦) البكرى، ص ١٦١، الاستبصار، ص ٢١٢، «مدينة نول لمطة من بلاد السوس، وهى مدينة كبيرة فى أول الصحراء على نهر كبير يصب فى البحر المحيط، وسميت نول لمطة لان قبيلة لمطة يسكنوها، ومنها إلى وادى درعة نحو ٣ مراحل». الاستبصار ص ٢١٣، البكرى، المغرب، ص ١٦١-١٦٢، الادريسى، صفة المغرب، ص ٦٠.

(٧) البكرى ، المغرب، ص ١٥٧.

(٨) الادريسى، صفة المغرب ، ص ٥٨.

(٩) البكرى، المغرب، ص ١٦٤، Delafosse, les Noirs de L'Afrique, p, 46

(١٠) البكرى، المغرب، ص١٧٢.

وأما قبيلة مسوفة فتمتد مواطنها بين أودغست فى الجنوب وسجلماسة فى الشمال[1] ،فى صحراء موحشة مقفرة[2] ، قليلة الماء ليس لهم مدينة يأوون إلها إلا وادى درعة[3] والملثمون كانوا يعتمدون فى معاشهم على الأبل، يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها مقددة ومطحونة[4] ، إلى جانب تمر الواحات حتى أنهم «لايعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق»[5] ، ولايعرفون حرثا ولازرعا. «وهم بفضل جمالهم يجوبون الصحراء من أدناها إلى أقصاها طولا وعرضا، ينقلون المتاجر والحضارة إلى قلب الصحراء والسودان أو يبحثون عن موارد المياه البعيدة. وحتى أيامنا هذه لوحظ أن الطوارق (حفدة الملثمين) يقودون قطعانهم من الجمال من الحدود المراكشية من إيجيدى Igiudi ومن ريودى أورو (Rio de Oro) للسقيا من نهر النيجر[6] .

وأهم ما تتميز به هذه القبائل هو اتخاذ اللثام. «وكان لايرى من وجوههم غير عيونهم»[7] وأصبح اللثام علما عليهم «تميزوا بشعارة»[8] ، ويبدو أنهم كانوا يتلثمون فى الصحراء لاتقاء الحر والبرد كما يفعل العرب[9] . وقبائل

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠١، ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٢، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣١٧، ص ٣٢٠، السعدى تاريخ السودان، ص ٢٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤٢.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٤٩، الاستبصار، ص٢٠١.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٤٩، الاستبصار، ص ٢٠١.

(٤) ابن حوقل، صورة الارض، جـ١، ص ١٠١، البكرى، المغرب، ص ١٧٠، الاستبصار، ص ٢١٣-٢١٤، ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٢، الترجمة الانجليزية، ص٣١٧.

(٥) ابن حوقل، نفس المصدر، جـ١، ص ١٠١.

(٦) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٥٠

(٧) ابن حوقل، صورة الارض، جـ١، ص ١٠٢.

(٨) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١.

(٩) ابن الاثير، الكامل، جـ٨، ص ٧٦، الدمشقى، نخبة الدهر، ص ٢٦٧.

صنهاجة ترفع نسبها إلى العرب إلى حمير[١] .

توغل صنهاجة في بلاد السودان :

وكثير من قبائل صنهاجة الملثمين زحفت نحو الجنوب، ولقد دفعهم إلى ذلك البحث عن أراض أقل جفافا، وجابوا أكثر المواضع الصالحة للرعى التى كانت تستوطنها الجماعات السودانية، بل ربما أن بعض صعاليك الرمال هؤلاء (كما يسميهم جوليان) قد وصل إلى السودان فى القرن الرابع الميلادى ليؤسس دولة غانة[٢] والروايات السودانية تؤكد ذلك وتقول أن أصل ملوك غانة من صنهاجة [٣].

وتمكن بربر قبيلة لمطة الوثنيون فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى من فرض السيطرة السياسية على السنغى المزارعين على ضفاف النيجر الأوسط[٤] . ولما كان هؤلاء الغزاة من البربر عادة أقل عددا من الشعوب التى غزوها فانهم امتصوا وعبر الزمن ذابت دماؤهم فى دماء أهل البلاد[٥] .

وقبائل صنهاجة من الملثمين كما تقول النصوص «الغالب على ألوانهم السمرة»[٦] إما لعامل البيئة، وذلك لانهم كانوا كلما توغلوا فى الجنوب أزدادوا سوادا «لأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين فى كل سنة ... فيكثر الضوء

---

(١) ابن الاثير، الكامل، جـ٨، ص ٧٤.

(٢) جوليان، تاريخ شمال افريقية، بالفرنسية، ص ١٦٠ .

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٤٢ .

(4) Fage, an introduction to the history of west Africa, p, 27.

- ابن خلدون، جـ٦ ، ص ١٤١ ، يقول عن هوارة «... وكانوا ظواعن وأهلين ومنهم من قطع الرمل إلى بلاد القفر وجاوز لمطة من قبائل الملثمين مما يلى كوكو من السودان تجاه افريقية» .

(5) Fage, op-cit, p, 9.

(٦) ابن الاثير، الكامل، جـ٨، ص ٧٦ .

لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لأفراط الحر[١].

وإما لامتزاجهم بالسودان، عن طريق الزواج، ويؤكد ابن عذارى ذلك عندما يقول عن ابراهيم بن الأمير ابى بكر بن عمر «أما ابراهيم فلم يعرف أمه وكان أسود الجلدة»[٢]. كما يقول أيضا عن ابراهيم بن الأمير يوسف بن تاشفين....» وهو المشتهر بابن تاغيشت وهى أمة سوداء»[٣].

ويقول الدمشقى عن قوم من لمطة أنهم «أشبه بالبربر وبالسودان»[٤]. والواقع أن قبائل صنهاجة (زناجة) الصحراء، قبائل انتقال، وليس من الغريب أن يكون فيهم الدم الأسود، كما يلاحظ الكتاب المتقدمون. وقد أثبتت نتائج الأبحاث الحديثة صحة هذا القول[٥].

وقد أدت الصلة الوثيقة بين قبائل البربر (أهل اللثام) وبين السودان إلى اختلاط الأمر على الكتاب، فهم يعتبرون بعض القبائل بربرية فى رواية، وسودانية فى رواية أخرى، وخاصة من كان يعيش منهم فى مناطق الانتقال بين الصحراء والسودان. ولقد ترتب على ذلك ظهور نظرية عكسية لتحول

---

(١) الاصطخرى، مسالك الممالك، ص ٤٤، ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠٣، ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٤، الترجمه الانجليزية لروزنتال جـ١، ص ١٧٠.

(٢) ابن عذارى، الجزء الخاص بالمرابطين، نشر Huici Miranda, Héspépris Tamuda, Vol II, Fax I, p, 53.

(٣) ابن عذارى، نفس المصدر السابق، ص ٩٠.

(٤) يذكر جوتييه فى كتابه ماضى شمال افريقية، ص ٤٢، «انه من بين الاصول التى يرجع اليها البربر الاصل الزنجى».

(٥) الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، طبعة A. Mehren، ليبزج، ١٩٢٨ ص ٢٤٠.

البيض إلى سودان تعبر عن إمكان تحول جماعات من السودان إلى قبائل من البربر البيض. فيذكر ابن حوقل أن بنى تانماك ملوك تادمكة : «يقال أن أصلهم سودان أبيضت أبشارهم وألوانهم لقربهم من الشمال وبعدهم عن أرض كوكو»[1].

أما فى رواية البكرى والاستبصار فان أهل تادمكة بربر مسلمون وهم ينتقبون كما ينتقب بربر الصحراء[2].

ويضع اليعقوبى والمسعودى، زغاوة، بين قبائل السودان «الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب»، وهم من أبناء كوش بن حام[3].

ويضع ابن خلدون زغاوة بين قبائل صنهاجة الملثمين، فى إحدى الروايات، وفى رواية أخرى نقلا عن ابن سعيد يعتبرهم سودان[4].

وكذلك أهل بغامة يقول عنهم الأدريسى أنهم «سودان برابر احرقت الشمس جلودهم، وغيرت ألوانهم، ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رجالة[5]».

ب- سكان السودان

التسمية (السودان):

مما تقدم يتضح أن مساكن صنهاجة الصحراء هى مناطق انتقال بين

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ١٠٥.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٨١، الاستبصار، ص ٢٢٣.

(٣) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، جـ١، ص ١٩١ - ١٩٣، المسعودى، مروج الذهب، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٤.

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١، ص١٩٩.

(٥) الادريسى، صفة المغرب، ص ١٠، الترجمة الفرنسية، ص ١٢.

العناصر البيضاء من البربر والعناصر الزنجية من السودان.

ولقد عرف العرب سكان الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء بنفس اسم السودان أى الأساود أو السود[1]، فأصبحت الكلمة اسما للمكان فى نفس الوقت.

الأثيوبيون :

يسمى هيرودوت "Herodotus"، سكان الأقاليم الواقعة جنوب ليبيا، بمعنى (شمال أفريقية) بالأحباش (الأثيوبيين)[2].

ويطلق ابن عذارى على سودان غانة اسم حبش غانية[3]، وهى نفس التسمية القديمة التى أطلقها هيرودوت، ويطلق ابن خلدون أيضا على سودان مالى اسم الأحباش[4]. والأثيوبيين الذين تكلم عنهم هيرودوت كانوا سودان Negrés، ولم يكونوا بأى حال من الأحوال أجداداً للحبش الحاليين الذين نطلق عليهم بصفة عامة لفظ الأثيوبيين.

---

(١) انظر ماسبق الفصل الخاص ببلاد السودان.

(٢) من الكلمة اليونانية، وتعنى «أصحاب البشرة المحروقة» وهى مرادفة لكلمة السودان العربية.
A Greek English Lexicon, A new edition. Oxford University Press, 1939, Oxford classical dictionary, p, 339.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الاندلس والمغرب، القسم الثالث، (تاريخ الموحدين)، تحقيق امبروس هويسى ميراندة، ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى، تطوان ١٩٦٣، ص ١٨٠، والترجمة الاسبانية لهويسى ميراندة، جـ١، ص ١٥٠.

(٤) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، نشر محمد بن تاويت الطنجى القاهرة ١٩٥٧، ص ٧٦. يقول فى قصيدة يخاطب بها السلطان ابى سالم المرينى عند وصول هديه ملك السودان وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزرافة «جاءتك فى وفد الاحابش لايرجون غيرك مكرم الوفد».

وهيرودت نفسه يحدد هذا التفصيل بعد ذلك بقليل (نفس الكتاب، LXX) ،عندما وصف الأحباش تحت تعبير الأثيوبيين الشرقيين éthiopiens orientaux وجعلنا نلاحظ أن هناك فرقا بينهم وبين الأثيوبيون الآخرين حيث أن شعورهم مرسلة، بينما السودان أو الأيثوبيون الغربيون الذى يطلق عليهم «أثيوبيون» فقط أو «أثيوبيوليبيا» كانت شعورهم أكثر تجعدا من الناس الأخرين، وهو يضيف أن كلا منهما كان يتكلم لغة مختلفة[1].

أصل السودان :

تتفق رواية ابن عبد الحكم (توفى سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)، واليعقوبى (توفى سنة ٢٨٤هـ / ٩٨٧م) والطبرى (توفى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، ومن نقل عنهم أو حذا حذوهم من الكتاب المغاربة مثل ابن خلدون (وهو ينقل عن ابن سعيد)، على أن حام بن نوح أبو السودان[2] (أى أنهم يكونون الجنس الحامى) وهوأبو كل أسود جعد الشعر[3].

وفى روايات أخرى أن أصل السودان أبناء كوش بن حام[4]. كما تذكر بعض الروايات أن السودان من أبناء كنعان بن حام[5]، وأنهم «أختصوا بلون السودان لدعوة كانت عليه (أى على كنعان) من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما

---

(1) M.Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 22.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، نشر عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٠ - ١١، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، طبع ليدن، جـ١، ص ٢١١، ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبع ليدن ١٨٨٩، ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٩٨.

(٣) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص ٢٢٣.

(٤) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢، ص ٤، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٢، الدمشقى، نخبة الدهر، ص ٢٢٦.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٠.

جعل الله الرق في عقبه. وينقلون في ذلك كما يقول ابن خلدون حكاية من خرافات القصاص التي يفندها، فيقول أن دعاء نوح على أبنه قد ذكر في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لاغير[1].

وربما اعتبرت هذه الدعوة تبريرا لاسترقاق السودان، واتخاذهم عبيدا، وهو يبين أن سبب سوادهم جاء نتيجة للحرارة المتضاعفة في الجنوب[2] هذا عن الروايات المشرقية والمغربية. أما الروايات السودانية فيذكر محمود كعت صاحب «تاريخ الفتاش» أن جد قبيلة «سغي وجد عكري وجد ونكر (ونكر)، كانوا أخوانا شقائق، وأبوهم كان ملكا من ملوك اليمن اسمه تراس بن هارون... »[3]. والنسبة الأخيرة إلى اليمنية تعني أن السودان أصلهم بيضان، وأصلهم من المشرق وأنهم هاجروا إلى أرض السودان في ظروف تاريخية معينة، وهذا ما تقوله الرواية «لما مات أبوهم تولى على المملكة من بعده أخوه فضيق على أبناء أخيه أشد التضييق، فهاجر الأبناء من اليمن إلى ساحل البحر المحيط ....»[4].

ويقول دلافوس Delafosse «أنه قد حدثت هجرات في جميع الاتجاهات، وجاءت عقب حروب محلية، وأوبئة ومجاعات، ودائما في عصر لاحق للعصر الذي ترجع إليه الجماعات محل الدرس بداية تاريخها. وإذا شددنا في

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٣-٨٤، الترجمة الانجليزية لروزنتال، جـ١، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٣-٨٤، الترجمة الانجليزية لروزنتال، جـ١.

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٢٤-٢٥، الترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ٤٠-٤١.

(٤) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٢٥، الترجمة الفرسية، ص ٤١.

سؤال الوطنيين (أهالى البلاد) فانهم سيشيرون دائما إلى مشرق الشمس كممثل للنقطة التى خرج منها أقدم أجدادهم[1]. ويمكن إذن وحتى إثبات العكس، قبول النظرية التى تنادى بأن سود أفريقية ليسوا وطنيين "autochtones"، ولكنهم جاءوا فى هجرات كانت نقطة بدايتها ناحية حدود المحيط الهندى والهادى وأما عن تحديد العصر أو العصور التى تمت فيها هذه الهجرات فمن الأسلم أن نمتنع عن تحديدها. وكل ما يمكن أن نؤكده هو أنه عندما اكتشفت شعوب الشرق القديمة وشعوب البحر الأبيض المتوسط وجود هؤلاء السود الأفريقيين، فان هؤلاء السود الأفريقيين كانوا يقطنون حينذاك، ومنذ وقت طويل بدون شك، نفس المناطق التى نجدهم فيها فى أيامنا هذه، ويبدو أنهم قد فقدوا الذكرى الدقيقة لمكان موطنهم البدائى[2].

وقد وجد الغزاة السود "Négres" الذين تقدموا إلى أبعد نقطة فى اتجاه الشمال، أنفسهم على اتصال مع الوطنيين البدائيين "autochtones primitifs" من الجنس الأبيض فى حوض البحر الأبيض المتوسط الذين كانوا ابتداء من الصحراء الوسطى، فى البلاد التى أصبحت فيما بعد مصر وليبيا، معاصرين لنجريل Negrilles[3]، الصحراء الجنوبية وباقى أفريقية.

(1) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 7.
(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 7.

(٣) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٦. والنجريل Negrilles، كانوا فى لون أوضح وقامة أصغر من قامة السود، ولكنهم بالاضافة إلى ذلك كانوا يختلفون عن هؤلاء بمجموعة من الصفات الأخرى الجسدية، خصوصا فى عدم التناسب بين أحجام الرأس والجذع والأطراف. وقد رفض العلماء أن يسموهم «بالاقزام» وهو الأسم الذى يصلح للأفراد الذين يكونون استثناء فى جنس معين وليس لمجموع هذا الجنس، كما أنهم رفضوا تعبير «قزم»Pygmées، الذى يمثل فى اذهاننا الحجم الصغير جدا للقامة كصفة اساسية، بينما كان هؤلاء الرجال الذين ناخرا مايتعدون ١,٥٥ سم لايقل طولهم عموما عن متر وأربعين سم ١,٤٠سم. ولذا اطلقوا عليهم اسم النجريلNegrilles دلافوس، نفس المرجع، ص ٨.

ولم يكن هذا الاتصال ليتم أوليستمر دون أن ينتج عنه اختلاط وارتباطات بين الشعوب البيضاء فيما قبل التاريخ فى شمال أفريقية والمهاجرين السود الذين خلفوا النجريل Negrilles أو كانوا قد ذابوا معهم جزئياً فى ذلك الوقت[1].

ويظهر امتزاج الأساود بالبيضان فى قبائل (السنغى، سركله Sarakollé (الونكرى)، تكولور (تكرور)، الولف Oulofs (الجلف)[2].

وأثار هذا التخلط métissage تبدو لنا تارة فى المظهر الجثماني أو الفسيولوجي وتارة أخرى فى الكفايات العقلية، وتارة فى اللغة، أو فى هذه العناصر الثلاثة فى نفس الوقت[3].

تقسيم وتوزيع جماعات السودان فى السودان الغربى :

لاشك أنه من الصعوبة بمكان أعطاء صورة مفصلة لتوزيع قبائل السودان فى السودان الغربى، من خلال المصادر القديمة، وذلك لأن الكتاب المشارقة والمغاربة لم يمدونا بمعلومات كافية عن القبائل وتوزيع مواطنها - باستثناء بعضها مثل التكرور - بل تكلموا عنها بشكل عام، لايبين أماكن وجودها بالتحديد، وبعضهم أشار فقط إلى بعض اسمائها. أما الكتاب السودان فقد أوردوا، أسماء هذه القبائل دون أن يهتموا بأعطاء معلومات تفصيلية عنها. ووجهوا معظم عنايتهم إلى الكلام عن الأحداث السياسية للبلاد على أيامهم. وقد استتبع ذلك الاعتماد على المراجع الحديثة.

---

(1) M.Delafosse. Les Noirs de L'Afrquie, p. 16.

(٢) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٧.

(٣) دلافوس، نفس المرجع، ص ١٧

شعوب شمال السودان :

الفلان :

والفلان هم الشعب الوحيد الذى هو من أصل أبيض (أحمر) فى بلاد السودان، وهم رعاة (بقر)، يتجولون فى أكبر أجزاء أفريقية اتساعاً منذ أكثر من ألف عام وهم يكونون احد المجتمعات البدوية النادرة فى أفريقية السوداء[١].

أصل الفلان :

اختلفت الآراء فى أصل الفلان، ومن الجوهرى أن نعرف من أين أتى هؤلاء الرعاة الذين لعبوا دورا هاماً فى تكوين الممالك السوداء ابتداء من السنغال حتى الكمرون الأوسط؟ ويمكن جمع هذه النظريات وهى غالباً من قبيل القصص فى نوعين، الأصول غير الأفريقية والأصل الأفريقى.

الأصل العربى البربرى :

ويرى F. Dubois أن الفلان، قد يكونون احفاد الهنيهن الذين ذكر

---

(١) وكلمة (بول – فلان)، كما يقول، بارث Barth، تعنى «اسمر واضح»، احمر «مناقضا للولوف (الجلف)»، وتعنى أسود، ency de l'islam , Nouvelle édition, tome II, p, 1967. ويطلق عليهم السعدى صاحب تاريخ السودان اسم فلان، والنسبة اليها فلانى وفلانية. ويقول التونسى صاحب كتاب «التشجيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، «وأهل دارفور يسمونهم الفلاتة وفلاتا فى الآخر أصح «التونسي، تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، نشر وتحقيق دكتور خليل عساكر، ودكتور مصطفى مسعد، القاهرة ١٩٦٥م، (مجموعة تراثنا)، ص ٦٣.

ويسمون فولا Fula فى جامبيا وسيراليون، والتسمية الشائعة فى الفرنسية بول Peuls وفى الانجليزية فلانى Fulani ، ويسميهم الحوصا والمور فولانى "Fulani" .

S.Trimingham, I.W:A., p, 11, note 2.

البكرى أنهم «من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية انفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام.. فهم بيض الألوان حسان الوجوه»، ويذكر البكرى أن بسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان[١].

وأيضا هناك النظرية التى تقول أن أصلهم من اليهود السوريين، وقد أيدها منذ نهاية القرن الثامن "Mathews", "Winterbottom" وهما مكتشفا سيراليون. وقد أضاف إليها M.Delafosse، فى كتابة عن السنغال الأعلى والنيجر Haut Sénégal-Niger أراء محتملة قبلت لمدة طويلة فى كل مكان، تقول أن الفلان قد يكونون أحفاد يهود طرابلس وبرقة الذين نعلم أن جزءاً منهم قد هرب إلى الصحراء بعد الاضطهاد الرومانى الكبير سنة ١١٥م، عن طريق فزان والأير وماسنة حتى وصلا إلى المنطقة بين السنغال الأعلى والنيجر التى شغلتها مملكة غانة القديمة[٢]. وأخيراً فان Etienne Richet فى دراسته عن الفلان فى Adamaoua قد أثبت أوجه الشبه الأنثروبولوجية والاجتماعية بين الفلان والإيرانيين القدامى[٣].

الأصل النوبى الأثيوبى :

والأصل النوبى الأثيوبى يبدو أكثر جدية، وقد أيده فى الواقع عدد كبير من المؤلفين أولهم Molien فى رحلته داخل أفريقية فى منابع السنغال وجامبيا سنة ١٨١٨م، حيث يرى أوجه الشبه فى الملامح والطابع والعادات بين الفلان وبرابرة النوبة، وجعل من الأثيوبيين جنسا أحمر. ويربط F. Muller

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٩ . دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية، الطبعة الجديدة، جـ٢، ص ٩٦١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، جـ٢، ص ٩٦١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

الفولفولدى Foulfoulde (لغة الفلان)، بلغة نوبة كردفان، ويرجع الفلان إلى الجنس النوبى أو النوبافولا (Nouba Foula).

وبارث سنة ١٨٥٥ أبدى استعداده للقبول بأن الفلان قد سكنوا أفريقية الشمالية قبل توسع الشعوب البربرية، وهو يشبههم بالـ Pyrrhi Aethiopes عند بطلميوس وهم أثيوبيون (أحباش) أصحاب لون أحمر نحاسي. وأن الفلان الذين أتوا من الشرق الأفريقى قد مرواعن طريق جنوب مراكش (حوالى سنة ١٥٠ ق.م) ثم، تحت ضغط العرب ابتداء من (٧٣٢-٧٥٠م) وصلوا السنغال حيث سكنوا منطقة فوتا طورو Fouta Toro .

وهذه النظرية يؤكدها عام ١٨٦٨م F.Muller ويفترض أن الفلان قد سبق أن شغلوا شمال أفريقية مكان البربر[١].

وتوجد جماعات الفلان فى ماسنة، وتاجنت وفوتاطورو وفوتاجالون Fouta Diallon وتوجد جماعات منها أيضا فى الشرق والجنوب الشرقى فى منطقة ثنية النيجر والحوصا Haousa والـ Adamaoua والبلاد المجاورة لتشاد[٢].

جماعات السنغال :

وتتضمن التكرور والجلف.

وتقول رواية البكرى عن التكرور أنهم سودان[٣] ،و التكرور من أبناء كوش بن حام بن نوح، وتكرور اسم للأرض التى يسكنونها وقد سمى الجنس باسم البلد[٤].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثانى، ص ٩٦١ - ٩٦٢.
(٢) نفس المرجع السابق، ص٩٦٢.
(٣) البكرى، المغرب، ص١٧٢.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، جـ١ ، ص ٨٩١، (طبعة وستنفلد) - ابن خلكان وفيات الاعيان، طبعة التجارية ، جـ٦ ، ص ١٤.

ويقول الدمشقى، أن اسم تكرور يطلق على طائفة يسكنون بلد ايسمى بهذا الاسم وكلهم يرجعون إلى مغراوة وسفارة»[١] . أى أن أصلهم بربر.

والرواية تحوى شيئا من الحقيقة فهى تعبر عن الاتصال الوثيق بين البربر والسودان، وتعبر أيضا عن هجرة البربر إلى بلاد السودان – وهذا الأمر تؤكده الأبحاث الحديثة التى تقول أن التكرور من أصل سودانى مخلط بالدم الأبيض[٢] . (وهم أجداد التكولور الحاليين).

وأهل تكرور (السنغال الآن)،جميعهم مسلمون، بل أنهم من أسبق الشعوب السودانية التى دخلت فى الإسلام.

والتكرور يتجمعون أساساً فى فوتة السنغالية، ويسكنون على جانبى نهر السنغال[٣] . وتنتشر منازلهم أيضا فى أنحاء من أفريقية الغربية، فى منطقة كايس Kayes على السنغال الأعلى، وفى نيورو Nyro، فى ساحل السودان، وفى سيجو Segu على النيجر، وفى بنجاكرة فى ماسنة الشرقية، وفى دنكراى Din-giray إلى الشرق من فوتاجالون[٤] .

---

(١) الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٦٧ – ٢٦٨.

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 17.

--ويطلق على التكرور بالانجليزية Tuculor وبالفرنسية توكولور Toucouleur وتكلر Tuculor وهو تحريف بسيط لاسم هذا الشعب كما تنطق به قبائل ولوف التى تقطن المجرى الادنى لنهر الكنغو، فهم ينطقونه Tokoror أو تكلر Tocolor ، وقد ورد هذا الاسم فى اخبار الرحالة وفى المصورات الجغرافية القديمة توكورل Toucourol ،، وتوكورنى Toucournge ،وتقول العرب تكرور، والنسبة إليها تكرورى، والجمع تكارير. دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، جـ٥، ص ٤٢٧.

(3) Trimingham, I.W.A. p, 13.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٥، ص ٤٢٧.

الجلـــف :

يقول عنهم السعدى أنهم سودانيون[1] (أى من أصل أسود)، وهم «خيار من فى الناس فعلا وطيبة»، وخصهم الله سبحانه وتعالى بالأخلاق الحسنة والسيرة المحمودة، ويتصفون بالنجدة والشجاعة والوفاء[2]. وهم يقطنون مساحة كبيره بين السنغال وغمبيا[3].

جماعات الونكارة (الجنجارة - الونقارة) الماندنج - الملنكة :

وقد ذكرهم البكرى تحت اسم قنقارة (جنجارة)[4] (ومفردها جنجارى) أو «ونقارة -ونجارة»، ويسميهم ابن بطوطة ونجراته[5].

وونجارة يبدو أنه تحريف لاسم الإقليم الأصلى الجنجران Gangaran وجونجران Gwangaran أو جبنجران Gbangran، وأول هذه المسميات جنجران Gangaran، يحتفظ به المور والسركلة، والثانى Gwangaran يحتفظ به السنغى والفلان فى ماسنة والحوصة.

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)، استوطنوا جزءاً من موريتانيا الشمالية ونقابلهم فى منطقة الحوض[6].

وتوجد قبائل الونجارة (الماندنج) فى منطقة النيجر الأعلى، وخاصة فى أعالى باماكو، وحتى سجيورى Siguiri، وأيضا فى داخل هذه المنطقة التى

---

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٧٨، (الترجمة الفرنسية) لهوداس، جـ١٢٨، - ١٢٩.

(٢) السعدى، نفس المصدر، ص ٧٨.

(3) Trimingham, Islam in West Africa, p, 13.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٦٤.

(٥) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٦، الترجمة الانجليزية ،ص ٣٢٢.

(6) Ency de L'Islam, Vol III, p, 254.

تحتوى على مناطق الذهب فى بيط، وكذلك أيضا فى الأقاليم التى يوجد فيها الذهب فى منخفض فليمه Falémé، وفى إقليم بامبوك (بانيغو).

والونقارة (الماندنج) ينتشرون اليوم فى الإقليم الجبلى حيث يخرج فرعى السنغال، ويشغلون جنجران Gangaran إقليم بامبوك، حوض غامبيا فى الجنوب، بينما ينتشرون فى الشمال حتى الصحراء المغربية[1]. والماندنج (الونجارة) معا يكونون سلالة موحدة مميزة جداً.

ونستطيع أن نميز بين ثلاث فروع رئيسية (وهى بدورها تقسم إلى فروع عديدة) الملنكى – البنبر أو البمبر والديولا أو الجيولا[2].

وميز محمود كعت صاحب كتاب تاريخ الفتاش (يكتب فى سنة ٩٢٥هـ) بين ملنكى وونكر قال : «أن ملنكى هو الجندى، وونكر من يتجر ويسعى من أفق إلى أفق»[3]. والملنكى أقل تقدما من الماندنج (الونقارة) من الناحية الاجتماعية، وظل كثير منهم مزارعين وباحثين عن الذهب[4].

تفسير اسم الملنكى :

وقد اشتق أسمهم من فرس البحر ملى Mali أو مارى Mari وإذن كلمة ملنكى تعنى اتباع فرس البحر.

هذا التفسير فيه خطأ لأن مقطع الحرف الأخير «كا Ka» لايمكن أن يضاف إلا إلى اسم بلد أو اسم قبيلة ولايجوز اضافته إلى اسم حيوان، ومن

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤.

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٣٨، الترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ٦٥.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، مجلد ٣، ص ٢٥٤.

المحتمل أن يكون اسم الأقليم الذى كان مهد أصلهم.

لهذا فقد اشتق الاسم من ما Ma : أم، ودنج Deng أو ding : إبن، وعلى هذا الأساس فالكلمة تعنى إبن الأم، إشارة إلى النظام الأموى المتبع عند الماندنج[١].

البمبر :

يقطن البمبر، أودية النيجر وبنى Bâni حتى بحيرة دب Debo، وهم كثيرون على الساحل، زراع وأكثر تقدما من الملنكى. ويعتنقون النظام الأبوى.

تفسير اسم البمبر :

ويقول بنجر Banger أن هذا الاسم مرادف للكلمة العربية كافر، وهم يطلقون على أنفسهم بمنه Bamana أو بمنكة Bamaneka وهو مشتق من نمه Bame ومعناها تمساح، وهو الحيوان الذى يتخذونه طوطما لهم[٢].

بينما يذهب دلافوس إلى أن اسم بمبر أو بنمنه ban-ma-na يعنى الانفصال عن الأم[٣].

الديولا :

الديولا أو الجيولا، يسكنون فى مراكز هامة، وهم غالبا تجار، ونراهم متجمعين فى جاليات صغيرة بين الوطنيين، فى شرق بنى وفى ثنية النيجر وفى فولتا العليا، وساحل الذهب، وقد اعتنقوا الإسلام منذ وقت مبكر[٤].

---

(1) Delafosse, Les Noire de L'Afrique, p, 39, ency de L'Islam, Vol, 11, p, 254.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، بالفرنسية، المجلد الأول، ص ١١٨.

(3) Delafosse, Les Noire de L'Afrique, p, 39.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٤

وعشائر الماندنج الأساسية هي : كيتا (وكان منهم حكام مالى) كنات Konate و Taraore دمبله Dembele، كنت Kante، (كانوا حكاما لسوسو) كولوبالى Kulubali كوروما Kuruma، جـار Diara، Samoka، Mareko، Kamara، Bakayoko، إلى أخره[1].

فولتـا الشمالية :

إن الظاهرة التى تميز شعوب الفولتا (تتكلم لغة الجور)، هى عدم تأثرهم بالإسلام[2]. ويتضمن شعوب الفولتا : الموشى، الداجومبا Dagomba، الكرم "Gurma" "Senufo" بوبو BoBo. وهم يقطنون شرق الماندنج، بين السنغى فى الشمال والغابات فى الجنوب[3].

سنغى (سغى) زرما – دندى :

الشعوب التى تعيش على حافة النيجر الأوسط تكون منطقة انتقالية بين عالم الماند والسودان الأوسط[4].

والسنغى يعيـشـون على طول ثنية النيـجـر من Mopti خـلال منطقـة البحيرات، ومنطقة تنبكت إلى مدينة جاو (كاو).

الزرما يقـيـمـون جنوب كـاو فى (تيانى – دوزو – تيلابرى) (Niamey, Doso, tilaberi وإلى الجنوب منهم يعيش الدندى[5].

(١) دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، المجلد الثالث، ص ٢٥٥.
(2) Trimingham, Islam in West Africa, p, 15.
(3) Fage , An introduction to the history of islam in west Africa p, 6.
(4) Trimingham, op-cit, p, 15.
(5) Trimingham, islam in west Africa, p, 15.

التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد :

يفهم من الروايات التى أمدنا بها الكتاب السودان. أن السودان عرفوا النظام القبلى، وكانت كل قبيلة تنتسب إلى جد أو أب واحد[1]، بمعنى أن الرابطة بين أفراد القبيلة هى رابطة الدم.

ونستطيع تعريف العشيرة بأنها مجموع العائلات المنبثقة من نفس الجد (السلف) البعيد، أو مجموع الخلفاء (الأحفاد) لسلف مشترك يعيشون فى أماكن متفرقة[2].

العائلة يطلق عليها الماندنج (الونكاره)، لو أودو Loû ou doû وتعنى (المسكن العائلى) أو gba أو goua وتعنى (الموطن - الدار) والعشيرة وهى تتكون من عدد من العائلات يسميها نفس الشعب (الونجارة) Niagha أو Niâ، وتعنى «عش»[3].

ولكل قبيلة رئيس. وبعض القبائل التى سبق أن ذكرناها كان يتجاوز شكل القبيلة إلى شكل الأمة أو الشعب، كما هو الحال بالنسبة للونكارة (الماندنج). واسم القبيلة أو العشيرة كان يذكر دائما بعد اسم الشخص.

وهكذا نجد أن عند الماندنج اشخاصا يسمون To diara (أى تو من عشيرة جار) وسن بمبا San Bamba وتعنى سن من عشيرة بمبا وهكذا[4]. واسم العشيرة يذكرنا دائما بأصل هذه العشيرة وظروف تكوينها، فمثلا جار Diâra

(١) محمود كعت - تاريخ الفتاش، ص ٢٤ - ٢٥، ص ٢٨.

(2) Delafosse, Les Civilisations Négro - Africaines, Paris, 1925, p, 60.

(٣) دلافوس، نفس المرجع السابق، ص ٦٠.

(٤) دلافوس، نفس المرجع السابق، ص ٦٣.

هو تصغير لجملة بوراجار (bo-ra diâ- Ra) (أو الذى أتى من ديا Diâ أو ماسة العربيـة)، التى تحتـفظ باسم المكان الذى هاجـر منه الجـد، وكـولوبالى "Kouloubali" (اسم فـعل عن طريق النفى)، وتعنى الذى لم ينقل بواسطة مركب. وتتضمن الإشارة إلى الطريقة العجيبة التى استطاع بها الجد الذى يتبعه الأعداء، أن يضع نهرا بينه وبينهم بفضل سمكة كبيرة نقلته اخترقت به المياه وهوعلى ظهرها. وبمبا Bamba، وهو اسم التمساح، يذكرنا بأن الجد الذى كان على وشك أن يخطفه التمساح فى أحد المغارات، قد هرب منه بفضل Grillon كانت قد حفرت ثقبا فى أعلى الغار، وهى حفرة استطاع الجد بعد توسيعها أن يستعملها للهرب والنجاة.

وسنلاحظ كـما يقـول - دلافوس - فى المثال الأخير حيث تحـمل العشيرة اسم أحد الحيوانات فان هذا الاسم ليس اسم الحيوان الذى تحترمه العشيرة Grillon، ولكنه على العكس اسم الحيـوان الذى استطاع الجد أن يهرب منه بواسطة الحيوان الأول[1].

نشاط قبائل السودان :

يتـضح مما سبق (انظر الفـصل الخاص بسكان الصحراء)، انه اذا كانت الحياة الرعوية: حياة الظعن والرحلة والتجوال، تمثل الحياة العادية المألوفة بالنسبة للبيضـان (البربر)، خاصـة صنهـاجة الصـحراء. فان السـودان كـما يفـهـم من الروايات التى أوردها الكتاب يعتمدون فى معاشهم على الزراعة المقيمـة. وإلى جانب الزراعة وجد الرعى فى البوادى، وكذلك الصيد عند المقيمين بجوار ضفاف نيل السودان (النيجر والسنغال) وروافدهما.

(1) Delafosse, Les Civilisation Négro - Africaines , p, 64

ونجد أربع أنماط من الزراعة طبقا للمناطق، فتوجد الزراعة التى تعتمد على الرى الصناعى (الواحات الصحراوية - ضفاف النيجر والسنغال) التى هى حتى فى الصحراء من عمل السود. وزراعة فصل الأمطار مع تربية الحيوانات، والأخيرة تعتمد على الفلان الرعاة. وزراعة فصل الأمطار بدون القطيع، وتوجد فى السفانا السودانية والمراعى الرطبة. والزراعة الدائمة بوساطة الفأس والحفارة التى تمارس فى منطقة الغابات[١].

الـــزراع

يذكر الادريسى (عن مملكة تكرور)، أن أهل المدن يزرعون البصل والقرع والبطيخ، ولايعرفون من الحبوب الا الذرة وهى غذاؤهم الرئيسى[٢].

ويذكر البكرى (يكتب فى سنة ٤٦٠ هـ)، أن أهل غانة يزرعون مرتين فى العام، وهم يعتمدون فى الزراعة «على ثرى النيل اذا خرج عندهم»[٣].

وإلى جانب مياه النيل يعتمد السودان فى زراعتهم على مياه الآبار العذبة. ويذكر البكرى أن حول مدينة المسلمين فى غانة آبار عذبة منها يشربون ويعتمدون عليها فى زراعة الخضروات[٤].

ويزرعون أيضا القطن (فى مدينة ترنقة)، وهو ليس كثير فى بلدهم، ولكن كما يقول البكرى لايكاد تخلو دار أحد منهم من شجرة قطن[٥].

ويوجد أيضا فى بلد طاقة شجر يسمونه تادموت (وهو شجر الأراك) وله

(1) Trimingham, I.W.A., p, 5.

(٢) الادريسى، صفة المغرب وارض السودان، ص ٥.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٧٧

(٤) البكرى، المغرب ، ص ١٧٥

(٥) البكرى، المغرب ، ص ١٧٣

ثمر كالبطيخ. «يوجد بداخله شيء يشبه القند، وتشوب حلاوته حمضة[1]

هذا عن التكرور وغانة، أما عن مالى، فيرجع الفضل إلى العمرى الذى اعطانا صورة كاملة عن النباتات فيها، ومعلوماته تلك يستقيها من رجال ثقاة ممن خبروا البلاد مثل الشيخ سعيد الدكالى، (وهو ممن يسكن مدينة بنبى (حاضرة مالى) خمسة وثلاثون سنة واضطرب فى هذه المملكة . .) ففى مالى (ملى) انتشرت زراعة الحبوب، وأهمها الأرز، وهو أغلب قوتهم، (وأعمال الرى فى جمهورية مالى مكنت من زراعة كمية كبيرة من الأرز، حتى أن مالى قادرة على تصدير الأرز بدلا من استيراده، كما كانت الحال قبل الحرب العالمية الثانية)، وإلى جانب الأرز يوجد الغوبى يقول العمرى فى «مسالك الابصار»، وهو دق مزغب يدرس فيخرج منه شبيه حب الخردل أو أصغر، وهو أبيض، يغسل ثم يطحن ثم يعجن ويعمل منه الخبز، وعندهم الحنطة وهى قليلة، والذرة، (ويسمون الذرة الدخن، كما يقول ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٨٧)، وهى أكثر الحبوب لديهم ويعتمدون عليها فى معاشهم وعليق خيلهم واطعام دوابهم، ومازال الدخن المحصول الغذائى الرئيسى فى دولة مالى[2]. ويضيف الحسن الوزان (القرن ١٦م)، إلى ماذكره العمرى انه يكثر فى مالى القطن[3].

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٧.

(٢) العمرى، مسالك الابصار، مخطوط دار الكتب رقم ٨، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٦١.

- Harrison church, west Africa, A study of the environment and of Man's use of it, London 1963, (Fourth edition) part three "the political division, chapter 15. Mali-land of Livestock and irrigation works, p, 251, economic resources" "Agriculture".

(٢) العمرى، مسالك الابصار، مخطوط، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديمومبين ص ٦٢ ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ١٩٦، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٨٨.

- Harrison church, op-cit, p, 251.

وعندهم من الفواكه البستانية الجميز وهو كثير لديهم.

وتنمو لديهم اشجار برية ذوات ثمار مأكولة مستطابة، ومنها شجر يسمى زيروز (زبيروز عند القلقشندى)، تخرج ثمرته مثل قرون الخروب، ويخرج منها مايشبه بدقيق الترمس حلو لذيذ الطعم يشبه طعم الموز.

ويوجد أيضا لديهم شجر اسمه فاريتى يحمل شبيه الليمون، وطعمه يشبه طعم الكمثرى، وبداخله نوى يؤخذ وهوطرى ويطحن فيخرج منه شىء شبيه بالسمن، يجمد، ويستعمل فى تبيض البيوت، وتوقد منه السرج والقناديل، ويعمل منه أيضا الصابون[1].

ويزرع لديهم أيضا من الخضروات اللوبيا، واللفت، والبصل، والباذنجان، والكرنب، وتطلع الملوخيا برية عندهم.

ويزرع ايضا عندهم شىء «أسمه القافى»، وهو عروق رقاق تدفن فى الأرض وطعمه شبيه بالقلقاس لكنه ألذ من القلقاس وهو يزرع فى الخلا[2]. ويقول ابن بطوطه وهى عندهم «أى القافى»، مفضلة على سائر الطعام[3].

وفى مملكة سنغى (كوكوا) يزرع الأرز بكميات كبيرة، خاصة فى مدينة كوكو (جوجو) العاصمة[4]. وعليه يعتمدون فى غذائهم.

---

(١) العمرى، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١٠٦، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٦٢، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٨٨.

(٢) العمرى، نفس المصدر السابق، ص ١٠٧، القلقشندى صبح الاعشى جـ٥، ص ٢٨٩.

(٣) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ١٩٧.

(٤) ابن بطوطه، الرحلة، جـ٢، ص ٢٠٧، محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٩٥، ليون الافريقى، وصف افريقية بالفرنسية، جـ٢، ص ٤٧٠

الرعـــاة:

ليست لدينا معلومات كافية عن الرعي في السودان الغربي، ويفهم من رواية أبي الفدا (ينقل عن ابن سعيد)، أن أهل تكرور ينقسمون إلى فريقين: حضر يقطنون المدن، وفريق اخر رحالة في البوادي[1]، وهم من قبائل الفلان التي تعيش على الري وتسكن النجاد[2]. وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي، ولهم في الجنوب اماكن قليلة - على عكس الملنكي والبمبر الذين يشتغلون بالزراعة.

ويقـول العمـري في «مسالك الابصـار» (ومعلـوماته عن دولة مـالي): «واغنامـهم ومعزهم لامرعى لهـا وانما هي جلالات على القمـامـات والمزابل»[3].

هذا بينما تعتبر تربية الحيوانات من مميزات السودان الشمالي - ونظرا لان العمل يتطلب الرحلة فان الفلان هم الذين يقومون به[4].

---

(١) ابو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٥٣.

(٢) ابو الفدا، ص ١٦٣، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (عن تكرور)، جـ٥، ص ٤٢٨.

(٣) العمري، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١٠٧، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٦١.

(4) Trimingham, I.W.A. p, 5.

- ويقول Harrison Church، عن الثروة الحيوانية في مالي. والثروة الحيوانية أكثر أهمية منها في أي بلد في غرب أفريقية، ماعدا نيجيريا. ويوجد على الاقل ثلاثة مليون وتسعمائة ألف (٣,٩٠٠,٠٠٠) رأس ماشية ومعز.

ونظرا لوجود نهر النيجر، وروافده ووجد التسي التسي Tsetse بقربها، فان ماشية Ndama توجد في منطقة بماكو Bamako وفي الغرب والشرق منها، وتوجد ماشية زبو Zebu في شمال خط ١٥ْ - ١٦ْ درجة شمالا، والزيادة في الثروة الحيوانية تعتمد أساسا على زيادة عدد الابار والخزانات. وفي اليد الأخرى فان الأراضي المزروعة تتعارض غالبا مع الطرق التي يسلكها القطيع في الارتحال. ويوجد ارتحال كثيف بين المراعي على طول النيجر وروافده. (وبها كلأ ممتاز من نوع =

الصيــــادون:

يمتهن بوبو (وهم ينتشرون فى جنوب غرب ثنية النيجر من جنى وسن San حتى Bobo Dioulasso) صيد الأسماك، وأيضا سرك Sorko (وهم من السنغى)، وينقسمون إلى عشيرتين فرن Faran وفونو Fono صيادى أسماك وصيادى حيتان بالحربة[1].

المعتقدات الدينية قبل الإسلام:

يفهم من القطع المتناثرة التى أوردها البكرى عن معتقدات السودان الدينية قبل الإسلام، انهم كانوا يدينون بالمجوسية وعبادة الدكاكير (والدكور عندهم

= Gamarwel) ومناطق الرعى فى الشمال والشمال الغربى.

وبجانب الأنواع العادية من الغنم يوجد غنم ماسنة سيجو وتنبكتو فى منطقة الدلتا الداخلية. كما وجدت محاولة لتهجين غنم بخارى Astrakhan مع الاصناف المرباه محليا ولكنها انتهت بالفشل.

وتوجد حركة تصدير هائلة من الماشية إلى دكار Dakar، وساحل العاج Ivory Coast ، وغانة، وعلى درجة أقل إلى ليبريا Liberia ونيجيريا Nigeria ويرسل على الاقل ٣٠ ألف رأس ماشية وحوالى ١٠٠ ألف رأس معز وغنم سنويا إلى نيجيريا وحوالى ٣٠ ألف رأس ماشية و٩٠ ألف رأس من الغنم والمعز إلى غانة، ١٤ ألف رأس من الماشية و ٢٥ ألف رأس من الغنم والمعز إلى ساحل العاج. والمراكز الكبرى لتجميع وتصدير الفراء والجلود وتوجد فى باماكو Bamako وكايس Kayes .

Harrison Church, West Africa, A study of the environment and of Man's use of it, p, 252 - 253.

(١) محمود كعت، تاريخ الفتاش، الترجمة الفرنسية لدلافوس، ص ٤٦، هامش٣. والنص العربى ص ٢٧ حيث يذكرو رواية اسطورية يفهم منها أن هذه القبائل، كانت تمتهن صيد الحيتان يقول: .. «وولدت سور (احدى جوارى نوح عليه السلام) بوبو وسرى ... ولدت سبط سرك ونار فلما كبر الاولاد اذن لهم نوح عليه السلام أن يرتحلوا مع أمهاتهم فينزلوا فى ناحية البحر ويصطادوا حيتانا يعيشوا بانفسهم ويأتوا له بشيء من ذلك الحيتان ...» والترجمة الفرنسية لدلافوس، ص٤٦، هامش٦.

Trimingham, A history of islam in west Africa, p, 84.

الصنم)[1] وربما كان لديهم افكار عن مصير الإنسان، (يدل على ذلك طريقة دفن ملك غانة)[2]، والاعتقاد فى السحر والشعوذة[3].

وفى وصف البكرى لمدينة غانة يقول: «انه كان يوجد حول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم فى نفس الوقت كهنة الديانة، وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس، ولايمكن لأحد دخولها - محاطة بالسرية - ولامعرفة مافيها[4].

وفيما يتعلق بالوثنية، يذكر البكرى، أن فى بلد الدمدم، قلعة عظيمة عليها صنم فى صورة امرأة يتألهون له ويحجونه[5].

ويقول البكرى أن أهل بلد زافقوا، يعبدون حية كالثعبان العظيم لها عرف وذنب، وهى تسكن فى مغارة بالمفازة وعلى مدخل المفازة عريش واحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية ويعلقون نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب[6].

ويقول صاحب تاريخ السودان أن أهل سنغى كانوا مشركين، وكانوا

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٢ - ١٧٦.

(٢) البكرى، المغرب ص ١٧٦، وفى ذلك يقول البكرى: ص ١٧٦ «واذا مات ملكهم عقدوا له قبه عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا فادخلوه فى تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وانيته التى كان يأكل فيها ويشرب وادخلوا فيها الأطعمة والأشربة وادخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه واغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والامتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى لايوصل إلى ذلك الكوم الا من موضع واحد».

(٣) العمرى، مسالك الابصار، المخطوط، ص ١٠٧.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٧٥

(٥) البكرى، المغرب، ص ١٨٣.

(٦) البكرى، المغرب، ص ١٧٣.

يعبدون الحوت الذى يظهر لهم فوق الماء فى البحر والحلقة فى أنفه فى أوقات معلومة، (وقتله زا الأيمن)[١].

ويفهم من رواية السعدى (صاحب تاريخ السودان)، أن أهل مملكة موشى كانوا يقدسون أجدادهم الموتى[٢].

والتنه Tana (المحرم Tabou الطوطم) كما يقول دلافوس، عموما هو أحد الحيوانات التى أنقذ أحد أفرادها جد العشيرة من ظرف عصيب، ولكنه يمكن أن يكون أيضا ولأسباب مشابهة اسم أحد أنواع النباتات (الأرز مثلا أو نوع معين من الأرز) أو نوع من الاشياء المصنوعة (الاقمشة ذات الالوان الزرقاء مثلا).

ويقول دلافوس أن جار Diara كمثال طوطمهم هو الاسد، لأن جدهم الذى كان رضيعا كان على وشك الموت جوعا نظرا لأن أمه لم يكن لديها لبن وقد رضع ثدى لبؤه.

والكوبالى، طوطمهم (محرمهم) السمكة التى انقذت جدهم، والبمبة Bamba الحشرة التى انقذت جدهم من فكى التمساح ... وهكذا[٣].

وفيما يتعلق بالسحر وممارسة الشعوذة، فللسحرة فى السودان وعند البنبر بالذات (وكانوا تحت سلطان مالى)، مهابة كبيرة وهم فى الغالب من طبقة الحدادين وينتظمون فى جميعات سرية، - لانعرف عنها إلى الآن الا القليل - وهؤلاء السحرة يتكهنون بالمستقبل وذلك بفحص امعاء الحيوانات (المضحاة)

---

(١) السعدى، تاريخ السودان، ص ٥٤، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٧-٨.

(٢) السعدى، نفس المصدر، ص ٣٤، الترجمة العربية، ص ١٢٢.

(3) Delafosse, Les Civilisation Négro- Africaines, p. 66.

ويلقون الرعب والفزع فى قلوب السكان وذلك بأعمال الشعوذة والسحر التى يمارسونها، مثل خروجهم ليلافى مواكب خلال القرية، مرتدين الملابس الغريبة اللا معه وعلى رؤسهم قرعات فارغة بها ثقوب، وهذه الاعمال كلها تجعل لهم نفوذا كبيرا بين السكان[١] .

اليهوديـــة والنصرانيـــة:

إلى جانب المعتقدات الدينية الوطنية، عرف السودان اليهودية فالأفكار اليهودية دخلت مع المهاجرين اليهود الذين هاجروا إلى السودان الغربى.

ويرجع أول استقرار ثابت لجماعات (اليهود) من افريقية الشمالية، فى بلاد السودان، كما يرى دلافوس Delafosse، ربما إلى سنة ١١٥م، وذلك عقب ثورة اليهود ضد الحكم الرومانى فى قورينه[٢] . وقد اتخذ المهاجرون طريقين مختلفين: جماعة منهم رحلت جنوبا متخذة طريق اير وخلال النيجر الأوسط إلى السنغال وفوته. وهناك لحقت بهم فيما بعد الجماعة الأخرى التى اتخذت طريق جنوب مراكش (المغرب الاقصى) وأدرار مورطانية، وحدث فى السودان أن ذابت دماء اليهود فى دماء أهل البلاد الذين يمكن أن نلاحظ آثار لدماء اليهودية فيهم[٣] . ويذكر محمود كعت، أن تندرم كان مسكن قوم بنى اسرائيل واجدائهم وآبارهم هنالك إلى الآن (أى إلى أيامه، وهو يكتب فى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، جـ٤، ص ١٨١.

(2) Bovill, The golden trade of the Moors London, Oxford University press, 1961,p, 53, Fage, an introduction to the history of west Africa, p, 14.

(3) Bovill, the golden trade of the Moors, P, 54.

وانظر فيما سبق الكلام عن قبائل الفلان.

سنة ٩٢٥هـ)[1].

اما عن النصراينة فتقول رواية أبو عبد الله بن يحيى الزهرى التى ينقلها صاحب الحلل الموشية، أنه كان سكان السودان الذين كانت عاصمتهم مدينة غانة «متشرعين فيما سلف من الدهر بدين النصرانية إلى سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٦م)[2].

ولكن صحة النص كما ورد فى كتاب الجغرافية لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر الزهرى (المتوفى فى أواسط القرن السادس الهجرى)، الذى قام بنشره وتحقيقه محمد حاج صادق فى Bulletin d'etudes orientales, tome XXI, année 1968, "Damas", 1968.

هو «وأهل هذه البلاد كانوا يتمسكون فيما سلف بالكفر إلى عام ستة وتسعين وأربعمائة (وصحتها عام ٤٦٩ كما هو وارد فى مخطوط الخزانة العامة بالرباط)[3].

وكما يقول دلافوس، «وبدون شك فان التيار المسيحى لم يستطيع كسب السودان أنفسهم، ولكنه من الغريب أن نلاحظ أنه بين الكلمات التى اخذوها

---

(١) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٦٢-٦٣، الترجمة الفرنسية لدلافوس، ص ١١٩-١٢٠ «وتندرم تعبير يعنى الابار الكبيرة».

Monteil, Problemes du soudan occidenal. Juifs et Judaises Hespéris, tome XXXVIII, 3 et 4 trimestres, année 1951, p, 290.

وعن اكتشاف تندرم يحكى بونيل دوميزير انه رأى هناك مقبرة يقال أنها مقبرة اليهود، حيث كانت توجد عظام على مستوى الأرض أما بالنسبة للابار فان الفيضانات المتوالية للنيجر قد غطتها. ولكنه فضى احد هذه الابار وبذلك تأكد من صحة ماورد فى كتاب تاريخ الفتاش.

Monteil, Problemes du Soudan occidental: Juifs et Judaises, p,290.

(٢) الحلل الموشية، ص ٧.

(٣) الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١٢٥.

الباب الثاني

الإسلام في بلاد السودان

الفصل الأول

الإسلام في الصحراء وبداية تعرف العرب علي بلاد السودان

الإسلام في بلاد السودان

الفصل الأول

الإسلام فى الصحراء وبداية تعرف العرب على بلاد السودان

لما كانت صحراء المغرب الكبرى- بفضل واحاتها وعيون مائها – هى وسيلة الربط بين بلاد المغرب وبلاد السودان (انظر ماسبق ص ١٨٠ - ١٨٢ كان من الطبيعى أن يتعرف العرب على بلاد السودان عن طريق الصحراء.

الفتوح العربية فى الصحراوات الليبية وبداية التعرف على الأطراف الشمالية الشرقية للسودان:

ولما كانت فتوحات العرب الأولى فى المغرب قد استهدفت الأقاليم الصحراوية وهى الاقاليم التى تشبه بيئتهم – لم يكن من الغريب أن يتعرفوا على تخوم السودان منذ وقت مبكر. فعندما وجه عمرو عقبة بن نافع سنة ٢٢ هـ[١]، إلى صحراوات برقة الجنوبية تقول رواية ابن عبد الحكم أن عقبة. بلغ زويلة وصار مابين برقة وزويلة للمسلمين[٢].

---

(١) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الحارث بن عامر بن فهر، القرشى، الفهرى، فهو من قريش، ولد على عهد رسول الله، قبل وفاة رسول الله ﷺ بسنة واحدة. دخل عقبة المغرب مع ابن خالته عمرو بن العاص، وكان فى بداية مراحل الشباب، وعهد إليه معاوية بن أبى سفيان بولاية أفريقية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م، وتتركز أهمية ولاية عقبة هذه فى الحملة التى قام بها فى تلك السنة والتى انتهت بتأسيس عاصمة عربية جديدة لولاية أفريقية هى مدينة القيروان. وبنى المسجد الجامع ودار الامارة. وفى الوقت الذى أتم فيه عقبة بناء القيروان اتى الأمر بعزله، وبعد عزله عن أفريقية سنة ٥٥هـ ، اتجه نحو المشرق، ومشى إلى دمشق، والظاهر أنه ظل مقيما بها فترة.. وبعد وفاة معاوية، ولاه يزيد افريقية للمرة الثانية، استشهد فى تهوده سنة ٦٣هـ / ٦٨٢/٦٨٣م.

المالكى،رياض النفوس، ترجمة عقبة رقم (٢٩)، ص ٦٢-٦٣، ابن الأثير أسد الغابة فى معرفة الصحابة، جـ٣، ص ٤٣٢ طبعه القاهرة سنة ١٢٨٦هـ ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص

ويحتمل انه تم تعرف العرب لأول مرة على السودان في زويله، فهي عند الكتاب العرب أول حد بلاد السودان، ويجلب إليها أكثر الخدم السود[1].

وبعث عمرو بن العاص وهو محاصر لأهل اطرابلس بسرا بن أبي أرطأة إلى ودان عاصمة اقليم فزان[2]، وفزان وودان من أطراف السودان.

غزو واحات الصحراء سنة ٤١، ٤٢هـ:

ظلت حملات العرب في صحراوات ليبيا المؤدية إلى السودان مستمرة ففي سنة ٤١هـ يذكر ابن الأثير أن عمرو بن العاص استعمل عقبة بن نافع ابن عبد قيس على أفريقية فانتهى إلى لواته ومزاته فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين كورا من كور السودان. «وافتتح ودان». والمقصود بكور من كور السودان في نص ابن الأثير، هو واحات الصحراء، ويفهم من هذه النصوص، أن واحات الصحراء، كانت معمورة بالسودان.

وفي نفس السنة أيضا (سنة ٤٢هـ) افتتح غدامس[4]، وهي مدينة في الصحراء في قبلة (جنوب) بلاد الجريد على الطريق إلى مملكة الكانم[5].

= ١٩. أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ١٣٤، ص ١٤٢، ١٤٦، ١٥٣، ص ١٦٩.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٣٠، البكري، المغرب، ص ١٠، الاستبصار، ص ١٤٦، ابن الأثير، الكامل، احداث، سنة ٢١، جـ٣، ص٩.

(١) الاصطخري، مسالك الممالك، ص ٤٤، البكري، المغرب، ص ١٠.

(٢) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٦٢، أ.د سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص ٩٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، احداث سنة ٤١هـ، جـ٣، ص ٢٠٩.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص ١٥.

«وغدامس مدينة لطيفة بالمغرب جنوبية، ضاربة في بلاد السودان، وأهلها بربر مسلمون وبغدامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التي كانت بأفريقية، وتدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ.» البكري، المغرب، ص ١٨٢، ياقوت معجم البلدان، جـ٦، ص٢٦٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ١٠٨.

غزوات العرب فى صحروات جنوب طرابلس:

وفى سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م، خرج عقبة من مغمداس من أرض سرت[١] ، ومعه اربعمائة فارس، وأربعمائة بعير، وثمانمائة قربة ماء (لأنه سيعبر صحراء موحشة جرداء، ولابد أن يتزود بالماء)، وكان برفقته بسر بن أبى أرطأة وشريك بن سمى المرادى[٢] ، ووصل ودان[٣]، وخضعت له، ولكن عقبة أخذ ملكهم وصلم أذنه، وأخذ عقبة الضريبة المفروضة على مدينة ودان وهى ٣٦٠ رأسا (ثلاثمائة وستون) رأسا[٤] «وربما كانت من العبيد، خاصة وأن بلاد فزان تعتبر باب السودان من حيث يجلب الرقيق»[٥]. ويلاحظ الوصول إلى ودان هنا لثالث مرة؟ والهدف من مواصلة غزو نفس المنطقة هو: الاستقرار السياسى، ونشر الإسلام.

ثم سأل عقبة أهل ودان عما وراءهم من البلاد فقالوا جرمة (عاصمة الجرميين Garamantes القديمة). فسار متوجها إليها ووصلها بعد مشى ثمانى ليال، فلما اقترب منها وأصبح على مسافة ستة أميال،دعا أهلها إلى الدخول فى الإسلام فوافقوه، وخرج ملك المدينة كما تقول الرواية، راكبا للقاء عقبة الذى ارسل بعض فرسانه فأنزلوا الرجل من ظهر مطيته وأمشوه، فما وصل

---

(١) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ١٣٨ ، ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٢ ، البكرى، المغرب، ص ١٣ (يقول غدامس من أرض سرت)، وعن مغمداس، ص ٧.

(٢) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٦٢ ، وقارن البكرى، ص ١٣ (حيث يسميه شريك ابن سحيم المرادى).

(٣) ودان جزيرة (واحة) فى جنوب مدينة سرت وكانت مضمومة إليها ، وهى جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر وتشتهر بالتمور الرطبة. ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١ ص ٦٧.

(٤) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٩٢.

(٥) أ.د. سعد زغلول. تاريخ المغرب العربى، ص ١٣٨، ١٣٩

الزعيم الجرمي الناعم إلى عقبة حتى كان يبصق الدم. وعندما ما احتج الرجل على تلك المعاملة العنيفة مع أنه أتى طائعا، رد عليه عقبة بأن ذلك أدب له حتى لايفكر في حرب العرب. كما فرض على الجرميين ضريبة مماثلة لما كان يدفعه أهل ودان أى ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) عبدا.(١)

وسأل عقبة عن الأقاليم الواقعة فيما وراء فزان فدلوه على أقليم كوار(٢)، وعاصمتة خاور وهى قصر عظيم على رأس المفازة(٣)، واستمرت الرحلة إليها خمسة عشر ليلة، وحاصرهم عقبة شهرا دون جدوى، ثم فاجأهم ليلا وأنزل بالمدينة عقوبة رادعة حيث استباح مافيها من ذراريهم ونسايهم واستولى على الأموال، وقتل المقاتلة(٤).

وهكذا انتهت أول جولة كبرى فى صحراوات جنوب طرابلس، ورجع عقبة محملا بالمغانم والسبى إلى قاعدته الأولى فى مغمداس مارا بزويلة، بعد خمسة أشهر. وكان من نتائج تلك الغزوة تثبيت سلطان العرب فى الصحراء، ونشر الإسلام بين قبائل البربر هناك(٥).

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٢ - ٢٦٣. أ.د. سعد زغلول تاريخ المغرب العربى، ص ١٣٩، وقارن البكرى، ص ١٣ (حيث يقول النص عن الضريبة أنها ٣٦٠ عبدا وليس رأسا).

(٢) كوار ومنها يخرج الشب المعروف بالشب الكوارى، ولايعد له شيء فى الطيب، وبلاد كوار يحويها بطن واد يأتى من جهة الجنوب، مارا إلى الشمال، لاماء به الا أن الماء اذا حفر عليه وجد به معينا كثيرا، الادريسى، صفة المغرب ص ٣٨.

(٣)المفاز ، والمفازة: البرية القفر، وتجمع المفاوز، وسميت الصحراء مفازة لأن من خرج منها وقطعها فاز، «ابن منظور، لسان العرب، طبعة بيروت، جـ٥، ص ٣٦٣.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣.

نشاط العرب فى صحراوات المغرب الأقصى والأطراف الشمالية للسودان الغربى:

بعد أن تعرف العرب على صحراوات برقة وطرابلس حتى أعماقها الجنوبية كان من الطبيعى أن يواصلوا جولاتهم فى صحراوات المغرب الغربية. ففى سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م. بعد ولاية عقبة الثانية اجتاح صحراء المغرب الأوسط، ووصل إلى صحراوات بلاد مراكش.

ولما كان هدف عقبة هو الاحتساب والعمل فى سبيل الله، فانه اجتهد فى نشر الإسلام لأول مرة فى صحراوات بلاد مراكش[١]. وتوغل حتى درعة حيث بنى فيها مسجدا[٢]، ثم سار عقبة مع وادى درعة إلى الشمال بعد أن أوغل فى الصحراء بعض الشيء - فى اتجاه تافللت - ثم دار حول الأطلس الكبرى، ووصل إلى هذه السلسلة المتهيلة من الجبال عند سفحها الشرقى، واستولى على بلدة أغمات ونفيس، ومن وادى نفيس سار عقبة حتى نزل بوادى سوس (السوس الأقصى)، واتجه إلى عاصمته وهى مدينة ايجلى التى بنى فيها مسجدا هى الأخرى[٣]. وهناك أرسل إلى قبائل جزولة فوصلوا إليه ودعاهم إلى الإسلام فاسلموا وقفلوا إلى منازلهم[٤]، وترك فيها رجالا لينشروا الإسلام بين أهلها[٥].

وهناك عدد من الروايات، تزعم أن حملة عقبة امتدت حتى بلاد السودان،

(١) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ١٦٣.

(٢) ليفى بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصرى بمدريد، سنة ١٩٥٤، دراسة بروفنسال، ص ٢٠٨، ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص٢٧.

(٣) ابن عذارى، البيان، جـ١، ص ٢٧، النص الجديد، ص ٢٢٠.

(٤) بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب المغرب، ص ٢٢٠، ابن عذارى، البيان، جـ١، ص ٢٨.

(٥) النص الجديد، ص ٢١٢.

وتقول أنه «فتح التكرور حتى غانة»[1] لكن صمت المؤرخين الكبار الموثوق بهم (كما يقول De la chappelle)، يمنعنا من القول بأنه وصل إلى بلاد السودان[2]، باستثناء رواية يذكرها ابن عذارى نقلا عن ابن عبد البر يقول فيها : «فتح عقبة بلاد البربر، إلى أن بلغ طنجة، وجال هنالك، لايقاتله أحد، ولايعارضه حتى فتح كورة من كور السودان[3]. ويمكن قبول هذه الرواية على أن صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) مترامية إلى تخوم السودان، وكذلك المغرب يمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر[4]. كما يمكن أن يقال أيضا أن مملكة غانة كانت تمتد داخل الصحراء في الشمال. اذ أن ملوك غانة كما يقول ابن خلدون كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب المغرب[5].

ونجد في البكرى رواية تقول: «ببلاد غانة قوم يعرفون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية انفذوه إلى غانة في صدر الإسلام، ويسلى أيضا قوم منهم يعرقون بالفامان[6]. وهذه الرواية يمكن أن تؤيد الروايات التى تشير إلى أن عقبة وصل إلى تخوم سودان المغرب الأقصى، وذلك أن فتوحات موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٤م) رغم أنها اتمت فتوح العرب في المغرب الأقصى - فان الروايات لاتشير إلى أنه وجه جيوشا نحو بلاد السودان.هذا ومع أن خلفاء بنى أمية المتأخرين انشغلوا بعد ذلك باضطراب

---

(1) De la chappelle, Histoire du Sahara occidental, p. 55.

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٥.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١ ، ص ٢٨ .

(٤) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٣.

(٥) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص ١٩٩.

(٦) البكرى، المغرب، ص ١٧٩ ، الترجمة الفرنسية لدسلان، ص ٣٣٤.

بلاد المغرب. فيمكن أن تتفق رواية البكرى مع النصوص التى تشير إلى أنه فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب (١١٦هـ/٧٣٥م)، توغل قائده حبيب بن أبى عبيده الفهرى فى السوس الأقصى نحو الجنوب حتى بلغ أرض السودان[١].

والمقصود بذلك الصحراوات الجنوبية من بلاد مسوفة ولمتونه الصنهاجية المؤدية إلى مدينة أودغست (أولى بلاد السودان)[٢]. وانتهت الحملة بنجاح كبير، فخضعت القبائل فى تلك الأقاليم وعاد حبيب بعدد وفير من السبى وبأحمال من التبر[٣].

هل فتح العرب السودان الغربى؟

وهكذا تم للعرب فتح المغرب ونشروا الإسلام حتى تخوم بلاد السودان. وهنا يمكن أن نتساءل لماذا لم يوجه العرب نشاطهم فى هذا الوقت المبكر عبر الصحراوات الجنوبية إلى بلاد السودان الغربى (غانة - مالى - كوكوا)، وخاصة أن هذه الأقاليم تشبه تماما البيئة الصحراوية العربية.

ويمكن الرد على ذلك بأن العرب كانوا قد عرفوا بلادا غنية فى الشام وفى مصر وفى أفريقية وأسسوا فيها قواعد راسخة للإسلام، وأنهم تبعا لذلك فضلوا توجيه انظارهم نحو الأندلس وخيراتها الوفيرة بدلا من بلاد السودان التى كانوا يجهلونها والتى تصوروا أنها كانت آخر المعمور من الأرض[٤]. وهكذا قدر للإسلام فى المغرب أن ينتظر أكثرمن ثلاث قرون قبل أن يتوغل

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٩٣، ان عذارى، البيان، جـ١، ص ٥١.

(٢) أ.د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربى، ص ٢٥٠.

(٣) ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص ٢٩٣.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٢٧٣، يقول عن بلاد السودان: «وهى بلاد متسعة الارجاء، رحبة الجوانب، حدها من الغرب البحر المحيط الغربى، ومن الجنوب الخراب مايلى خط الاستواء...».

فى قلب بلاد السودان وذلك مع مطلع القرن الخامس الهجرى وبفصل قبائل صنهاجة أصحاب اللثام. هذا وأن ظل العرب يطرقون أطراف الصحراوات الغربية الجنوبية التى كانت بمثابة أبواب لبلاد السودان.

الفصل الثانى

انتشار الإسلام في بلاد السودان

الفصـل الثانـي

انتشار الإسلام في بلاد السودان

على عكس بلاد المغرب التى بدأ الإسلام ينتشر فيها بسرعة مع انتشار القوات العربية الفاتحة، كان دخول الإسلام إلى بلاد السودان وئيدا وبالطرق السلمية. والذى يفهم من المصادر العربية الأولى أن الإسلام دخل إلى السودان مع قوافل التجار التى كانت تتردد مابين المغرب وبلاد السودان. ولما كانت الصحراء هى وسيلة الربط بين البلدين كما بينا فى الباب الأول (ص ٣٩) كان من الطبيعى أن يقوم أهل الصحراء بالدور الرئيسى فى اقامة العلاقات التجارية فيما بين شمال صحرائهم وجنوبها وفى نشر الإسلام فى نفس الوقت.

وهكذا كان فضل دخول الإسلام إلى السودان الغربى من نصيب قبائل صنهاجة أهل اللثام بصفة خاصة.

والعلاقات التجارية بين البلدين قديمة ترجع إلى ماقبل الفتح العربى للمغرب – إلى أيام قرطاجة. فقد كان القرطاجيون على علاقة وثيقة بأفريقية السوداء عن طريق الصحراء الكبرى[1]. وكان حجم مدينة لبتس ماجناLeptis Magna الرومانية وازدهارها الواضح الملموس والتى كانت تلاصق طرابلس الحالية يمكن تفسيره فى ضوء موقعها عند نهايات طرق التجارة التى كانت تعبر الصحراء الكبرى مخترقة جنوب فزان. وكذلك يقال أن مدينة Lixus القرطاجية الواقعة على الساحل المراكشى المطل على المحيط الاطلنطى يعكس أيضا موقعها عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا. ولقد كتب هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا يقول أن جماعات الجرمنت

(١) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى، ص ٧٠.

وهي جماعات بربر فزان قد تعودوا على الاغارة على الأثيوبيين Germantes (وكان يقصد بالطبع الزنوج) بعرباتهم التى يجر الواحدة منها أربعة خيول وهذا التقرير يوضح بما لايقبل الشك صحة ماترويه الرسوم العديدة على الصخور التى وجدت مرسومة على طريقين رئيسيين كلاهما يقود إلى ثنية النيجر العظيم. وكانت عبارة عن عربات تجرها الخيول وكان الطريق الأول من فزان والثانى من جنوب مراكش. وهذه الطرق بدورها تؤيد الفروض العلمية التى أثيرت بشأن كلتا المدينتين السابق ذكرهما. كما ترتبطان بأثنتين من طرق القوافل الرئيسية فى الأزمنة التاريخية.

ومنذ أن حل الجمل محل العجلات فى الصحراء الكبرى صار من المؤكد أن هذه الرسومات ترتبط بالأزمنة القديمة. ولو ربطنا ذلك بملاحظات هيرودوت لتوصلنا إلى دلائل واضحة تشير إلى وجود علاقات منتظمة بين شعوب البحر المتوسط وزنوج أفريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل.

ولقد كانت القبائل البربرية الرعوية تمثل العامل الوسيط بطبيعة الحال فى مثل هذه العلاقة عبر الصحراء[١].

العلاقات بين السودان وأفريقية:

وعقب الفتح استمرت العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان، بل وازدهرت نتيجة للجهود التى قام بها الولاة العرب. فقد قام والى (عامل) المغرب عبد الرحمن بن حبيب[٢]، ببناء مجموعة من الآبار يعددها لنا

---

(١) رولاند أوليفروجون فيج، موجز تاريخ أفريقية، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق، القاهرة ١٩٦٥ (سلسلة دراسات أفريقية ٣)، ص ٦٦، ص ٦٧.

(٢) عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبده بن عقبة بن نافع الفهرى - حفيد عقبة - تغلب على =

البكرى على طول الطريق الموصل من تامدلت إلى مدينة أودغست والتى دكرناها فى وصف الطرق الموصلة إلى السودان (ص) من بئر الجمالين، وبئر ويطوفان. ولاشك أن العناية بالطريق أكد الصلة بين أفريقية وبين السودان وعمل على التقليل من المشقة والاخطار التى كانت تتعرض لها القوافل التجارية التى كانت تقطع الطريق إلى بلاد السودان، وازدهرت تبعا لذلك حركة التجارة. وعمل أيضا على انتشار الإسلام فى بلاد الملثمين حتى أودغست أولى بلاد السودان. وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتم مابدأه جده عقبة من حوالى نصف قرن.

العلاقات بين السودان وأفريقية والمغرب الأوسط:

وقد لاقت التجارة مع السودان اهتماما كبيرا من أباضية الرستميين فى تاهرت (سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م إلى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م)، يقول نص ابن الصغير: «واستعلمت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[1].

ونشطت تجارة المغرب مع بلاد السودان على أيام الفاطميين، وكان بين الزيريين (بنو زيرى بن مناد خلفاء الفاطميين فى حكم المغرب)، وبين ملوك

=

أفريقية سنة ١٢٧هـ واستقل بها عن الخلافة العباسية سنة ١٣٧هـ، نجح فى تكوين مايمكن أن يشبه بأسرة ملكية فى أفريقية سنة ١٢٧هـ- قتل فى أواخر سنة ١٣٧هـ.

ابن عبد الحكم ، فتوح مصروالمغرب، طبعة عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٠٠ - ٣٠١، ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب نشر وتحقيق ج. س كولان، أليفى بروفنسال، ليدن ١٩٤٨، جـ١، ص ٦٠ - ٦٨، الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى ص ٢٩٩، Ch.A. Julian, Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1952, p, 31.

(1) Ibn Saghir, chronique sur les imams rostemides de Tahert, par motylinski, extrait du tome IV des actes du XIV econgrés internationale des orientalistes, paris, 1907, p. 13, trad Franc, p. 68.

السودان علاقات طيبة، بدليل وصول هديه فى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م من بلد السودان (غانة) لابى مناد باديس بن أبى الفتح المنصور فيها زرافة[١].

ووصلت أيضا إلى المعز فى سنة ٤٢٣هـ / ١٨ ديسمبر ١٠١٣م، هدية جليلة من ملك السودان، كانت تتضمن رقيق كثير وزرافات، وأنواع من الحيوان غريبة[٢].

العلاقات بين السودان والمغرب الأقصى:

أما عن العلاقات بين السودان والادارسة فى المغرب الأقصى فليست لدينا نصوص صريحة عنها. ولكن نستبين من الرواية التى يوردها الادريسى، والتى تقول أن ملك غانة من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب، أنه كان ثمة علاقات بين السودان والادارسة.

مسالك التجارة أو الطرق المؤدية إلى السودان:

كانت التجارة المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان تسلك ثلاث مسالك رئيسية: فى الشرق كان الطريق الذى يربط افريقية بالسودان يبدأ من طرابلس، ومنها إلى فزان وكوار، ثم يتجه إلى مملك البرنو، وهو الطريق الجرمنتى القديم[٣].

وفى الوسط (أى مع المغرب الأوسط)، طريق غدامس غات إلى اير ومنها إلى ممالك الحوصة.

(١) ابن عذارى،البيان المغرب، جـ١، ص ٢٤٦، الترجمة الفرنسية لفانيان Fagnan الجزائر ١٩٠١م، جـ١، ص ٣٦٢.

(٢) ابن عذارى، نفس المصدر، ص ٢٧٥، الترجمة الفرنسية، ص ٤١٠.

(3) Bovill, The golden trade of the Moors, P.235.

وفى الغـرب مع المغـرب الأقـصى طريق سـجلمـاسـة اودغـست غـانة (أو سجلماسة - تغازى - ايوالاتن) زمن ابن بطوطة (فى منتصف القرن الثامن الهجرى / ١٤م). وفيمـا بعد (فى القرن ١٦م، على أيام ليون الأفريقى)، أصبح الطريق ينحـدر من سـجلمـاسـة إلى تغازى ثم إلى أروان ومنهـا إلى تنبكتو[١].

وفى كل من هذه الطرق كانت توجد مناطق كبيرة خالية من الماء، بحيث لاتستطيع القوافل الثقيلة الحمل عبورها الا فى خطورة بالغة بالرغم من ذلك فان تجربة الزمن اثبتت انها آمن وأقصر الطرق بالنسبة للتجارة. ومن وقت إلى آخر فان طرقا أخرى قد استعلمت ولكنها اهملت لعدم وجود الآبار أو المراعى. وعلى الطرق الثلاث القديمة كان يوجد الضمان الأكثر لوجود الماء والكلا[٢].

ولم يظهرطريق فزان كوار الا قليلا جدا فى السجلات التاريخية، ولكنه لايوجد شك انه هو أسهل طرق القوافل عبر الصحراء، كان استعماله دائما. وبالرغم من أن طريق فزان كوار كان يحمل كمية كبيرة من الملح فى اتجاه الجنوب من واحة بلمه فانه كان أساسا طريقا للعبيد[٣]، الذين كانوا يمثلون حينذاك سلعة من أهم السلع ونسبتين ذلك من وصف ابن بطوطه فقد قفل

---

(١) انظر ماسبق الفصل الخاص بالصحراء والسودان Raymond Mauny, Note sur Les grands Voy ages de Léon L'Africain, Hespéris, tome XLI, année .1954, p. 389.

(2) Bovill, op-cit, p, 235.

(3) Bovill, The golden trade, p, 243.

- ويقول اليعقوبى (كتاب البلدان، ص ٣٤٥)، ووراء زويله على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين من سائر الاحياء أكثرهم بربر وهم يأتون بالسودان

من تكدا إلى المغرب في رفقة مكونة من ستمائة (٦٠٠) خادم[١].

وقد كان العرب يقتنون الاساود المستجلبين من بلاد السودان ويتخذون منهم عسكرا، وحرسا وخدما، وخصيانا ليقوموا بالخدمة وسط الحريم[٢].

وابراهيم بن الاغلب (حكم افريقية من سنة ١٨٤ - ١٩٦هـ / ٨٠٠ - ٨١٢م) أول من استخدم السودان في عسكره، وبلغ عددهم في أيامه عشرة آلاف[٣].

وتقول رواية ابن عذارى عن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب، في أحداث سنة ٢٧٩هـ، انه استخدم السودان في عسكره بعد قتله للفتيان الصقالبة، «وقرب السودان من قصره وقد كان جمع منهم خمسة الاف أسود»[٤].

وفي احداث سنة ٣٧٣هـ يقول ابن عذارى: «اشترى عبد الله بن محمد الكاتب عامل افريقية العبيد السودان وجعل على كل عامل من ثلاثين عبدا إلى مادون ذلك ...»[٥]. ويقول (في سنة ٤٦٤هـ). «وفيها قوى الأمير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان...»[٦].

---

(١) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢١٠.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص ١٢٣، فيرون، الصحراء الكبرى، ص ٨٤.

(٣) عن استخدام ابن الاغلب للسودان انظر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص ٣٦٦، حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس طبعة تونس ١٣٧٣هـ (الطبعة الثالثة)، ص ٦٥.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص ١٢٣.

(٥) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص ٢٢٨.

(٦) ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص ٥٧.

وتقـول رواية ابن القطان صاحب «نظم الجمـان»، فى اخبـار سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وفى هذه السنة وصل إلى على بن يوسف خبر من مدينة بلنسية أن ابن ردمير عازم على الخروج إلى بلاد المسلمين، فخشى أن تكون حركته كالتى كانت فى سنة عشرين فقسط على الرعية سودانا يغزون فى العساكر، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا[1].

واستمر استخدام السودان فى الجيش وكحرس على أيام الموحدين (٥١٥ - ٦٦٨هـ) ويقول العمرى فى «مسالك الابصار»، عند كلامه عن ركوب سلطان الموحدين لاداء صلاة العيدين وقدامهم جماعة يقال لهم جناوة: وهم عبيد سود بأيديهم حراب فى رءوسها رايات من حرير، وهم لابسون جبابا بيضا ومقلدون بالسيوف[2]. وهؤلاء الخدم كانوا يجلبون كما تقول الروايات من بلاد لملم(وهى فى جنوب النيل نهر النيجر)[3] وهم كفار والجهل يغلب عليهم، ويجلب الرقيق أيضا من قبائل موشى (وهم من الكفار)، وبعض فلان

---

(١) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود على مكى، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، ص ١٠٩.

(٢) العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ١١٤، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ١٤٦، (ينقل عن العمرى) ولكنه يسميهم «جفاوة».

(٣) الادريسى، صفة المغرب ،ص ٤، ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٥٤.

ولملم يسميهم البكرى «الدمدم»، على نهر النيجر بين كوكو وتادمكة، وهوليس اسم قبيلة معينة. وفى لغة الفلان أصبحت نيام نيام nyam-nyam من الكلمة الفلانية نيام nyam وتعنى يأكل، والتى نقلتها الكتابة العربية محرفة إلى نمنم وبميم.وأبو الفدا ينقل عن ابن سعيد «أن نمنم هم أخوة لملم فى النسب».

البكرى، المغرب، ص ١٨٣، الاستبصار، ص ٢٢٥، وأبو الفدا، تقويم البلدان ، جـ١ ، ص ١٥٣، جب،، الترجمة الانجليزية لرحلة ابن بطوطة ص ٣٧٩ هامش ١٥.

(الفلاته)، وهى قبائل من كفار السودان[1]. وبعد خطفهم من قراهم كما يفهم من الروايات، كانوا يباعون للتجار الاتين إلى بلاد السودان، وهؤلاء بدورهم كانوا يجمعونهم لنقلهم عبر الصحراء، وعلى حين كانوا يشدون وثاق الرجال، كانت النساء والفتيات يمتطين الابل، وبعد أن تقف القافلة قليلا فى فزان تستأنف الرحلة فى اتجاه طرابلس، حيث يباع الذين لايزالون من العبيد احياء بثمن مرتفع[2].

ويذكر لنا ابن بطوطة انه اشترى خادم «معلمة»، بخمسة وعشرين مثقالا[3]، وهو بلا شك ثمن كبير. ويقول ابن بطوطة فى موضع آخر «ان أهل مالى وايوالاتن (ولات) لايبيعون المعلمات (من الخدم)، الانادرا وبالثمن الكثير[4].

وربما لم يكن طريق غدامس اير[5] أقل قدما من طريق تغازى. حيث يمر

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٥٤ يقول عن لملم «وهم كفار ويكتوون فى وجوههم واصداغهم» الادريسى، صفة المغرب، ص ٤، الترجمة الفرنسية، ص ٤، السلاوى، الاستقصا، جـ٣، ص ٦٤ ينقل عن أحمد بابا فى معراج الصعود «(وعن الفلان انظر ماسبق الفصل الخاص بسكان السودان».

(٢) يفهم ذلك من رواية ابن خلدون الخاصة بلملم اذ يقول: «وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبوتهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم. المقدمة، طبعة التجارية، ص ٥٤. Bovill, The golden trade of the Moors, p, 244.

(٣) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ٢٠٨.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة جـ٢، ص ٢٠٨.

(٥) اير أو اسبن اقليم جبلى فى الصحراء الكبرى بين خطى عرض ٢٠° و١٦° شمالا، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ٢٨٠ ميلا، وعرضه فى جزئه الأوسط من الشرق إلى الغرب ٦٠ ميلا، وتقدر مساحته بنحو ٥٨٠٠ متر مربع ويتراوح عدد سكانه بين ٦٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ نسمة.
وهوالآن من الاقاليم الافريقية التى لايعرف عنها الاالقليل، وقد اكتشفه بارث Barth عام ١٨٥٠، ثم زاره ده بارى E.De barry الذى منعه الاهالى من التوغل فيما وراء اجيرو.

=

بالأرض الصخرية. فان الآثار العميقة (في الصخر) تؤكد قدمه والحمولة الكبيرة لحركة التجارة التى حملها. ولايبدو أن مجرى الطريق قد تغير ابدا

والطريق بين غدامس وغات خلال النصف الأول من القرن الماضى، كان يسيطر عليه طوارق ازجر المتوحشين[1]. وبين غات واير، حيث يمر على جزء من اسوأ المناطق الصحراوية فى العالم ويقع منتصفه فى بلاد « Kelowi »

وفى أزاوة أو ازوى يلحق به طريق توات اير الذى يخترق سلسلة جبال الحجار ويتحكم فيه طوارق الحجار[2].

وكان أكبر الطرق الثلاثة هو طريق سجلماسة تغازى (تغاز - تغازة) تنبكت، الهام بالنسبة لتجارة الذهب والأهم كمعبر ثقافى[3].

وتعد سجلماسة أهم موانى الصحراء، وبينها وبين بلاد السودان وسائر البلاد. تجارة غير منقطعة[4]، وقد ازدادت أهمية سجلماسة بعد ترك الطريق

= ويرجع مكانة اير فى الحياة الاقتصادية للصحراء الكبرى أولا وقبل كل شيء إلى انه على ملتقى طرق القوافل الممتدة بين سكت واقاليم النيجر من ناحية وتوات وغات وغدامس وملاحات بلمة من ناحيةأخرى، ولذلك تتنازع قبائل افريقية مختلفة هذا الاقليم بيد أنه لايصلح كثيرا لقيام حكومة قوية فيه. وذكر الحسن أبن محمد الوزان الزياتى اير لأول مرة فى القرن ١٦ ويظهر أن اسم هذا الاقليم القديم هو اسبن ولايزال يعرف به عند السكان السود.دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، جـ٣، ص ١٨٨، ص ١٨٩، ص ١٩٠.

(1) Bovill, The golden trade, pp, 237-238.

(٢) وعن طوارق الحجار انظر ابن بطوطه الرحلة، جـ٢، ص ٢١٠، والترجمة الانجليزية لجب، ص ٣٣٧ - ٣٣٨. Bovill, op-cit, p, 238

(3) Bovill, op-cit, p, 235.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض ، جـ١ ،ص ٩٩.

وسجلماسة (بكسر السين والجيم وسكون اللام) مدينة قديمة خربة، فى أقصى جنوب المغرب (مراكش) بالقرب من الريسانى الحالية، وكانت العاصمة التاريخية لمنطقة تافيلالت - وأسست فى سنة (١٤٠هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨م)، والذين بنوها هم الخوارج، وصفها ابن حوقل (فى القرن

الموصل بين مصر وبلاد السودان وغانة على ظهر الواحات (كما سبق القول فى الفصل الخاص بالصحراء) فانتقلوا عنه إليها[١]. وأصبحت القوافل تعبر الطريق بالمغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق، وتجار البصرة والكوفة، والبغداديون الذين كانوا يجتازون ذلك الطريق[٢]. «وقد عظمت المدينة فى عهد المرابطين (٤٣٠هـ/ ٥٣٩هـ) الذين وجهوا جهودهم نحو بلاد السودان التى كانت سجلماسة بابها ولهذا السبب اعتبرها صاحب الاستبصار من أعظم مدن المغرب[٣]. وهى مقصد للوارد والصادر كما يقول الادريسى[٤]، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ولاهلها جرءة على دخولها[٥].

= الرابع الهجرى) والبكرى فى القرن الخامس الهجرى، قال عنها: «وهى كثيرة النخل والاعناب وجميع الفواكه.. ويستطرد فيقول أن أرض سجلماسة كانت تزرع عاما وتحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام لانه بلد مفرط الحر فاذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وارضهم متشققة فيرتفع ماتناثر منه فى تلك الشقوق فاذا كان فى العام الثانى حرث بلا بذر وكذلك فى الثالث... ويتميز نساؤهم كما يقول ياقوت بالحذق فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذى بمصر يبلغ ثمن الأزار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر كارفع مايكون من القصب الذى بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك... ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٩١، البكرى، المغرب، ص ١٤٨-١٥١، الادريسى، صفة المغرب، ص ٦٠-٦١، الترجمة الفرنسية، ص ٦٩-٧٠ ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد، جـ٣، ص ٤٥-٤٦، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ١٦٣ ومايليها،

ency de l'slam, vol IV, p, 633, Tafilalt et vol IV, p, 419, "Sidjilmasa"

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٦١، ص ١٥٣.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ١، ص ٦١.

(٣) الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٤٠٣.

(٤) الادريسى، صفة المغرب، ص٦١، الترجمة الفرنسية لدوزى ودجويه، ص ٧٠.

(٥) ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد، جـ٣، ص ٤٦، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠، ص ٤٢.

=

وظلت سجلماسة تحتفظ بأهميتها إلى أن خربت فى أواخر سنوات القرن الثامن عشر، وكانت قد بدأت فى الاضمحلال منذ عصر ليون. وحلت محلها مدينة Abuam المجاورة الموجودة فى اقليم المغرب الأقصى. ولكن أغلب التجارة تركت تافيلالت وبعضها ذهب إلى عين صالح عاصمة توات التى كان الوصول إليها سهلا من مراكش على طول وادى سواره"Saura" ، وذهب بعض التجار غربا إلى "Lektawa" فى وادى درعة، وإلى وادى نون(١). وكان التجار الذين يتاجرون مع السودان من وادى نون Abuam يسافرون عن طريق Akka التى حلت محل سجلماسة فى تزويد وتجهيز القوافل عبر الصحراء. ومنها على طول الطريق القديم عبر تغازى و Taodeni(٢). إلى تنبكتو بدلا من الاتجاه غربا عند تنورد إلى ولات (مثل ودان فى اضمحلال الآن ولكنها لازالت مشهورة بكفاءة صناع الذهب)، فان الطريق قد تبع المسار المباشر خلال أروان(٣).

ومعدن الذهب والفضة سمى معدنا لانبات الله فيه جوهرهما واثباته اياه فى الأرض حتى عدن أى ثبت فيهما.

وقال الليث المعدن مكان كل شيء يكون فيه أصله ومبدؤه نحو معدن الذهب والفضة والأشياء.

وفى الحديث فعن معادن العرب تسألونى قالوا نعم أى أصولها التى ينسبون إليها ويتفاخرون بها وفلان معدن للخير والكرم اذا جبل عليهما على المثل. ابن منظور، لسان العرب، جـ١٧، ص ١٥٠ -١٥١.

(1) Bovill, The golden trade, p, 235.

(٢) غلق معدن تغازى، واصدار اسكى سنغى امرا بألا يذهب إليه أحد كان كارثة بالنسبة لشعب النيجر الأعلى، نظرا لأنه إلى جانب الساحل، كان مصدرهم الوحيد للحصول على الملح، لكن ذلك الحدث دفعهم إلى اكتشاف معدن ملح جديد شهير عند «تنورد»Taodeni فى سنة ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م، وهو يقع بين تغازى وتنبكتو. السعدى، تاريخ السودان، ص ١٢١، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص١٩٤ ـ Bovill, op-cit, p, 144

(٣) اروان، ناحية تقع على بعد ٢٥٠ كيلو متر فى شمال تنبكت، على طريق هذه المدينة إلىTaodénit وإلى تندوف. دلافوس وهوداس، ترجمة تاريخ الفتاش بالفرنسية، ص ٣٧، هامش ٤

وهناك فقد التحق به طريقان اخران، احدهما يجرى عبر بواب ومبروك إلى تنبكتو (تنبكت)، والاخر ياتى من سنسندغ"Sansanding" على النيجر الأعلى.

وكان هذا الطريق تسيطر عليه قبيلة مسوفة (أصحاب اللثام)، ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل، ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان، كما يقول ابن حوقل، (التاجر النصيبى)[1]، وظلوا يسيطرون عليه حتى زمن ابن بطوطة (القرن الثامن الهجرى ، ١٤ م). ويتحكم فيه الان عرب البرابيش، وهم عرب متبربرين من المحتمل أنهم من أصل حميرى.[2]

ولم يقلل من أخطار طريق تغازى تنبكتو، اتخاذه للتجارة لعدة قرون. ففى عام ١٨٠٥م هلكت قافلة مكونة من الفين رجل، وألف وثمانمائه جمل من العطش، وكانت قافلة من تنبكت عبر هذا الطريق، فلم ينج منها انسان ولا حيوان[3].

ومعظم الروايات التى امدنابها الكتاب تتكلم عن تجارة الذهب ومبادلته بالملح. وبالنسبة للافريقى، فان الملح كان الأهم بحيث لانجاوز القول بأن الذهب كانت ترتكز قيمته بالنسبة للسودان أساسا على أساس قوته الشرائية للملح، فقد كان دعامة تجارتهم الداخلية، كما كان أساس تجارتهم الخارجية، ولايمكن أن نفهم أيا منهما دون أن نعرف الأهمية القصوى التى كان عليها لاستمرار الإنسان[4].

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، حـ١، ص ١٥١

(2) Bovill, The golden trade of the Moors, p, 52.

(3) Bovill, op-cit, pp. 235-236.

(4) Bovill. The golden trade of The Moors, p, 236.

وملاحات الملح الطبيعي في جنوب السودان بأكمله لم تكن فقط ضئيلة بل أيضا مركزه في منطقة صغيرة في مركز الاقليم. وهي ملاحات ملح "Dallul Fogha" في دندى و Fadama أو سبخة Birnin Kebbi المجاوره، التى كانت تربتها مشبعة بالملح بحيث كان ممكنا الحصول عليه عن طريق التبخير. ولكن هذه كانت منابع ضئيلة ومناسبة فقط للاحتياجات المحلية البحتة. وفي الأماكن الأخرى فان الملح لم يكن من الممكن الحصول عليه الا عن طريق التجارة.

وعند مالم يكن ذلك ممكنا كما كان الحال غالبا بين القبائل الضعيفة والمنعزلة فانه كان يستخلص بكميات ضئيلة جدا من رماد الاعشاب، ومن سيقان نبات الدخن، وبعض الشجيرات وروث البهائم[١].

ورواية البكرى التى تقول ان الفرويين كانوا قد اعتادوا على تبادل الذهب بوزن مساو له من الملح لم يكن مبالغا فيها[٢]. وتوجد رواية مماثلة عن مالى يذكرها العمرى في كتابه «مسالك الابصار» تقول: «ان هناك بعض الناس كانوا يصلون بالملح إلى أناس من السودان يبدلون كوم الملح بكوم مواز له من الذهب»[٣]. ويروى لنا ابن بطوطه أن حمل الملح كان يباع بمدينة مالى سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) بثلاثين مثقالا بل ويرتفع ثمنه إلى أربعين مثقالا[٤].

ويقول الحسن الوزان، (ليون الافريقى)، (فى رحلته الثانية إلى السودان سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م)، عن مدينة تنبكتو .... لكن ينقصهم الكثير من

---

(1) Bovill, The golden trade, p, 236 - 237.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٧٤.

(٣) العمرى، مسالك الابصار (افريقية عدا مصر)، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٨٣، القلقشندى، صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٩١.

(٤) ابن بطوطه، الرحلة، طبعة التجارية، جـ٢، ص ١٩٢، الترجمة الانجليزية لجب، ص ٣١٨

الملح نظرا لانه يحمل من تغازى (تغازة) التى تقع على مسافة حوالى خمسمائة ميل من تنبكت وقد تواجدت فى هذه المدينة فى وقت كان حمل الملح فيها يقدر بثمانين دوكات Ducats[(١)] وارتفاع الثمن جاء نتيجة لندرة وجود الملح فى السودان من ناحية، ومن ناحية أخرى لتعرض التجار الداخلين إلى بلاد السودان للمشقة والاخطار، وارتفاع الثمن هذا يؤكد أيضا أهمية الملح لدوام الحياة لدى السود.

ومن قرن مضى فقط فان رحالة أوربى فى هذه الجهات وهو الفرنسى Raffenel وجد نفسه بدون كمية الملح المطلوب، حتى انه كان على اتم استعداد ليعقد مثل تلك الصفقة. وهؤلاء الذين شاهدوا ذلك فقط هم الذين يستطيعون أن يلمسوا مدى عمق الشهوة إلى الملح بالنسبة لهؤلاء الذين لايملكون زادا مناسبا منه. وفى السودان الغربى فان الملح كان من الترف بحيث لايتمتع به بصفة منتظمة الا الأغنياء فقط[(٢)].

وعلى ذلك لم يكن من الغريب أن يكون الملح على رأس الأشياء التى تهدى، كما نستبين من رواية صاحب الفتاس التى تقول «..... ويرسل اسكى لرئيسهم (أى لرئيس عبيده)، مع الرسول الذى يأتى منه لحمل صنوته الف كورية والكملية الواحدة من الملح والقميص الأسود والملحفة الأسود لزوجة ذاك الرئيس...»[(٣)].

---

(١) Jean-Léon L'Africain ,description de L'Afrique, tome p, 467.

«ولعل ارتفاع الثمن هذا هو الذى دفع البيرونى (توفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) إلى القول بان أهل سجلماسة يتاجرون السودان مغابنة». البيرونى، القانون المسعودى، الطبعة الأولى، حيدر اباد الدكن، الهند، سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م، جـ٢، ص ٥٥٤. (المقالة الخامسة).

(2) Bovill, The golden trade, p, 236.

(٣) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٩٥، الترجمة الفرنسية لدلافوس وهوداس، ص ١٨٠ .ويقول فى موضع أخر عن اسكى داود «فقال اسكى داود وانا كذلك احمل لك لابتغاء عفو الله تعالى

وتادين تنبكت للذهب والملح، كما يدين الطريق القديم الذى كانت تقع عند نهايته الجنوبية، ولم يكن أيهما يزرع أو يصنع بل كان يعتمد على الاستيراد فى طعامه وعلى تجارة الترانسيت فى رخائه.

وكانت تنبكت تستمد أهميتها من موقعها فى نقطة على طريق النيجر الكبير، وكان هناك طريق يربطهما من الشرق مع مصر، وكان هذا الطريق يدخل اير من in Gall من حيث يمر خلال عين ازاوة Azawa وغات ومروزق، وأوجلة وسيوة إلى القاهرة، كما كان الوصول إليها سهلا من المغرب وأول مناطقه الصحراوية واحة توات. وكان يأتى إليها طريق تغازى بالملح وتجارة بضائع البحر المتوسط، وأرز النيجر ، والدخن، والذهب والعبيد والعاج وجوز الكولا من سنسندنج وجنى[1].

وهكذا كانت القوافل التجارية، تجتاز هذه الطرق السالفة الذكر، عبر الواحات ومعادن الملح نحو بلاد السودان. ورغم أن هذه المهمة كانت شاقة وصعبة وتكتنفها الاخطار - وذلك لشدة الغرر بالطريق ومشقة اختراق الصحراء التى لايوجد فيها الماء الا فى أماكن معلومة - الا أنها كانت مجزية من حيث كثرة الارباح التى كانت تعود على التجار، والتى جعلتهم بالتالى يولعون بالدخول إلى بلاد السودان وهؤلاء التجار كما يقول ابن خلدون «أرفة

= وغفرانه غرامة تاخذيه منى راس كل سنة، وهى الكملية الواحدة، والملحفة السوداء لله تعالى. وأمر بذلك فى ساعته واعطاهما اياها، أى الكملية الملح والملحفة السوداء. محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٠٦ ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٩٦.

ولابأس من الاشارة هنا إلى مايورده ابن الأثير فى نفس المعنى .. «لما فرغ ظفر لبك من العرب سار إلى ديار بكر التى هى لابن مروان وكان ابن مروان يرسل إليه كل يوم الهدايا والملح .. ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص٧٨، احداث سنة ٤٤٨.

(1) Bovill, The golden trade, p, 238.

الناس وأكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقته»، وذلك لان نقل السلع إلى البلد البعيد المسافة الذى يحيط بطريقه الاخطار يكون أكثر فائدة وأعظم أرباحا لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت أثمانها[1]. وهكذا عمل معظم سكان الصحراء فى التجارة.

ونستبين من الاشارات التى امدنا بها الكتاب العرب، انه منذ نهاية القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) - عقب الفتح العربى للمغرب مباشرة - لاحظ التجار المسلمون من المشرق والمغرب - بدورهم - الموارد التى يمكن أن تكفلها لهم المبادلات مع السودان، الذين كانوا يقطنون فيما وراء الصحراء الجدبة فى مناطق غنية بالرجال وغنية بالذهب، فنظموا القوافل التى كانت تذهب إلى بلاد السودان، للبحث عن الخدم، والتبر، والعاج، والابنوس، وانياب الفيلة[2].

ويشترى أكثر التبر أهل وارقلان (وارجلان) وأهل المغرب الأقصى، ويرسل التبر إلى دور السكك ويضرب دنانير يتعاملون بها فى التجارة وغيرها[3].

وكانت العير القادمة إلى بلاد السودان تحمل إلى جانب الملح، الذى يعد أهم سلعة يتجهز بها إلى بلاد السودان. وارفع مايحمل اليهم[4]، ضروب

(١) ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص، بـ «نقل التاجر للسلع»، طبعة التجارية، ص ٣٩٦.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٩٩، يقول: «ولما فتحت افريقية المغرب دخل التجار إلى بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب المغرب، الزهرى، كتاب الجغرافية، ص ١١٨.

(٣) الادريسى، صفة المغرب، ص ٨، الترجمة الفرنسية، ص ٩.

(٤) الاستبصار، ص ٢١٤، الزهرى، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق ص ٢٢، ابو حامد الاندلسى، تحفة الالباب، ص ٤٢، الترجمة الفرنسية، ص ٢٤٣، ياقوت معجم البلدان، جـ١، ص ٨١٢، العمرى، مسالك الابصار، الترجمة الفرنسية لديمومبين، ص ٨٣.

الأمتعة من السلع مثل: النحاس المسبوك وآلات الحديد المصنوع، وخرز الزجاج، وهو يستعمل كثيرا في هذه البلاد[1]، والودع والاصناف والاحجار التي تشبه العقيق، واساور نحاس وحلق وخواتم نحاس[2]، والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر[3] وضروب من الافاوية والعطر[4].

الجماعات التجارية في غانة (انتشار الإسلام عن طريق التجارة):

وكان هؤلاء التجار لايكتفون بمصاحبة قوافل جمالهم، ولكنهم كانوا يقيمون في جماعات - اقامة مؤقتة في بعض الأحيان ودائمة في أحيان أخر، في المدن التجارية شمال السودان مثل: غانة ومالي (العاصمة) وجني وتنبكت وكوكو. ويفهم من رواية ابن حوقل (كان موجودا بأودغست سنة ٣٤٠هـ) أن هذه الجماعات كان لها نظام خاص بها فرئيسهم مسلم ولايقبلون حكم غير المسلمين فيهم، ولايتولى حدودهم ولايقيم عليهم شهادة الامن في دعوتهم[5]. ووصف البكري لمدينة غانة، يبين أنه كان هناك مدينة (يقصد

---

(١) البكري، المغرب، ص ١٧٩، الادريسي، صفة المغرب، ص ٣، ص ٦٦، الاستبصار، ص ٢٢٤-٢٢٥، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٨١٢، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت ١٩٦٠، ص ١٩، القلقشندي صبح الاعشى، جـ٥، ص ٢٨٦ (ينقل عن الروض المعطار الذي ينقل الادريسي بدوره).

(٢) البكري، المغرب، ص ١٨٢، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٨١٢.

(٣) الادريسي، صفة المغرب، ص ٦٦ «وكلمة ازار تعني كل ماسترك، وكلمة بردة وكلمة ازار تستعملان في نفس المعنى، Dozy, nomes des vétements chez les arabes, Amesterdam, 1845, p, 24-25.

(٤) الادريسي، صفة المغرب، ص٦٦، الترجمة الفرنسية لدجويه، ص ٧٦.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، جـ٢، ص ٣٢٠، يقول: ..«وكذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الأطراف التي يغلب عليها املاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانة وكوغه والمسلمون لايقبلون أن يحكم عليهم الا مسلم منهم ولايقيم عليهم شهادة الا من في دعوتهم».

حي)، يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة تتضمن اثنا عشر مسجدا، أحدها يجمعون فيه، ولهذه المساجد الأئمة والمؤذنون ويوجد بها فقهاء وعلماء[1].

ومن نص البكرى لانستبين أن كان المسلمون من التجار (أى أجانب) أم من أهل البلاد الذين تأثروا بالمسلمين ودخلوا فى دعوتهم، ولكن أغلب الظن أنهم أجانب، لأن البكرى ينص فى موضع أخر على أن ديانة أهل غانة المجوسية وعبادة الدكاكير[2].

وعدد المساجد التى تحويها المدينة - وهذا العدد مبالغ فيه من غير شك - أن كان يدل على شيء فانما يدل على كثرة عدد الجاليات التجارية الإسلامية (الاجنبية) الموجودة وقتئذ فى غانة والى هذه الجماعات الإسلامية التجارية يرجع الفضل الأول فى نشر الإسلام بين السودان. ولكن رغم هذا لابد أن يكون بين هؤلاء المسلمين من هم من أهل البلاد وأن كانت النصوص لاتبين ذلك. ونص الاستبصار أكثر تحديدا من البكرى (رغم انه ينقله فى كثير من المواضع خاصة فيما يتعلق بالكلام عن بلاد السودان). يقول صاحب الاستبصار (وهو يكتب على أيام الموحدين). مدينة غانة مدينتان أحداهما يسكنها الملك، والأخرى يسكنها الرعية والتجار والسوقة. وفى مدينة الرعية جامع كبير ومساجد كثيرة وفيها الأئمة والمؤذنون والفقهاء والعلماء[3]. والرعية فى نص الاستبصار يقصد بهم العامة، أى أهل البلاد من الوطنيين، والتجار يعنى بهم تجار المسلمين من الأجانب، هؤلاء استهواهم ماوصل إلى سمعهم عن غنى البلاد الاسطورى - غانة أرض الذهب كما يصر على ذلك

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٥.

(٢) الاستبصار، ص ٢٢٠.

(٣) الاستبصار، ص ٢٢٠.

كل الكتاب - فقطنوها - والسوقة ويعنى بهم أما العامة أيضا أو أهل الأسواق من الوطنيين ممن يقومون بعلميات البيع والشراء البسيطة.

ومن نص الاستبصار يبدو أن التجار المسلمون رغم أنهم كانوا يعيشون فى جماعات لها نظمها الخاصة كما سبق القول الا أنهم كانوا يستوطنون مع الوطنيين فى مدينة واحدة ولم يكونوا بمعزل عنهم. ويفهم من هذه النصوص أن ملوك غانة كانوا يحسنون معاملة التجار المسلمين، ويتركونهم يمارسون بحرية شعائر دينهم، ولم يقتصر الامر على هذا الحد بل تقول رواية صاحب الاستبصار «انه كان فى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من تجار المسلمين»[1].

ولقد اتت هذه السياسة أكلها بطبيعة الحال فعن طريق الاحتكاك السلمى بين التجار المسلمين وبين الأهالى من الوطنيين تسرب الإسلام شيئا فشيئا إلى بلاد السودان.

انتشار الإسلام عن طريق التبشير:

ولابأس من الاشارة هنا إلى نشاط بعض التجار من شيوخ الاباضية فى بلاد السودان: فى غانة ومالى - وأن كان مالدينا من أمثلة قليل - هؤلاء النفر من الشيوخ لم يكن هدفهم هو الطمع فى الدنيا وجمع الكثير من الثروات فقط بل كان أمامهم هدفا اسمى هو: التبشير بالإسلام والدعوة إليه والعمل على توطيد اركانه فى هذه البلاد النائية.

والمثل لذلك أحد شيوخ الاباضية الذى قام بدعوة ملك السودان إلى الإسلام، ونجح فى حركته وانتهى الامر بدخول الملك فى الإسلام.

---

(١) الاستبصار، ص ٢٢٠

تقول رواية الشماخي (توفى سنة ٩٢٨ هـ/ ٥٢١ د ١٥٢٢م)، صاحب كتاب السير أو سير مشايخ جبل نفوسة (وتاريخها غير محدد) .» [١] وسافر أبو يحيى إلى بلاد السودان فوجد ملكهم دقيق الجسم خائر القوى، وسأله عما به قال خوف الموت، فأخبره الشيخ عن الله وصفاته سبحانه وكلمه عن الجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصى، ولكن الملك كذبه وقال«لو صح عندك ماتقول مابلغت إلينا لطلب الدنيا» ،.... ولكن الشيخ ظل فى تبشيره للملك ذاكرا له نعم الله حتى أسلم وحسن اسلامه، ومنحه الإسلام قوة عظيمة[٢].

هناك مثل آخر لأحد شيوخهم، وهو يسمى على بن يخلف. تقول الرواية: «ومن أعظم كراماته ما اشتهر عند الموافق والمخالف وذكر ذلك البكرى فى المسالك والممالك الا أنه لم يسمه وسماه غيره - وهو أنه سافر إلى دواخل غانة تاجرا (فى مدينة مالى)، فقام بها، وكان يتمتع بمكانة كبيرة لدى ملكها، وحل الجدب ببلادهم، واشتكت الرعية إلى السلطان وقاموا بصلاة الاستسقاء، وكان الشيخ على على سفر (كما تقول الرواية)، فطلب منه الملك أن يدع ربه لعله يفرج عنهم كربتهم، فقال له الشيخ «أيها الملك لو أمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت رسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما انت فيه»، واستمر الشيخ يصف له الإسلام حتى انتهى الإمر بإسلامه واخلاص نيته، وقام الشيخ بتعليمه ماتيسر من القرآن وعلم الفرائض والسنن، وانتظر إلى ليلة

---

(١) الشماخي، السير، طبعة الجزائر، ص ٣١٢

(٢) الشماخي، السير، ص٣١٢

فأمر الملك بالتطهر فتطهر وألبسه ثوب قطن كان عنده وخرج معه إلى كدية فقام الشيخ يصلى والملك يتبعه والمسلم يدعو والملك يقول آمين، فما قدم الصباح الا وسقط المطر»[1] (ربما نتيجة لحلول فصل الامطار وقتئذ) وتقول رواية البكرى، أن الملك أمر بعد ذلك بكسر الدكاكير واخراج السحرة (وهم كهنة الديانة القومية)، من بلاده، ودعا الملك أهل بيته والمقربين إليه إلى الإسلام فلبوا الدعوة، تقول رواية البكرى، وصح اسلامه واسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون[2]، وأخذ الشيخ كماتقول رواية الشماخى، يعلمهم الصلاة وفرائض الدين والقرآن[3]، ويعلق الشماخى على تلك الرواية بقوله:«وهذا سبب دخول الإسلام بلاد السودان بغانة ومايليها»[4]. وبرغم الطابع الروائى الذى يغلف القصص، لابأس من قبولها. ويحق التساؤل مامبلغ صحة روايات الشماخى؟ وهل كان مارمى به أهل السنة الخوارج من الخروج سببا فى أن يحاول كتابهم أن يضفوا عليهم أمجادا وبطولات تبين جهودهم فى نشر الإسلام كرد فعل لما رموا به؟ ومع ذلك لابأس من الاشارة إلى أن الخوارج ظهروا بمظهر المحافظين على الشرع الذى يرغبون فى العودة بالإسلام إلى نقائه الأول، ووصفوا بأنهم أهل صيام وقيام.

وظهر الإسلام بوضوح فى المدن التجارية: (غانة ، مالى، جنى، كوكو، تنبكت) لأن موقع هذه المدن الجغرافى هيأ لها فرصة اتصال أكبر بالعالم الخارجى، ولهذا السبب تعرفت على أفكار حضارات مستجلبة من الخارج واستقبلت تيارات فكرية وثقافية خارجية، وعرفت مظاهر حضارة أرقى.

---

(١) الشماخى، السير، ص ٤٥٧، البكرى، المغرب، ص ١٧١

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٧١

(٣) الشماخى، السير، ص ٤٥٧

(٤) الشماخى، السير، ص ٤٥٧

وفي القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى)، تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدرلهما في القرون التالية أن تؤثرا تأثيرا قويا في تقدم الإسلام في بلاد السودان الغربي.

المدينة الأولى، مدينة جنى (وهذه المدينة تقع على نهر بنى في وسط السهل الفيضى لدلتا النيجر الأوسط، وعلى بعد ٣٦٠ كيلو متر من جنوب غرب تنبكت، و٣٠٠ شرق وشمال شرق سيجو[١].

التي تقول الرواية انها تأسست سنة (٤٣٥هـ / ١٠٤٣ - ١٠٤٤)[٢] وهى سوق ومركز تجارى هام، «وفيها يلتقى أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب من معدن بيط كما يقول السعدى»[٣].

والمدينة الثانية، مدينة تنبكت، التي اسسها «توارق مغشرن»، حوالى سنة ٤٩٠هـ / ١١٠٠م (بعد موت أبى بكر بن عمر بعشر سنوات)، وهى مدينة مغربية في قلب السودان، وكانت تنبكتو منذ نشأتها مدينة اسلامية خالصة «مادنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على اديمها قط لغير الرحمن» كما يقول السعدى صاحب تاريخ السودان[٤].

وقد صارت هذه المدينة فيما بعد «مأوى للعلماء والعابدين»[٥]، ومركزا للعلم والفكر والثقافة في السودان الغربي.

---

(1) Trimingham, A history of islam in west Africa, p, 63, ency de l'islam Nouv . édit, vol II, p, 259.

(2) Arnold, the preaching of islam, second édition, London, 1913, p, 318. ينقل عن Meyer الذى ينقل بارث بدوره

(٣) السعدى، تاريخ السودان، ص ١١، الترجمة الفرنسية لهوداس، ص ٢٢.

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١.

(٥) السعدى، تاريخ السودان، ص ٢١.

وهكذا خلال مئات من السنين كان لابد أن تحدث أشياء أخرى، غير تبادل التجارة والبضائع، فقد صحب ذلك تبادلا للأفكار والثقافات، وهو أهم لنمو الحضارة من مجرد تبادل البضائع.

العلاقات السياسية: انتشار الإسلام عن طريق الحروب والسياسة

قامت قبائل صنهاجة من الملثمين «الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان»[1]، بدور عظيم فى نشر الإسلام بين السودان.

ويبدوا أن إسلام قبائل صنهاجة أهل اللثام، قد بدأ منذ البداية، فقد سبق القول أن قبائل جزولة أتت إلى عقبة ودعاهم إلى الإسلام فاسلموا وعادوا إلى منازلهم (٦٢-٦٥)[2].

أما لمتونة فقد أسلموا - كما تقول النصوص - «بعد فتح الأندلس» وكانوا على دين المجوسية[3].

ولابأس من الاشارة هنا إلى أن زناته سبقت صنهاجة فى الإسلام، وتقول رواية ابن خلدون أنهم اسلموا منذ أيام عثمان بن عفان (٢٣هـ - ٣٥هـ/ ٦٤٤ - ٦٥٦م) وذلك عند ماذهب أمير مغراوة صولات بن وزمار إلى المدينة، وقابل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله عنه «فمن عليه وأسلم فحسن إسلامه»[4].

ويمثل صنهاجة اللثام فى أيامنا هذه - المور فى الغرب، والطوارق فى

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة التجارية، ص ٨٧.

(٢) انظر فيما سبق الفصل الخاص بالإسلام فى الصحراء

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص ٢٤

وسط الصحراء[1]. ونستدل من الروايات على أن بذور الإسلام التى وصلت إلى الصحراء - إلى صنهاجة الرمال -وجدت أرضا صالحة، وعملوا بدورهم على نشر الإسلام فيما وراء صحرائهم فى بلاد السودان، مواصلين بذلك حركة المد الإسلامى التى غمرتهم. وكان أصحاب اللثام (كما سبق أن رأينا فى الفصل الخاص بسكان الصحراء، قد وصلوا فى سبيل البحث عن أرض صالحة لرعى قطعانهم إلى قلب الصحراء المغربية وجولوا فى معظم الأماكن الملائمة للرعى التى كانت تقطنها الجماعات السودانية)[2] وأصبح السودان بدورهم يدفعون الجزية.

واحتفظ لنا ابن خلدون بصدى ذلك الصراع: «ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان، وحملوهم على الإسلام فدان به كثير واتقاهم آخرون بدفع الجزية[3].

والذى يستحق الملاحظة لأول وهلة، فى العلاقات بين الملثمين والسودان، انه على عكس العلاقات الطيبة التى كانت تربط بين السودان وبين أباضية الرستميين من الخوارج فى تاهرت والفرع الآخر من صنهاجة (صنهاجة الشمال، أهل الحضر) (بنو زيرى بن مناد الصنهاجى بأفريقية)، كانت العلاقات سيئة وفاترة تكاد تتمزق فى كثير من الأحيان بين صنهاجة الرمال وبين جيرانهم فى الجنوب (كما سنرى فيما بعد فى الفصل الخاص بمملكة غانة)، وكانت تصل إلى حد قيام الحرب بين الطرفين.

وكانت رياسة قبائل صنهاجة للمتونة كما يفهم من رواية ابن خلدون،

---

(1) Trimingham, A history of islam in west Africa, p, 20.

(٢) انظر ماسبق الفصل الخاص بسكان الصحراء

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١

وأول دولة ظهرت عند صنهاجة اللثام - كانت معاصرة للرستميين فى تاهرت (فى المغرب الأوسط - الجزائر الحالية) للأدارسة فى فاس (المغرب الأقصى) - وتبالغ الروايات فى وصف ملك حاكمها تيولوتان اللمتونى (مات سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ - ٨٣٧م)، فتقول أنه كان يركب فى مائة الف نجيب، وأن عمله كان مسيرة شهرين فى شهرين، وتحت امرته، حقق الصنهاجة انتصارهم على القبائل السودانية التى كانت تابعة لمملكة غانة الوثنية، وفرضوا الجزية عليهم[1].

وتولى الملك بعده يلتان (وكانت دولته معاصرة للأدارسة فى فاس)، وساس أمورهم وتوفى فى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠م. وخلفه أبنه تميم، وقام بتدبير الأمور، وانتهى الأمر بمقتله على يد شيوخ صنهاجة سنة (٣٠٦هـ / ٩١٨ - ٩١٩م)[2]، وكانت دولته معاصرة لخلافه عبد الرحمن الناصر فى الاندلس، وخلافة عبيد الله المهدى فى المغرب. وعقب مقتل تميم استعادت الممالك السودانية بدون شك استقلالها، ولكن ظل صنهاجة اسياد الصحراء[3].

وبين سنة ٣٥٠ وسنة ٣٦٠ هـ (٩٦١ - ٩٧١م)، كان حاكم أودغست الصنهاجى يدعى تين يروتان بن ويسنو بن نزار، وطلب منه تعرين (يعرين؟) ملك ماسين المدد فى حربه ضد ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب (وهو عدد مبالغ فيه بلا شك، والهدف من ذلك هو اظهار عظم

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨١ . ويكتب ابن أبى زرع اسمه فى شكل تيلوتان، روض القرطاس، ص ٨١. ويسميه أبن الخطيب يرلوفان «ابن الخطيب، اعمال الاعلام (القسم الثالث) تحقيق أ.د. أحمد مختار العبادى، محمد إبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٢٢٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨٢.

(3) Terrasse, H. du Maroc, tome II, p, 213.

ملكه) دخلت مدينة أوغام، واستولى على البلد وأحرقها.

ولما رأى أوغام ماحدث هان عليه الموت وخرج. ورمى بدرقته إلى الأرض وقاتل حتى قتل، فلما رأته النسوة قتيلا، قتلن انفسهن بطرق مختلفة «أسفا عليه وأنفة من أن يملكهن البيضان»[١] وهذه الرواية تشير إلى النزاع مع غانة، أو اعمالها التابعة لها، لأن البكرى فى موضع أخر يذكر أن أوغام هذه كانت منطقة تقع شرق غانة[٢].

وعقب مقتل تميم اختلف أمر صنهاجة أصحاب اللثام لمدة مائة وعشرين عاما إلى أن تولى أمرهم الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بتارسنا اللمتونى[٣]، «وكان من أهل الفضل والدين والحجج والجهاد». ذهب إلى مكة لاداء فريضة الحج، وقد ظل أميرا على صنهاجة مدة ثلاثة أعوام، واستشهد أثناء جهاده السودان بموضع يدعى قنقارة من بلاد السودان[٤]. حوالى سنة (٤٢٨ - ٤٢٩هـ / ١٠٣٦ - ١٠٣٧م)، واستعاد السودان مدينة أودغست[٥]، حاضره صنهاجة وثغرهم.

وبعد أن توفى الأمير محمد اللمتونى، تولى إمره صنهاجة من بعده، صهره يحيى بن ابراهيم الكدالى وكان يحيى مصاهرا بيت ورتنطق (ورتانطق) وفيهم كانت رياسة لمتونة[٦].

(١) البكرى، المغرب، ص ١٥٩.

(٢) البكرى، المغرب، ص ١٨٠.

(٣) تارسنى لدى البكرى، المغرب، ص ١٦٤، روض القرطاس، ص ٨١، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، جـ٣، ص ٢٢٦، (يسميه محمد بن تيفات اللمطى)، ابن خلدون، العبر، جـ ٦، ص ١٨١.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٦٤، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٢، «يذكر انه استشهد فى غزاة له بموضع يقال له بغدرة»

(5) Terrasse, H. du Maroc, tome II, p, 214.

(٦) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨٢

وبذلك انتقلت الزعامة من لمتونة إلى جدالة وهو رجل يتصف بالصلاح والورع وبعد أن آل إليه الملك، رأى أن يصلح قومه عن طريق اصلاح دينهم إلى جانب اعتماده على عصبية لمتونة التى كان يرتبط بها برباط المصاهرة كما سبق القول. فاستخلف ولده ابراهيم بن يحيى فى الرياسة، وتوجه هو ونفر من رؤساء قبيلته إلى المشرق بغرض اداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول ﷺ. قبل عام ٤٣٠هـ، (وان كانت رواية ابن خلدون تحدد حجة بسنة ٤٤٠هـ)[١] وبعد أن قضى فرضه، قفل راجعا وأصحابه إلى بلدهم، وفى الطريق توقفوا فى القيروان، وقصدوا الفقيه أبا عمران الفاسى (توفى سنة ٤٣٠هـ) شيخ المذهب المالكى[٢]، وسأل الفقيه يحيى عن قبيله، وعن مذهبهم فرد عليه الأخير بقوله «مالنا علم من العلوم ولامذهب من المذاهب لأننا فى الصحراء منقطعين لايصل إلينا الا بعض التجار جهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم[٣]، وطلب منه أمير جدالة أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين.

وتقول الرواية: أن الشيخ دعا تلاميذه إلى ذلك الأمر فرفضوا وأشفقوا من دخول الصحراء، وعندئذ كتب الفقيه أبو عمران إلى الفقيه وجاج بن زلو

---

(١) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، القسم الثالث، ص ٢٢٦، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٢، ابن خلدون، العبر، حـ٦، ص ١٨٢.

(٢) وهو ابو عمران موسى بن الحجاج الفاسى، ولد بفاس ثم ارتحل إلى القيروان واخذ بها العلم عن أبى الحسن القابسى، ثم رحل إلى بغداد فحضر بها مجلس الفقيه أبى بكر بن الطيب فأخذ عنه علما كثيرا، ثم عاد إلى القيروان فلم يزل بها إلى أن توفى فى ١٣ رمضان سنة ثلاثين وأربعمائة، ابن أبى زرع، روض القرطاس ، ص ٨٢.

(٣) الحلل الموشية، ص ٧

اللمطى (وهو أحد تلامذته)، وكان مقيما فى مدينة نفيس، وجمع الفقيه تلامذته،وانتهى الأمر بأن اهتدى الفقيه اللمطى إلى أحد تلاميذه، وأصله من قبائل الملثمين وهو عبد الله بن ياسين بن بك الجزولى، وهو من قرية تسمى تماماناوت فى طرف صحراء مدينة غانة (كما يقول البكرى)[١].

وهكذا تم اللقاء بين يحيى بن إبراهيم، وابن ياسين فى نفيس، وعاد الأمير الجدالى إلى صنهاجة اللثام وبصحبته عبد الله بن يس، واستقبلت قبائل كدالة ولمتونة الفقيه بالترحيب.

ولانعرف الكثير عن ابن ياسين، وينفرد صاحب الحلل الموشية بذكر رواية لاندرى مبلغها من الصحة تقول أن ابن ياسين. كان قد دخل الاندلس فى دولة ملوك الطوائف اقام بها سبع سنين يلازم القراءة فحصل علما كثيرا وعاد إلى المغرب الأقصى[٢]. وبدأ عبد الله بن ياسين حركة الاصلاح، بتعليم صنهاجة الرمال أصول الإسلام ، مبينا لهم الشرائع والسنة، آمرا لهم بالمعروف وناهيهم عن المنكر[٣]، وكانوا يوافقونه ولكنهم أخذوا عليه بعد ذلك أشياء فخرجوا عليه، وتعرض ابن ياسين لكثير من العنت والشدة، وتزعم الثورة ضده فقيه من المحليين اسمه الجوهر بن سكم - ربما دفعه إلى ذلك حقده على ابن ياسين فكلا الرجلين كانا من الفقهاء، ويعاونه اثنين من أعيانهم أحدهما يسمى ابار، والآخر اينتكوا، وطردوه، وهدموا داره ونهبوا ماكان فيها كما تقول رواية البكرى[٤].

---

(١) البكرى، المغرب ص ١٦٥، روض القرطاس، ص ٨٣-٨٤، ابن خلدون العبر، جـ٦، ص ١٨٢.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٠.

(٣) ابن أبى زرع، روض القرطاس،ص ٨٤.

(٤) البكرى، المغرب، ص ١٦٥ - ١٦٦.

وابن خلدون، يمدنا برواية يفهم منها أن أهل اللثام اختلفوا على ابن ياسين بعد موت يحيى بن ابراهيم، ونص هذه الرواية: «... ثم هلك يحيى بن ابراهيم وافترق أمرهم وأطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف..»[1]. هذا بينما تنص رواية ابن أبى زرع على أن الاختلاف حدث على أيام يحيى بن ابراهيم[2].

وهكذا انتكست حركة الاصلاح، وأصبحت الاقامة فى ديار الملثمين غير مستطاعة، ولم يكن أمام زعماء الاصلاح الا الهجرة. وعندئذ رحل عبد الله ابن ياسين وبصحبته يحيى ابن ابراهيم، وصحبتهما بضعة نفر من لمتونة وجدالة، وأسسوا رباطا يقع فى جزيرة عند مصب السنغال الأدنى[3]، وظل عبد الله وصحبه فى الجزيرة يعبدون الله، وتسامع الناس فى أرجاء الصحراء بهذه الجماعة الصالحة، وذهب الكثيرون إليهم فى رباطهم ودخلوا فى دعوتهم، وسماهم عبد الله بن ياسين المرابطين للزومهم رابطته كما يقول ابن ابى زرع. ولما كمل عددهم ألف رجل، قرر عبد الله بن ياسين، أن تترك الجماعة الرباط وتبدأ الجهاد. وكان الرباط قد مر بمرحلة حرجة، عندما مات الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى، واستعرت الأهواء حول من يخلفه فى رياسة صنهاجة، وحدث فيما يبدو - نوع من التنافس بين رجال قبيلتى لمتونة وجدالة، وانتهى الأمر باختيار ابن ياسين ليحيى بن عمر اللمتونى ليخلف الأمير الراحل يحيى بن ابراهيم الجدالى. والحقيقة أن لمتونة هى أقوى قبائل

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٨٤.

Delafosse,Les Noirs de L'Afrique, p, 46.

(٣) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٨٤ - ٨٥، ابن الخطيب، اعمال الاعلام جـ٣، ص ٢٢٨.

الملثمين، وكان اختيار ابن ياسين ليحيى بن عمر وضعا الشيء فى موضعه الصحيح[1].

وطلب ابن ياسين (مهدى المرابطين)، من تلامذته العودة إلى قبائلهم وعشائرهم والعمل على دعوتهم إلى الحق[2]. وبعد أذعان قبائل لمتونة ومسوفه ولمطة، تم الاتحاد السياسى بين صنهاجة الرمال، وبدأ الجهاد الفعلى. وكان الهدف منه هو تحقيق غايتين: **أولاهما**: غزو بلاد السودان وادخال القبائل السودانية فى الإسلام، **وثانيهما**: السيطرة على بلاد المغرب والقضاء على قوة زناته، وعلى الزندقة الدينية التى كان المغرب فريسة لها منذ عدة سنوات[3].

وفى عهد الأمير يحيى بن عمر اللمتونى، بدأ الصراع العنيف ضد ملوك الونجارة فى غانة الذين كانوا يمثلون الوثنية، وانسالت عساكر المرابطين ناحية الجنوب، وافتتحت أودغست سنة (٤٤٦هـ / ٥٤ - ١٠٥٥م) كما سنرى بالتفصيل فيما بعد فى الفصل الخاص بدولة غانة.

واستشهد الأمير يحيى بن عمر سنة ٤٤٨هـ، وتولى زعامة صنهاجة من بعده اخوه أبوبكر ابن عمر، الذى فتح بابا من جهاد السودان كما يقول ابن خلدون[4]، واستولى على غانة فى سنة ٤٦٩هـ - ١٠٧٦م، وأدخل أهلها فى الإسلام.

وفى نفس الوقت كان عبد الله بن ياسين وتلامذته يقومون بدعاية دينية حية بين السود القاطنين حينذاك على ضفة السنغال، وكذلك الشعوب

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٨٥ - ٨٦، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، جـ٣، ص ٢٢٨.
(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٨٥ - ٨٦.
(٣) ابن ابى زرع، ص ٨٥-٨٦، ابن خلدون، المقدمة، الفصل الخاص «فى أن الدعوة الدينية تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية التى كانت لها من عددها، طبعة التجارية، ص ١٥٨.
(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ١٨٣.

النيجرية. وفى الحقيقة كانت الدعوة دائما تقابل بمقاومة كانت تنتهى حين لم يكن هناك وسيلة أخرى لاظهارها بخروج السكان. وبهذه الطريقة فان أغلبية السرر[1] هاجروا إلى الضفة الشمالية من النهر فى التكرور (السنغال الآن)، ومن التكرور خرج عدد كبير للتجمع فى السين حيث لانزال نجدهم حتى اليوم، وهكذا تركوا الميدان حرا للبربر فيما صار من ذلك الوقت موريطانيا، يطاردهم فى نفس الوقت الرغبة فى الهرب من ضغط المرابطين والاهتمام بالبحث عن أراض أكثر خصوبة وأقل جفافا.

وبدأ الفلان (الفلاتة) أيضا فى ترمس وتاجنت، فى الرحيل مع قطعانهم ناحية التكرور (السنغال)، مدفوعين بأسباب مماثلة. ومع ذلك فان بعض العائلات الملكية قد جذبتهم إلى الديانة الجديدة الهيبة التى تلحق بمعتنقيها قد اصطفوا برغبتهم تحت راية محمد (ﷺ)[2]. وهكذا كان حال الأمراء الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة فى التكرور، تحت الولاية البعيدة لأباطرة غانة، والذين كانوا ينتمون مثل هؤلاء الأخيرين لجنس السركلة.

وقام أحد تلاميذ عبد الله بن ياسين الذى تنتشر عنه اساطير كثيرة والذى انتقلت ذكراه الينا تحت عدة أسماء مختلفة منها ابا درداء - بادخال امراء وأعيان التكرور فى الإسلام[3].

وتقول رواية البكرى أن وارجابى ملك التكرور (وزجاى بن ياسين عند صاحب الاستبصار) أسلم هو وأسرته فى بداية القرن الخامس الهجرى (١١م)، سنة ٤٣٢هـ. وتبعه فى إسلامه أهل مدينته، وعمل وارجابى بدوره

---

(١) دلافوس، السود فى افريقية، بالفرنسية، ص ٤٨

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p. 48.

(٣) دلافوس، نفس المرجع، ص ٤٨، دائرة المعارف الإسلامية، بالفرنسية، جـ، ص

على جهاد كفرة السودان، وادخل الإسلام إلى مدينة سلى[1]. هذا بينما تذكر رواية ابن حزم (توفى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م).

أن إسلام ملوك سلى والتكرور كان سنة ٤٣١ هـ ونص الرواية : «بلغت فى عام احدى وثلاثين واربعمائة أنه اسلم أهل سلا وتكرور، وهما أمتان عظيمتان من بلاد السودان، أسلم ملوكهم وعامتهم»[2].

وليس من الغريب أن عبد الله بن ياسين حين رأى أعراض صنهاجة أصحاب اللثام واتباعهم اهواءهم، فكر فى الرحيل عنهم «إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام (تكرور) اذ كان الإسلام بها قد كثر» كما تقول رواية ابن ابى زرع[3].

وأحد بربر لمتونة الذى لم يكن تبعا لليون الافريقى (الحسن الوزان)، الا والد يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر المشهور قد ذهب حتى الماندنج (مالى)، ونجح فى ادخال ملك هذه البلاد المسمى برمندانة فى الدين الجديد وجعله يقوم بالحج إلى مكة. ويحدد دلافوس ذلك الحدث بسنة ٤٤٢هـ[4]. وليس هناك أى دليل على قرن برمندانة بملك ملل الذى ذكره البكرى (المسلمانى) ؟.

ولابأس من الاشارة إلى أن طبعة كتاب «وصف افريقية» للحسن الوزان، التى رجعت اليها لاتوجد بها تلك الرواية لكن الحسن يقول عند كلامه عن

---

(١) البكرى، المغرب، ص ١٧٢، الاستبصار، ص ٢١٧.

(٢) ابن حزم، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق د. احسان عباس، د. ناصر الدين الاسد، مجموعة تراث الإسلام، طبعة دار المعارف، مصر، ص ٣٥٠. (الرسالة الرابعة)، جمل فتوح الإسلام بعد رسول الله ﷺ.

(3) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, p, 48.

مالى. هم (أى أهل مالى) فى الواقع أول من ارتبطوا بالديانة الإسلامية (بديانة محمد)، كان يحكمهم فى عصر اعتناقهم الإسلام أعظم امراء ليبيا الذى كان عم يوسف ملك مراكش[1].

ويقول دلافوس، ويتعين علينا بالرغم من ذلك ألا نغالى فى أهمية أدخال السود إلى الإسلام عن طريق المرابطين، ولأن نقول كما فعلوا فى بعض الأحيان أن هؤلاء قد ادخلوا كل السودان فى الإسلام.

وفى الحقيقة لم يكن الإسلام صحيحا الا عند الأمراء وكبار الموظفين والمحيطين بهم بصورة مباشرة أما جماعة الشعب، فانها أما صمدت للإسلام بواسطة الخروج كما سبق أن رأينا فيما يتعلق بالسرر والفلان، أو أنها لم تترك نفسها تتأثر بجهود الدعاة المرابطين كما هو حال الولف Ouolofs (الجلف)، والماندنج (الونجارة)[2].

ولم يدخل الإسلام بعمق وبقوة وبامتداد الاعند التكرور وعند السنغى وشيء غريب عند السركلة والديولا وانتهى الأمر بالسركله الذين كانوا يمثلون العنصر الوثنى فى أقصى قوته إلى الاقتداء بغالبيهم واعتناق ديانتهم وأصبحوا فيما بعد أفضل المسلمين فى كل السودان الغربى. ونقلوا معهم الدين الإسلامى إلى مناطق عديدة كثيرة من السنغال والساحل وماسنة حيث استقروا بعد سقوط غانة وتفرق سكانها كما أنهم نقلوها إلى شعب الديولا الذى نقل بدوره الإسلام حتى الحدود الشمالية للغابات الاستوائية[3].

---

(١) ليون الافريقى، وصف افريقية، بالفرنسية، جـ٢، ص ٤٦٦.

(2) Delafosse, Les Noirs de L'Afrique, pp, 48, 49.

(٣) دلافوس، نفس المرجع السابق، ص ٤٩.

أثر الهجرة الهلالية على انتشار الإسلام فى الصحراء والسودان:

كان للهجرات العربية التى استقبلتها بلاد المغرب فى القرنين الخامس والسادس الهجرى (الحادى عشر والثانى عشر الميلادى)، نتائج بعيدة المدى فى السودان المغربى. فقد وصلت بعض القبائل العربية جنوب الصحراء، مثل بنى حسان[1]، فانهم بعد أن اجتاحوا جنوب المغرب الأقصى، وغزوا ادرار، وصلوا إلى اسافل السنغال فى نهاية القرن السادس عشر، ثم توجهوا شرقا (شرقوا)، إلى تاجنت والحوض. ويفهم من رواية ابن خلدون انهم كانوا على اتصال بمملكة مالى[2].

---

(١) وذوى حسان بطن من بطون المعقل، وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين فى عدد قليل (منتصف القرن الخامس الهجرى)، يقال انهم لم يبلغوا المائتين وكانت مواطنهم تمتد من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس، فيستولون على السوس الأقصى وما اليه وينتجعون كلهم فى الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة، وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم ممايلى ملويه ورمال تافيلالت وحاوروا زناته فى القفار وكثروا فى صحارى المغرب الأقصى، وكانوا هناك احلافا لزناته، ابن خلدون، العبر، جـ٦، ص ٥٨

(٢) ابن خلدون، جـ٧، ص.٣١١.

القسم الأول

المصادر والمراجع العربية

المصادر والمراجع العربية:

١ - ابن الأثير، أبو الحسن على بن محمد الجزرى، توفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م.

- الكامل فى التاريخ، طبعة التجارية، ج ٥.

٢- ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى، توفى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م.

- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، طبع بيروت، ٤ أجزاء.

٣- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولى الدين التونسى الحضرمى الإشبيلى المالكى، توفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م.

- مقدمة ابن خلدون، طبع دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٦٧م.

- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، نشر محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠م.

٤- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفى سنة ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

-الفهرست، طبعة التجارية.

٥- أحمد أمين.

- ضحى الإسلام، طبع بيروت، ج٣.

٦- آدم متز.

- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (أو عصر النهضة فى الإسلام)، ترجمة عبد الهادى أبو ريدة، فى جزئين.

٧- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، توفى سنة ٢٥٥هـ / ٨٧٨م

- كتاب الحيوان.

٨- خليفة بن خياط، توفى سنة ٢٤٠هـ / ٩٥١م.

- تاريخ خليفة بن خياط (رواية بقى بن مخلد) تحقيق سهيل زكار، فى قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومى،

دمشق ١٩٦٧ - ١٩٦٨م

٩- ديمومبين (جودفروا)

- النظم الإسلامية، ترجمة الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١م.

١٠- الدينورى، محمد بن على بن الحسن العلوى، توفى سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م.

- الأخبار الطوال، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

١١- السبكى، عبد الوهاب بن على، تاج الدين، توفى سنة ٧٧١هـ / ١٣٧٠م.

- طبقات الشافعية، تحقيق محمود محمد الطناحى، عيسى عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة البابى الحلبى، مصر، سنة ١٩٦٧م، ج٥.

١٢- سعد زغلول عبد الحميد.

- محاضرات فى الحضارة الإسلامية، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

- سياسة تامة لنظام الملك، تراث الإنسانية، المجلد التاسع (٢).

١٣- الشهر ستانى، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م.

- الملل والنحل، طبع القاهرة ١٣١٧هـ ، فى ٥ أجزاء، هامش على كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل فى ٤ أجزاء.

١٤- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير، توفى سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م.

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف مصر (مجموعة ذخائر العرب)، ج٨.

١٥- عمرعبد العزيز عمر.

- دراسات فى تاريخ العرب الحديث (٢) الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثامن عشر، طبع دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

١٦- الكندى، أبو عمر محمد بن يوسف، توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م.

- كتاب الولاة والقضاة، نشر رفن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨م.

١٧ ـ الماوردى،أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى، توفى سنة ٤٥٠هـ / ١٠١٥م.
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة البابى الحلبى، مصر، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٦م.
١٨ ـ المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين، توفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٦م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨م.
-وطبعة برية دى مينار وبافيه دى كرتاى، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣ .
١٩- النوبختى، أبو محمد الحسن بن موسى، توفى سنة ٢٣٢هـ / ٨١٧م.
- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف سنة ١٣٥٥هـ ، ١٩٣٦م.
٢٠- ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى، توفى سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م.
- معجم الأدباء، تحقيق محمد فريد الرفاعى، طبع مصر، ح ١٥ .

القسم الثاني

المصادر والمراجع العربية

أولا:المصادرالمراجع العربية

١- ابن ابى دينار، محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى:

- المؤنس فى أخبار افريقية ونونس، طبع تونس، ١٢٨٠ هـ.

٢- ابن ابى زرع، أبو الحسن أحمد بن على بن أبى زرع الفاسى توفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م.

-الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، فاس، طبع حجر.

٣- الادريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودى، توفى سنة ٥٦٠ / ١١٦٦.

- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس - مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - نشر: دوزى، دجويهR.Dozy , M.Y. De Coeje، ليدن ١٨٦٦.

٤- ابن الأثير، أبو الحسن على بن محمد الجزرى، توفى سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م

- الكامل فى التاريخ، طبعة القاهرة، ١٢ جزء.

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥ هـ.

٥- ابن الأحمر، أبو الوليد، توفى سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧م

- نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان.

(مخطوط دار الكتب رقم ٧١١٣ أدب).

٦- الاستبصار، كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار(وصف مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب) لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى (١٢م).

- نشر وتعليق الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد مطبعة جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨.

٧- الاصطخرى، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى، توفى سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م.

- كتاب المسالك والممالك نشر دجويه De Coeje، ليدن ١٩٢٧.

٨- أحمد بابا، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت ابن عمر بن على

بن يحيى التكروري الصنهاجي المسوفي التمكتي (التنبكتي) توفي سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م.

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، هامش لكتاب الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب، طبع مصر ١٣٢٩ هـ.

٩- أنجيل جنثالث بالنثيا.

- تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.

١٠- رولاند أوليفر وجون فيج.

- موجز تاريخ افريقية، ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق، القاهرة ١٩٦٥، (سلسلة دراسات افريقية).

١١- ابن بطوطه، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، توفي سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م.

- تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، طبعة التجارية ١٩٦٤، في جزئين.

- ترجمة جزئية خاصة بآسية وافريقية، بالانجليزية، لندن ١٩٣٩، وانظر جب.

١٢- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، توفي سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر ده سلان De Slane باريز ١٩١١.

١٣- بروفنسال E. Lévi-provencal.

- نص جديد عن فتح العرب للمغرب، مجلة المعهد المصري بمدريد، سنة ١٩٥٤.

- نخب تاريخية جامعة لاخبار المغرب الأقصى، باريز ١٩٤٨. وانظر ابن عذارى المراكشي.

١٤- ر. بلاشير، منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى.

Extraits des principaux Géographes arabes du moyen age, paris, 1932.

١٥- البيرونى ، ابو الريحان محمد بن أحمد، توفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م.

- القانون المسعودى، ٣ أجزاء، الطبعة الأولى، حيدر اباد الدكن الهند سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

- الجماهر فى معرفة الجواهر، الطبعة الأولى، حيدر اباد الدكن سنة ١٣٥٥هـ.

١٦- التحفة السنية فى اخبار الدولة المرينية (لمؤلف مجهول).

١٧- التونسى، محمد بن عمر، توفى سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م).

- تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق دكتور خليل محمود عساكر، دكتور مصطفى محمد مسعد ، (تراثنا) القاهرة، ١٩٦٥.

١٨- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، توفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٧٨ - ٨٦٩م.

- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع القاهرة ١٩٦٤ الجزء الأول.

- الرسالة الرابعة وعنوانها : «كتاب فخر السودان على البيضان».

١٩- أبو حامد الاندلسى، الغرناطى، محمد بن عبد الرحمن بن سليمان القيسى، توفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م.

- تحفة الالباب ونخبة الاعجاب، نشرGabriel Ferrand مع ترجمة فرنسية.Journal Asiatique, Juillet- Septembre 1925.

٢٠- جود فروا ديمومبين Gaudefroy-Demombynes .

- مسالك الابصار فى مسالك الامصار (افريقية عدا مصر)

L'Afrique moins L'Egypte

ترجمة فرنسية مع مقدمة وهوامش، باريز ١٩٢٧.

٢١- جونز وديفيد وليامز.

- المعادن والرواسب المعدنية، ترجمة الدكتور فخرى موسى، الدكتور عبد العزيز عثمان، راجعه الدكتور نصرى مترى شكرى (مجموعة الالف كتاب) رقم (٣٥٢).

٢٢- ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد ابو الفضل الكتانى العسقلانى القاهرى الشافعى، ولد سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م، توفى سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م.

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء، طبعة حيدر اباد الدكن، ١٣٥٠هـ.

- انباء الغمر بأنباء العمر، نشر وتحقيق الدكتور حسن حبشى، الجزء الأول، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م (لجنة احياء التراث الإسلامى).

٢٣- الحريرى، أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن الحريرى، ولد فس نة ٤٤٦هـ ، وتوفى سنة ٥١٦هـ.

- مقامات الحريرى.

٢٤- ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى، توفى نسة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م.

- جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى، تحقيق الدكتور احسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر (مجموعة تراث الإسلام).

٢٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.

- كتاب صورة الأرض، نشر J.H. Kramers ،ليدن ١٩٣٨. فى جزئين.

٢٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، توفى سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م.

- المسالك والممالك، نشر دجويه De Goeje ، ليدن، ١٨٨٩.

٢٧- ابن الخطيب السلماني، لسان الدين محمد بن عبد الله، ولد ٧١٣ هـ /

١٣١٣م، توفى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م.
- كتاب أعمال الأعلام (القسم الثالث)، نشر وتحقيق ، الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى، والاستاذ محمد ابراهيم الكتانى تحت عنوان: المغرب العربى فى العصر الوسيط، طبعة الدار البيضاء، ١٩٦٤ .
- الاحاطة فى اخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، طبع دار المعارف، القاهرة.

٢٨- ابن الخطيب.
-نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أ.د أحمد مختارالعبادى (تراثنا)، القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

٢٩- ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس أحمد بن محمد، توفى سنة ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محمد محيى الدين عبد الحميد، فى ٦ أجزاء، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م / ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م.

٣٠- ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولى الدين التونسى الحضرمى الاشبيلى المالكى، توفى فى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤هـ.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارية.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، نشر محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١م.

٣١- الخوارزمى، ابو جعفر محمد ين موسى (قرن ٣ هـ / ٩م).
- صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار، نشر هانس فون تريك، طبع فينا ١٩٢٦ .

٣٢- الدمشقى، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى طالب الانصارى، ولد فى سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، توفى سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م.

- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، نشر مرن M.A.F. Mehren ليبزج، ١٩٢٣.

٣٣- الدميرى، محمد بن موسى بن عيسى كمال الدين، ولد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩ م توفى سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٤٩م.

- حياة الحيوان الكبرى، فى جزئين، طبعة القاهرة ١٩٦٣.

٣٤- الدوادارى، أبو بكر بن عبد الله بن ايبك، من مؤرخى القرن الثامن الهجرى (انتهى من تأليف كتابه سنة ٧٣٦هـ).

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع وهو، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠م.

٣٥- الزهرى، أبو عبد الله محمد بن أبى بكر، توفى فى أواسط القرن السادس الهجرى.

-كتاب الجغرافية وماذكرته الحكماء فيها من العمارة ومافى كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوى على الاقاليم السبعة ومافى الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق.

I.F.D. Bulletin d' études orientales, tome XXI, année 1968, Damas 1968.

٣٦- السخاوى، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى الشافعى، توفى سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٧.

- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع فى ١١ جزء، القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ.

٣٧- السعدى، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى، توفى بعد سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م.

- تاريخ السودان.

Texte arabe édité par O. Houdas avec la collaboration de M. Benoist, Paris 1898 (Publications de L'école des langues orientales vivantes, IVe Série volume XII).

٣٨- السلاوى، أحمد بن خالد الناصرى السلاوى، توفى سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م.
- الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، ٤ أجزاء، القاهرة ، ١٣١٢هـ.
-طبعة الدار البيضاء ١٩٥٤ - ١٩٥٦ فى تسعة أجزاء.
٣٩- السيوطى، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى الشافعى ولد سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، توفى سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م.
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، فى جزئين، طبع القاهرة.
٤٠- ابن شاكر الكتبى، محمد بن شاكر الصلاح الكتبى الدمشقى، توفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م.
- فوات الوفيات، طبعة القاهرة.
٤١- الشريشى، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، توفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م.
- شرح المقامات الحريرية، طبع بولاق، طبعة ثانية، سنة ١٣٠٠هـ.
٤٢- الشماخى، أبو العباس أحمد بن عثمان بن سعيد بن عبد الواحد الشماخى اليفرنى، توفى سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م.
- كتاب السير (سير مشايخ جبل نفوسة)، طبع حجر القاهرة.
٤٣- ابن الصغير، (قرن ٣ هـ / ٩م).
- اخبار الائمة الرستميين نشر وترجمة موتيلينسفكى.
Chronique d'ibn Saghir sur les imams Rostemides de tahert, ed. et trad par Motylinski, dans actes du XIVe congrés international des orientalistes, paris 1907.
٤٤- ابن صود، ولد سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٠م.
- تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان.
Texte arabe édité par 0. Houdas avec la collaboration de E. Benoist, paris 1899, (Publications de L'école des langues orientales vivantes IVe série, volume XIX).
٤٥- الطبرى ، ابو جعفر محمد بن جرير، ولد سنة ٢٢٤ - ٢٢٥هـ / ٨٣٩م توفى

سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م.

- تاريخ الأمم والملوك، نشر دجويه، طبع ليدن ١٨٩٧ / ١٨٩٨م.

- طبعة القاهرة في ثلاثة عشر جزاء سنة ١٣٢٨ هـ.

- طبعة دار المعارف فى ١٠ أجزاء (مجموعة ذخائر العرب).

٤٦- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن اعين ليث ابو القاسم القرشى، ولد حوالى سنة ١٨٧هـ، توفى سنة ٢٥٧هـ / ٨٧١م.

- فتوح مصر والمغرب والاندلس، نشر شارل تورى، طبعة ليدن ١٩٢٠.

- نشرة جزئية جديدة بمعرفة عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.

٤٧- الاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد.

- تاريخ المغرب العربى، دار المعارف، ١٩٦٥.

- الاستبصار فى عجائب الامصار، طبع جامعة الاسكندرية ١٩٥٨.

- ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة مجلة كلية الآداب، ١٩٥٤.

٤٨- حسن حسنى عبد الوهاب.

- خلاصة تاريخ تونس، طبع تونس ١٩٥٣.

٤٩- ابن عذارى، المراكشى، أبو العباس أحمد بن محمد، كان حيا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢م.

- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، (الجزء الأول، تاريخ افريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجرى). نشر وتحقيق ج س كولان. أ. ليفى بروفنسال، ليدن ١٩٤٨م.

- وفى سنة ١٩٦١ نشر الاستاذ ابمروسى ويثى ميراندا فى مجلة هيسبيرس ثمودا التى تصدرها كلية الآداب بجامعة الرباط قطعة متعلقة بتاريخ المرابطين مبتورة الأول.

- وفيما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٣ نشرت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط الجزء الثالث المتعلق بتاريخ الأندلس والمغرب العربى من انتهاء المرابطين إلى عام ٦٦٧هـ ، وذلك بعناية امبروسى ويثى ميراندا والاستاذين محمد بن تاويت النظوانى ومحمد ابراهيم الكتانى.

٥٠- العمرى، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله توفى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م.

- مسالك الابصار فى ممالك الامصار، طبعة دار الكتب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ (ج ١).

- ترجمة جزئية خاصة ببلاد المغرب والسودان، بباريز ١٩٢٧ انظر جود فروا ديمومبين.

- التعريف بالمصطلح الشريف، طبع القاهرة سنة ١٣١٢هـ.

٥١- ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى المدنى المالكى، توفى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م.

- الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب، طبع مصر ١٣٢٩.

٥٢- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد، توفى سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣م.

-كتاب البلدان، نشرDe Goeje ليدن ٠.

٥٣- أبو الفدا، اسماعيل بن على، توفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م.

- تقويم البلدان، نشر دسلان ورينو De Slane, Reinaud ، باريز ١٨٤٠.

٥٤- ريمون فيرون.

- الصحراء الكبرى، الجوانب الجيولوجية - مصادر الثروة المعدنية - استغلالها، ترجمة الدكتور جمال الدين الدناصورى، القاهرة ١٩٦٣.

٥٥- القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود، ولد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، وتوفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م.

- آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٠م.
٥٦- ابن القطان، أبو الحسن على بن محمد الكتامى الفاسى، توفى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م.
- نظم الجمان فى أخبار الزمان.
نشرت كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط الجزء السادس منه، بتحقيق الدكتور محمود على مكى، سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م.
٥٧- القلقشندى، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على القلقشندى المصرى، توفى سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م.
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا، فى ١٤ جزءا، طبع دار الكتب المصرية ١٩١٣ - ١٩١٩، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، القاهرة ١٩٥٩.
٥٨- الاستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف.
- مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه، طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠.
٥٩- محمد ابراهيم الكتانى.
- مؤلفات علماء غرب افريقية فى المكتبات المغربية، وهى المحاضرة التى القاها فى لجنة الشرق الأدنى والعالم الإسلامى بجامعة أن أربر ميشتغان بالولايات المتحدة يوم ١٧ غشت ١٩٦٧.
٦٠- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر عماد الدين أبو الفدا ابن الخطيب القرشى البصروى الشافعى، ولد سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١ م، توفى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م.
- البداية والنهاية فى التاريخ، ١٤ جزءا، القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٣٥٨هـ.
٦١- كراتشكوفسكى، اغناطيوس يوليا نوفتش.
- تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم،

مراجعة ايغور بليايف، القاهرة ١٩٦٣م، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر). القسم الأول.

٦٢- محمود كعت، الفع محمود بن المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكرى، يكتب في سنة ٩٥٢هـ / ١٥١٩.

- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامور وتفريق أنساب العبيد من الاحرار.

Texte arabe édité par 0. Houdas M.Delafosse, paris 1913, (Publications de L'école des langues orientales vivantes IVe série, volume IX).

٦٣- الكندى، أبو عمر محمد بن يوسف، توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م.

- كتاب الولاة والقضاة ، نشر رفن جست، طبعة بيروت، ١٩٠٨م.

٦٤- ليون الافريقي، الحسن بن محمد الوزان الزياتي، يوحنا الأسد الغرناطي، ولد سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م.

Description de L'Afrique, Nouvelle édition traduite de l'italien par A. Epaulard, paris, 1958. 2 vol.

٦٥- المالكى، ابو بكر عبد الله بن أبى عبد الله، (توفى حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى).

- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من اخبارهم وفضائلهم واوصافهم نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١.

٦٦- المحبى، محمد الأمين ين فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين الدمشقي، ولد سنة ١٠٦١ هـ / ١٦٥١م.

- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، طبع مصر سنة ١٢٨٤هـ ، ٤ أجزاء.

٦٧- المراكشي، عبد الواحد (قرن ٧ هـ).

– المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الاندلس إلى آخر عصر الموحدين مع مايتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء واعيان الكتاب.

نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، القاهرة ١٣٦٨هـ / ١٩٦١م.

٦٨– المسعودى، ابو الحسن على بن الحسين – توفى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م.

–مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء طبع التجارية ١٩٥٨.

٦٩– المقدسى، أبو عبد الله محمد بن أحمد، توفى سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م.

– أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، نشرDe Goeje، ليدن ١٩٠٦.

٧٠– المقريزى، أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد الحسينى تقى الدين المقريزى، توفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م.

– المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار، جزئين، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.

– السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول قسم أول وثانى وثالث، والجزء الثانى، قسم أول وثانى وثالث، القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٥٨.

الجزء الثالث – القسم الأول والثانى، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ – ١٩٧١، (مطبعة دار الكتب).

– الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك.

تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥.

٧١– المقرى، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى، توفى سنة ١٠٤١هـ / ١٩٣١م.

– نفح الطيب، من غصن الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، نشر محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة القاهرة، فى ١٠ أجزاء.

٧٢- آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام، ترجمة الدكتور عبد الهادى ابوريدة ، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٧ ، فى جزئين.

٧٣- ابن مماتى، الاسعد بن مماتى، توفى سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م.

- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.

٧٤- ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم الخرزجى الافريقى ولد عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م وتوفى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م.

- لسان العرب، طبع ببولاق عام ١٢٩٩ - ١٣٠٨هـ ، فى عشرين مجلدا.

٧٥- حسين مؤنس.

- الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس من البداية إلى الحجارى، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد المجلدان السابع والثامن ، مدريد ١٩٥٩، ١٩٦٠.

٧٦- مؤلف مغربى مجهول (من القرن الثامن الهجرى) .

- الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية، نشر علوش (مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء السادس)، الرباط ١٩٦٩ .

٧٧- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفى ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.

- الفهرست ، طبعة التجارية.

٧٨- النويرى، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين توفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م.

- نهاية الارب فى فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والاندلس، مخطوط مصور، مكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية رقم ٢٢م.

٧٩- ابن الوردى، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر بن أبى الفوارس محمد الوردى القرشى البكرى الشافعى، ولد سنة ٦٨٩هـ توفى سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م.

- تاريخ ابن الوردى المسمى تتمة المختصر فى أخبار البشر، طبع القاهرة ١٢٨٥هـ.

٨٠- ياقوت، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى، توفى سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م.

- معجم البلدان، فى ٦ أجزاء ، نشر وستنفلد Wustenfeld ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧٣.

- ونشر محمد الخانجى، القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

- مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع، نشرYuynboll، ليدن ١٨٥٠- ١٨٦٤م.

- المشترك وصفا والمفترق صقعا، نشر وستنفلد، جوتنجن ١٨٤٦.

٨١- اليفرنى، أبو عبد الله محمد بن الحاج محمد بن عبد الله الصغير، ولد سنة١٠٨٠هـ / ١٦٦٩ -٧٠م توفى سنة ١١٤ هـ / ١٧٢٧م أو سنة ١١٥١هـ.

- نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، نشر هوداس، باريز ١٨٨٨م.

٨٢- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب، توفى سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م.

- كتاب البلدان، نشر De Goeje ، ليدن ١٨٩٢.

- تاريخ اليعقوبى، فى جزئين، طبعة بيروت ١٩٦٠.

المراجع الأجنبية

ثانيا:المراجع الأجنبية

1- Al Edrissi:

Description de L'Afrique et de L'Espagne (texte arabe et traduction francaise par R. Dozyet DeGoeje),Leyde 1866.

2- Actes du VIIe congrés de l'institu des Hautes-études Marocaines (compte rendu des seances) Hespéris tome XI, 1930 ,Fascicules 1-11.

3- Adam (André):

Le costume dans quelques tribus de L'Anti-Atlas Hespéris, tome XXXIX, Année 1952, 3e et 4e trimestres.

4- Arnold, T.W:

The preaching of islam , A history of the propagation of the muslim faith, second edition, London, 1913.

5- Arnold, T.W.: Arab travellers and Merchants. travel and travellers A.P.Newton, London, 1949.

6-Barth's travels in Nigeriia, extraits from the journal of Heinrich Barth's travels in Nigeria 1850-1855 Selected and edited by A.H.M Kirk Greene, London, Oxford University press, 1962.

7- Blachére, R.: Extraits des principaux géographes arabes du moyen age, paris, 1932.

8- Bovill, E.W.: Caravans of the old Sahara, an introduction to the history of the Western Sudan, London.

9- Bovill, E.W: The golden trade of the Moors.

10- Brockelman, Carl: History of the islamic peoples.

الشعوب والدول الإسلامية، ترجمة انجليزية بمعرفة.

bridge University press, 1962.

23- Gautier E F : Le passé de L'Arıque du Nord, les siécles obscurs, paris 1942.

24- Gautier E.F.: Le Sahara, payot, paris, 1928.

25- A Greek English Lexicon, A new edition Oxford University press, 1939.

26- Harrison Church R.J.: West Africa: A Study of the environment and of man's use of it, Longmans, 1961.

27- Hodgkin, Thomas: Nigerian Perspectives, Oxford University press 1960.

28- Hogben S.J.: An introduction to the histroy of the islamic states of Northern Nigeria, Oxford, 1967.

29- Houdas, O.: L'islamisme, Paris, 1908.

30- Houdas, O.: Documents arabes relatifs a l'histoire du soudan.

ترجمة لكتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى، مع مقدمة وهوامش، باريز، ١٩٠٠ (مطبوعات المدرسة البارزية لتدريس الألسنة الشرقية).

31- Hudud al-Alam the regions of the world a persian geography A.H. 372-982 AD translated and explained by V.Minorsky, Oxford, 1937.

32- Ibn Batuta,: Travels in Asia and Africa 1325-1354, translated and selected by H.A.R. Gibb, London 1939.

33- Ibn Khaldun: The Muqadimah an introduction to the history translated from the arabic by franz Rosenthal, in three Volumes copyright 1958 by Bollingen Foundation Inc, New-York.

34- Julien A.: Histoire de L'Afrique du Nord Tunisie-Algérie Maroc de la conquéte arabe a 1830 - paris, 1930.

35- Jean-Léon L'Africain: Description de L'Afrque, Nouvelle Edition traduite de l'italien par A. Epaulard, Paris 1956, 2 tomes.

36- Mahmoud Kati: Tarikh El Fettach ou chronique du chercheur pour servir a l'histoire des villes, des armées et des princiqaux personnages du tekrorur. traduction francaise par 0. Houdas, M. Delafosse, paris, 1964.

37- kattani, Mohamed I,: Les manuscrits de L'occident Africain dans les Bibliothéques ı Maroc, Hespéres, Tamuda, Vol IX, Fas.one, année 1968.

38- Marcais, Georges: La berbérie musulamne et l'orient au moyen age, paris, 1946.

39- Miranda, Ambrosio Huici: Un Fragmento Inédito de Ibn Idari Sobre Los Almoravides , Hesperis Tamuda, Vol II Fasc I, 1961.

40- Monteil Ch.: Problémes du soudan occidental Juifs et Judaises Hesperis tome XXXVIII, Année 1951, 3e et 4e trimestres.

41- Monteil Ch.: Les "Ghana" des géograhes arabes et de Européen hespéris, tome XXXVIII, Année 1951, 3e et 4e trimestres, pp. 441 - 452.

42-Macoudi: Les prairies d'or Texte et traduction par G. Bai de Meynard et Pavet de Courteille, Paris. (Societé Asiatique, Collection d'ouvrages orien Livre des prairies d'or et des mines de pierres précieuses.

43- Mauny, Raymond: Note sur les grands "Voyages" de Léon L'Africain, Hespéris, t. XLI, année 1954, 3e et 4e trimestres.

44- Mauny, Raymond: Découverte A Gao d'un fragment de poterie émaillé du Moyen age Musulman, Hespéris. t XXXIX, année 1952, 3e et 4e trimestres.

45- Norris, H.T.: Sanhàjah Scholars of Tumbuctoo B.S.O.A.S. Vol XXX part 3, 1967, p, 634.

46- Oliver, Roland: The Dawn of African history, Oxford University press, 1963.

47- Palmer, Richmond: The Bornu Sahara and Sudan, London, 1936.

48- Provencal, Levi: Les Historiens de la chorfa, 1923.

49- Oxford Classical dictionnary.

50- Sauvaget , J.: Introduction a l'histoire de l'orient musulman. Elements de bibliograhie, paris, 1946.

- Historiens arabes, paris 1946 pages choisies, traduites et présentées.

51- Sauvaget, J.: Les épitahes royales de Gao (Al Andalus, Madrid, 1949, Vol XIV, F.I, pp. 123 - 141).

52- Sauvaget, J.: Notes Préliminaires sur les épitahes royales de Gao, revue des études islamiques, Cahier I, année 1948, (1 - 12).

53- Stamp L. Dudley: Africa: A study in tropical development United States of America, 1960.

54- Steingass: A Comprehensive english dictionnary, second impres-

sion, London 1936.

55- ..Terrasse Henri: Histoire du Maroc des origines a l'etabliessement du protectorat francais, deux tomes, Editions Atlantides Casablanca, 1949.

56- Trimingham, J. Spencer: A history of islam in West Africa, Oxford University press. 1963.

- Islam in West Africa, Oxford University press, 1968.

- Islam in the Sudan, Oxford University press, 1949.

57- Wood H.J.: Exploration and discovery, First published, London, 1951.

58- Yver G.: Ency. de l'islam vol II. p. 182, Gogo.

القسم الثاني:
جوانب حضارية من سودان المغرب. ١٣١ - ١٩٨
المقدمة:
في هدف البحث ومصادره. ١٣٣ - ١٧٥
الباب الأول:
الصحراء والسودان. ١٧٦ - ٢٣٩
الفصل الأول: ١٧٩ - ١٩٣
أ- الصحراء. ١٧٩ - ١٩٣
ب- السودان. ١٩٤ - ٢١٤
الفصل الثاني: ٢١٥ - ٢٥٠
أ- سكان الصحراء. ٢١٧ - ٢٢٦
ب- سكان السودان. ٢٢٦ - ٢٣٩
الباب الثاني:
الإسلام في بلاد السودان. ٢٥١ - ٢٩٨
الفصل الأول:
الإسلام في الصحراء وبداية تعرف العرب على بلاد السودان. ٢٥٣ - ٢٦٢
الفصل الثاني:
إنتشار الإسلام في بلاد السودان. ٢٦٣ - ٢٩٨
المصادر والمراجع العربية:
القسم الأول. ٢٩٩ - ٣٠٣
المصادر والمراجع العربية:
(القسم الثاني). ٣٠٤ - ٣١٩
المراجع الأجنبية. ٣٢٠ - ٣٢٦
الفهرست. ٣٢٧ - ٣٢٨